

القيمة العظيمة لأدب الأمم

أ. د. حسين جمعة .

يتوقف هذا العدد عند الأدب الأرمني محاولاً الكشف عن مظاهر السناثر والتأثير في ما ينتمي إلى الأدب المقارن، أو في ما يقال: إنه يدخل في باب الاستشراق. فهو أدب ينتمي إلى شعب يعيش في الجوار الجغرافي القريب من القطر العربي السوري وبخاصة محافظة حلب ومدينتها التي حظيت بقدر كبير من عناية المؤرخين الأرمن مثل ماطيوس الرهوي في كتابه (الحواليات)، وهو أحد أبناء القرن الحادي عشر الميلادي.

ولما كان للأدب الأرمني عناية كبرى بالتراث العربي والإسلامي فقد حظيت بعض الكتب العربية بمنزلة خاصة لدى الأرمن مثل كتاب "ألف ليلة وليلة" وقصة الملك بهلول وغيرهما كما عنوا بالشعر العربي الجميل وأخذوا مصطلحاته مثل تسمية القصيدة لديهم باسم (كافا) أي القافية..

فإذا كانت آداب الغرب قد عنيت بالتراث العربي والإسلامي خاصة من وجهة نظر استشرافية حتى غلب على بقية الآداب الأخرى

فلا يعني هذا أن مفهوم الاستشراق كان حكرًا على الغرب فمعهد الاستشراق الروسي أشهر من أن يشار إليه، وهذا هو الاستشراق الأرمني يكشف لنا عن ذاته من خلال الأقلام التي تناولته في هذا العدد.

ولعل إلمام الدارسين بتاريخ الآداب العالمية وخصائصها الإبداعية الفنية يجعلهم يدركون أن قيمة الاتصال بين الشعوب إنما تكمن في الأدب قبل غيره من أنماط الاتصال الأخرى ليس في باب الاستشراق وحده وإنما في باب التفاعل الحضاري بين الشعوب..

فالآدب ثمرة فنية لمعطيات كثيرة فكرية وثقافية واجتماعية وغيرها في الوقت الذي يعد ثمرة من ثمرات المبدعين المتميزين وبهذا فهو لا يقل قيمة عن الإنتاج الفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي لأمة من الأمم لأنه تعبير فني مواز عن ذلك كله.. فأيّة مؤلفات أدبية أو فنية وإن انطلقت من ذوات إنسانية متنوعة إنما مآلها إلى القارئ أينما كان مكانه وزمانه وإذا كان لكل عصر ومجتمع أدبيهما الخاص بهما فإنه ينبغي علينا أن نتعرف إلى حقائق ذلك كله ونحن نمضي إلى غايتنا في بناء نهضتنا في إطار الحراك الثقافي والفني والأدبي والاجتماعي لإحداث عملية التطوير والإصلاح..

ولهذا فإن هذا العدد الخاص بالآدب الأرمني يعد إحدى ثمرات مجلة الآداب الأجنبية المهمة لتعريف القارئ العربي بآداب الشعوب على مختلف انتماءاتها وهي مهمة جليلة تتأط بهيئة تحريرها قبل غيرها.



مساهمة علم الاستشراق للإنسانية (من خلال الدراسات الأرمنية)

• شاهان سركيسيان⁽¹⁾ •

إن الهدف من هذه المحاضرة هو تقديم لمحة وصفية (ليست تحليلية) موجزة عن مساهمة الدراسات الأرمنية لعلم الاستشراق عامة وللدراسات العربية خاصة، لاسيما ضمن نطاق العلاقات العربية - الأرمنية.

ولابد أن ننبّه هنا، بأن التفاهم والاحترام المتبادل بين الشعوب يمكن أن يحقق السلام العادل والتقدم المبدع للبشرية جمعاء.

فالعلوم بعامة ضرورية لمعرفة الحياة الإنسانية وتطورها، وتمكننا العلوم الإنسانية من سبر أغوار فكر الإنسان ونفسه. وهكذا فالتراث الثقافي الذي وصلنا من الماضي يسلط الضوء على فكر وتفكير "الإنسان القديم" من جهة، ويُفصح عن مستويات تطور "الإنسان العصري" وعن أسباب أزماته المختلفة من جهة أخرى، بغية ضمان الرقي عن طريق المجتمع الإنساني الصالح.

الشرق هو مهد الثقافات الإنسانية ويأتي الاهتمام به منذ الأزمنة الموعلة في القدم. ولما كان الشرق يحتل منطقة مركزية حافلة بالإبداعات من النواحي الثقافية والاقتصادية والدينية، فقد ألقي الإنسان الشرقي نظرة إلى نفسه أولاً واهتمّ بـماضيه، ومن ثمّ نظر نحو الأفاق البعيدة وأبدى اهتماماً مماثلاً للمستجدات المعاصرة.

إن علم الاستشراق (orientalism)، هو نظام علمي لدراسة تاريخ ولغات وآداب ونفسيات وأديان وثقافات وفنون واقتصاد مختلف الشعوب في الشرق. لقد نشأ هذا العلم مع النهضة الأوروبية (في القرنين السادس عشر والسابع عشر)

(1) مطران الأرمن الأرثوذكس لأبرشية حلب وتوبعها.

في هولندا وإنكلترا وفرنسا، واهتم العلماء في البداية بدراسة اللغات، كوسيلة مهمة للاتصال والتواصل بهدف الاستيلاء على البلاد الشرقية. في هذه الفترة، نقل التجار ورجال السياسة والمبشرون العديد من المخطوطات والأعمال الفنية إلى الغرب، ثم فُتحت أبواب كنوز الأدب الشرقي عن طريق الترجمات. ففي سنة 1771، ترجم الكتاب المجلد عن الدين الفارسي القديم المسمى (أفستا) إلى اللغة الفرنسية، وفي أواخر القرن الثامن عشر بدأ العلماء بدراسة اللغة السنسكريتية، ثم حل رموز الكتابات الأورارتية والآشورية والبابلية والفارسية والمصرية، تَبعتها اليونانية والسريانية والعبرية والعربية.

ولما كانت أرمينيا تقع على مفترق الطرق بين الشرق والغرب، تأثر شعبها بثقافتين مختلفتين. وكانت بلاد الأرمن تقع في آسيا الصغرى، وأما لغتهم فتتنتمي إلى المجموعة الهند-أوروبية، بينما تحمل ثقافتهم وحياتهم الاجتماعية الطابعين الشرقي والقفقاسي. إضافة إلى ذلك كانوا على مفترق اتجاهين دينيين مختلفين هما: اليوناني - الروماني والفارسي - السامي.

لذلك فإن دراسة الشرق بالنسبة للأرمن كانت حاجة طبيعية وحيوية في الوقت نفسه. إلا أنه من الناحية العلمية، كانت الدراسات والأبحاث تجري بالتوازي مع التوجهات الأوروبية. ولسد هذه المتطلبات افتتح معهد لازاريان من قبل بعض الأثرياء الأرمن في موسكو في سنة 1815 لدراسة اللغات الشرقية.

• • •

علم الدراسات الأرمنية هو جزء لا يتجزأ من علم الاستشراق. فقد اهتم علم الاستشراق الأرمني بدراسة تاريخ الشعوب المجاورة، وبالتالي تقدم المصادر الأرمنية معلومات هامة وقيمة عن تلك الشعوب. ويعد إرميا جلبي كومورجيان (القرن السابع عشر) وكييفورك تبيير بالاديستي دير أوهانسيان (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) مؤسسي علم الاستشراق الأرمني. وتجدر الإشارة إلى أن العلماء الأرمن استفادوا من المصادر العربية أثناء دراستهم، ففي سنة 1806 استند العالم الأرمني إنجيبيان في مؤلفه عن الآثار الشرقية إلى كتابي الإدريسي (القرن الثاني عشر الميلادي) وأبي الفداء (القرن الرابع عشر الميلادي). ثم تبعه سان مارتن

الذي طبع بين العامين 1818-1819 مصادر عن تاريخ أرمينيا وجغرافيتها انطلاقاً من بعض المصادر العربية كالمسعودي (القرن العاشر الميلادي) وابن حوقل والإدريسي (القرن الثاني عشر). ثم ما لبث العلماء أن اهتموا بدراسة النقود المسكوكة في أرمينيا، وكذلك الكتابات العربية على الصروح المعمارية الأرمينية. وقامت نخبة منهم بترجمة بعض المصادر العربية إلى الأرمينية، مثل آ. دير أوهانيسياننس (تاريخ تيمورلنك" للمؤرخ عربشاه)، والأب غيفونت أليشان (كتاب أبو الصلح الأرميني حول الأديرة في مصر وعن الوزراء الأرمن في العصر الفاطمي). وقام ب. خالاطياننس بترجمة مقاطع من أعمال المؤرخين العرب عن الأرمن وأرمينيا كالبلاذري وياقوت الحموي والطبري وابن مسكويه وابن الأثير. ووردت في الموسوعة الإسلامية (بالإنكليزية - المجلد الأول) دراسة مفصلة عن الأرمن وأرمينيا بناءً على العديد من المصادر العربية. وفي النصف الأول من القرن العشرين ترجمت إلى الأرمينية مقاطع من مؤلفات ابن الميسر وابن خلكان وابن بطوطة، وفي النصف الثاني منه ترجمت نبذة من مؤلفات ياقوت الحموي وأبي الفداء وابن شداد وابن الأثير، وغدت موسكو وسانت بطرسبورك وتبيليسي وإيتشميادزين والقسطنطينية وقبرص وكييفسكا والبندقية وكلكتا ومطراس ويريفان مراكز مرموقة لعلم الاستشراق الأرميني. ففي يريفان بدأ العلماء سنة 1923 ببعض الدراسات عن الأدب الشرقي، ثم أنشئ معهد اللغات والأدب الشرقية سنة 1940، وفي سنة 1958 تأسس قسم الأبحاث الاستشراقية، وفي سنة 1968 تأسست كلية الاستشراق، والتي تحولت سنة 1971 إلى المعهد العالي للاستشراق. وفضلاً عن المجموعة الكبيرة من المقالات والمؤلفات التي تبحث في الدراسات الأرمينية، صدرت سلسلة من المجلدات أيضاً، ومنها على سبيل المثال: "ديوان الاستشراق" و"بلدان وشعوب الشرقيين الأدنى والأوسط" و"المصادر الأجنبية عن أرمينيا والبلاد المجاورة" و"الشرق القديم" و"القفقاس وبيزنطة" و"علم المصادر الشرقية". ومن العلماء الأرمن الذين نبغوا في الدراسات العربية نعلبنديان وديرغيفونتيان، فقد كان لهما باع طويل ليس في مجال علم الاستشراق الأرميني فحسب بل في مجال علم الاستشراق العربي أيضاً من خلال دراساتهم العلمية العديدة.

• • •

ليست العلاقات التاريخية بين الشعبين العربي والأرمني وليدة القرن العشرين كما يظن البعض، وهي لا تبدأ مع هجرة الأرمن إلى سورية وخاصة إلى حلب هرباً من المذابح التي وقعت في تركيا ضد الأرمن من قبل الإمبراطورية العثمانية سنة 1915. لقد غدت العلاقات العربية- الأرمنية متميزة ابتداءً من منتصف القرن السابع الميلادي، وتحديدًا أيام الفتح العربي لأرمينيا، لذلك ينصبّ الاهتمام المتبادل بين متقفي الشعبين إلى تلك الفترة. فالمؤرخون والرحالة العرب في القرون الوسطى كتبوا الكثير عن أرمينيا وكذلك فعل الرحالة الأرمن.

ولا مجال هنا لذكر جميع هؤلاء، لكننا سنتطرق إلى بعض الذين كتبوا حول حلب التي حظيت بنصيب وافر من الاهتمام من المؤرخين الأرمن لكونها مدينة قريبة جغرافياً من بلادهم ولأنها لعبت دوراً هاماً في تاريخ المنطقة.

يؤرّخ المؤرّخ الأرمني ماتيوس الرهوي، الذي عاش في القرن الحادي عشر، في كتابه "الحوليات" مرحلة زمنية تمتد من منتصف القرن العاشر إلى سنة 1137م. وكان شاهد عيان على العديد من الحوادث التاريخية الهامة ويقدم الرهوي في كتابه تفاصيل هامة عن حروب الفرنجة والوضع السياسي والعسكري في منطقة الشرق الأوسط، ويصف حصار الفرنجة لمدينة حلب سنة 1125م. وكيف أن بعض القوات ساندتهم بحيث اجتمع جيش كبير حول المدينة وبدأت حلب تعاني من خطر المجاعة حتى وصل أمير الموصل البرسقي واستطاع فك الحصار وإعادة الأمور إلى طبيعتها.

ومن الرحالة الأرمن الذين زاروا حلب سنة 1617 وكتبوا عنها ووصفوها وصفاً دقيقاً سيمون ليهاتسي. وقد أكد سيمون أن في المدينة ثلاثمائة وخمسة وستين خاناً، وكل واحد منها أجمل من الآخر، مستطرداً بأن هناك العديد من المحلات والحوانيت والمتاجر التي تحتوي على كل ما تطلبه في تلك الأسواق، لأنّ حلب مدينة تجارية كبيرة. وتكلم الرحالة أيضاً حول الحركة التجارية في الخانات وعن بيع الأطلس والجوخ والحريز والقماش فيها، ثمّ تطرق إلى وصف الحمامات مشيراً إلى أن مياهها وفيرة وصحية كما وصف بعض العادات والتقاليد الشعبية الحلبية.

فضلاً عن مؤلفات المؤرخين الأرمن هناك العديد من حواشي المخطوطات الأرمنية التي حفظت معلومات تاريخية هامة عن حلب لا نجدها في المصادر التاريخية الأخرى، وعليها ألا ننسى مواد الأرشيف والمراسلات والمقالات الصحفية وغيرها من الكتابات، وبأحداً لو قام أحد الباحثين بجمع كل ما كتب عن حلب باللغة الأرمنية ثم ترجمها إلى العربية ونشرها في كتاب خاص خدمة للعلم ولحمي التاريخ.

إن كتاب "ألف ليلة وليلة" الشهير لم يترجم إلى الأرمنية كاملاً إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لكننا مع ذلك نجد ترجمات عديدة لبعض قصصه في المخطوطات الأرمنية التي انتشرت انتشاراً كبيراً في الأوساط الأدبية الأرمنية ونسخت مرات عديدة وطُبعت مراراً خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. من هذه القصص نذكر "قصة مدينة النحاس" و"قصة الفتاة والشاب" و"قصة الملك بهلول". لقد نقلت هذه القصص إلى الأرمنية في القرن العاشر الميلادي بطلب من الأمير الأرمني تافيت كوراجاباد، وأبداء من القرن الثالث عشر الميلادي قام الشعراء الأرمن بإضافة بعض القصائد الجميلة إلى هذه القصص التي عرفت فيما بعد بسمية عربية هي "كافا" أي "القافية".

علينا ألا ننسى كتاب "أرباين في علم طب الخيل" الذي يبحث في علم طب الخيل وتربيتها. تجدر الإشارة إلى أن الملك الأرمني هينوم أتى بالنسخة العربية الأصلية لهذا الكتاب من بغداد — عندما زارها لعقد معاهدة تحالف وصداقة مع الخليفة العباسي — إلى مدينة سيس عاصمة المملكة الأرمنية في كيليكيا، حيث تمت ترجمتها إلى الأرمنية لما فيها من معلومات هامة تخدم الجميع، ولكن بعد فترة فقد النص العربي للكتاب وترجم ثانية ولكن من الأرمنية إلى العربية في هذه المرة.

لقد قام أحد الباحثين في أرمينيا بطبع النسخة الأرمنية من هذا الكتاب الشيق، وأما النص العربي فلا يزال في حالة مخطوط.

وهناك ترجمات أخرى لأعمال أدبية من كلتا اللغتين في القرون الوسطى، منها كتب تاريخية وعلمية وطبية ودينية وأدبية، ومن هذه الكتب نذكر كتاب "تاريخ الأرمن" للمؤرخ الأرمني آكاتانكيغوس الذي عاش في القرن الخامس

الميلادي وكتاب الثعلبي" وهو مجموعة أمثال وحكايات شعبية على غرار كتاب "كسيلة ودمغة"، فضلاً عن بعض الكتب الطبية والعلمية العربية وبعض المعاجم اللغوية.

نعتقد بأن مجموعات المخطوطات الأرمنية الموجودة في يريفان وجلفا الجديدة والقدس ولبنان والبندقية وفيينا تتضمن مفاجآت كبيرة حول علوم الاستشراف. فالنسخ الأصلية لكثير من الأعمال الأدبية في القرون الوسطى زالت مع الزمن وبقيت ترجماتها الأرمنية التي لها قيمة علمية كبيرة الآن وهي تترجم من الأرمنية إلى تلك اللغات خدمة للعلم.

واليوم، هناك فيض من الموضوعات المتنوعة يجب دراستها وفق اتجاهين هما: المصادر الشرقية — لا سيما الموضوعات العربية، والمصادر الأرمنية التي يمكن أن تسلط الضوء على علم الاستشراف العربي. والمسيرة طويلة كي يتمكن الطرفان من تكوين أفكار صائبة عن بعضهما البعض قدر الإمكان.

وهنا، نود أن نستطرد بشكل سريع إلى مساهمة المصادر العربية في الدراسات والأبحاث الخاصة بالشعب الأرمني. ولابد أن نذكر بأن أرمينيا منذ انتشار الدين الإسلامي خضعت للخلافة العربية — مع الأخذ بالاعتبار كل سلبات وإيجابيات هذا الأمر —، وكانت تتمتع باستقلال ذاتي ويحكمها "أمير أرمني". كانت اللغة العربية آنذاك لغة دولية، ومن المرجح أن الأمراء الأرمن ورجال الدين تلقوا علومهم بها. نذكر زيارة الكاثولييكوس أوهانس أوتسنتسي للخليفة العربي في دمشق الذي اعترف وقدم مساندته للإمارة الأرمنية البقراونية. كذلك تأثرت اللغة الأرمنية بالعربية، حيث دخلت إليها مئات الاستعارات العربية. وتقدم المصادر العربية معلومات وافرة عن نشأة الأرمن وأجدادهم — ابن الكلبي — القرن التاسع، ياقوت الحموي — القرن الثالث عشر، الدمشقي — القرن الرابع عشر، فضلاً عن التسميات الإدارية والاقتصادية في أرمينيا وعن أوضاعها وأساليب حكمها ووضعها الإداري وعن العادات والتقاليد الشعبية الأرمنية (ابن المهيمل — القرن العاشر الميلادي). ومن المؤلفات العربية الهامة التي تتكلم عن جغرافية أرمينيا،

■ مساهمة علم الاستشراق للإنسانية ■

كتاب المؤرخ العربي اليعقوبي (القرن التاسع الميلادي) الذي زار أرمينيا وكتاب "المسالك والممالك" للأصطخري ومؤلفات ابن حوقل والمقدسي (القرن العاشر الميلادي) التي تتضمن معطيات مثيرة عن جبل أراغات مثلاً. ويعد مؤلف ابن الفقيه (القرن التاسع الميلادي) المرجع العربي الوحيد الذي أمدنا بمعلومات وفيرة عن الثروة الطبيعية في أرمينيا.

أول ترجمة من اللغة العربية إلى الأرمنية تمت في سنة 1222 وكانت كتاباً حول تفسير الأحلام من تأليف السلطان خلف (سلطان سيميان وخراسان).

باختصار، إن التطورات الحديثة التي طرأت على علم الاستشراق العربي ضمن نطاق علم الاستشراق ككل، ساهمت وسوف تساهم في المستقبل في تطور الدراسات العائدة لعلم الاستشراق الأرمني.

علينا بالمقابل أن نلتفت إلى مساهمة المصادر الأرمنية لعلم الاستشراق عند دراسة تاريخ كل من إيران والإمبراطورية العثمانية والهند وبلاد الشرق الأقصى وأثيوبيا، وبخاصة بعض الدول العربية كسوريا ولبنان وفلسطين ومصر والعراق. وترجمت مؤلفات العديد من المؤرخين الأرمن وأبحاثهم إلى العربية، منهم المؤرخ أكاتانكيغوس وسبيبيوس وغيفونت وتوما آردزروني وأوهانس تراسخانا كردتسي واستيفان دارونتسي — أسوغيك وصمونيل ووارطان آريفلتسي وماطيوس الزهوي. ومن الأطباء الأرمن في العصور الوسطى الذي خلد اسمه في تاريخ الطب العربي مخيتار هيراتسي، فقد كان يتقن العربية واليونانية والفارسية والأرمنية ومؤلفه المشهور بعنوان "تفريح الحمى". والعديد من الأدوية التي كانت تستعمل في أرمينيا انتقلت إلى الطب العربي والأوروبي، كالأرجل الأرمني وبولوس أرمينيا... وتوجد كتابات وفيرة حول الإسلام وردت في مؤلفات بعض المؤرخين الأرمن.

وأخيراً، نلخص أفكارنا كما يلي:

- 1 — إن الإنجازات الاستشراقية العربية — الأرمنية هي مصدر غني لكلا الطرفين وتسلط الضوء على بعضهما البعض.

- 2 - تتوفر مصادر كثيرة عن حياة وتاريخ الشعبين في كل المستويات، ومن الضروري أن نقوم بدراستها وترجمتها بالتعاون مع بعضنا البعض.
- 3 - بقي علم الاستشراق ملك العالم الغربي لمدة طويلة. لقد قام علماء الغرب بإنجازات قيمة ولكنهم في غالب الأحوال قدموا استنتاجات مختلفة، بل وحتى قدموا صورة خاطئة عن الشرق أحياناً.
- 4 - يجب أن لا يخضع علم الاستشراق للمصالح السياسية والدينية. ومن الضروري إبراز القيمة العالمية لتاريخ الشرق وثقافته باتباع المبادئ والأصول العلمية المعاصرة، وفي بعض الأحيان بترجمة المؤلفات الهامة في هذا المضمار إلى اللغات الدولية.
- وانطلاقاً من كل هذا، من الحيوي إنشاء ملتقى دولي ومركزي ومنبر للدراسات الأرمنية كأحد فروع علم الاستشراق في مدينة حلب، بغية دراسة اللغة الأرمنية والأدب الأرمني دراسة اختصاصية كمصدر لا يستغنى عنه في العالم العربي. بل ومن الضروري أن يتابع الجيل الجديد والشبابية علم الاستشراق والدراسات العربية والأرمنية بجدية تامة باعتبارها جسراً فكرياً ثابتاً يربط الشعبين العربي والأرمني.
- 5 - لقد اتسم التعايش الأرمني-العربي بنقلته الجديدة في بداية القرن العشرين، إبان التهجيرات الأرمنية الكبيرة من أرمينيا التاريخية، فاستقر الأرمن في البلاد العربية وهم يكتفون لها وللشعب العربي كل الحب والوفاء، ومستعدون للتضحية والفداء من أجلها ومن أجل حقوقها المشروعة، ذلك لأنهم يقيمون وجودهم بحضور مبدع وخالق في هذه العائلة الكبيرة التي تضم العديد من الشعوب وبكلمة واحدة تسمى "الشرق".



لمحة موجزة عن الشعر الأرمني القديم

(العصور القديمة . القرن الثامن الميلادي)

■ إعداد: هوري عزازيان ■

إن الفترة التاريخية المذكورة ليست بالقصيرة، كما أن هذه اللوحة الموجزة ليست بدراسة شاملة عن تطور فن الشعر الأرمني في هذه الفترة، ولكنها أشبه ما تكون بالنافذة على الإبداع الأرمني في جنس أدبي متقدم، تكشف الأسلوب الذي فكر به الشعراء الأرمن القدماء معبرين فيه عن أنفسهم ومجتمعهم وروبتهم.

والتنوع السارد في هذا الموضوع يعبر عن الطاقة الشعرية لديهم، ويأتهم لا يخضعون لقوانين مدرسة واحدة. لقد علمتهم الطبيعة وجغرافية بلاد الأرمن وتاريخهم وثقافتهم المميّزة الشيء الكثير، فضلاً عن تأثير الثقافة الإنسانية عليهم. فالنتاج الشعري القديم يعطي صورة صادقة عن عاطفية ووطنية جياشة وانتعاش صادق للبيئة والعصر واتكساء ملحوظ على الميثولوجيا (علم الأساطير)، مما قد يجد القارئ نفسه مأثوفاً مع أبطال وحوادث هذه المختارات الشعرية، فأولئك الشعراء كانوا أكثر التصاقاً بواقع الشعب الأرمني وانتعاش لتاريخه وقيمته ومعانيه وأرضه، والذين رصعوا صفحات تاريخه الحافل بالمآثر والبطولات والمآسي.. بلآلئ كونتها الحروف وحفظتها الأيام.

...

مدخل

الشعب الأرميني هو من أقدم شعوب العالم وتعود جذور ثقافته الفكرية والروحية إلى الأزمنة الموعلة في القدم. ويشكل الوطن الأم — أرمينيا، والتراث الشعبي أساس الأدب الأرميني بمجمله. في الواقع، يعد التراث الشعبي في جوهره الأدب الأرميني غير المدون الذي يتميز بمضمون قومي وإنساني، ويضم الأساطير والملاحم الشعرية والحكايات والأمثال والمعتقدات... أبدعها الأرمين قبل عدة آلاف من السنوات من ابتداء الأبجدية الأرمينية من قبل (القديس ميسروب ماشدوتس) (1) في القرن الخامس للميلاد، سنة (406م).

تجدر الإشارة إلى دور الميثولوجيا الأرمينية في الأدب الأرميني غير المدون، نتاج فكر الأرمين وخيالهم. ولما كانت ميثولوجيا كل شعب من الشعوب تتصف بصفات خاصة بها تختلف عن غيرها، فإن الميثولوجيا الأرمينية تتميز بخصوصيتها. ففي تلك الأزمنة الغابرة، خضع الإنسان الأرميني بدوره إلى الطبيعة وخلق من عناصر قوتها الخيرة والشريرة إلهة عبدها.

ومع الميثولوجيا تتكون اللغة والشعر أيضاً، ذلك لأنه في الأدب تظهر شخصية الشعب وخصائصه. وبالرغم من أن الميثولوجيا الأرمينية كانت غنية جداً، إلا أنه لم تصل إلينا سوى مقتطفات شعرية وردت في مؤلفات المؤرخين الأرمين القدماء، أمثال: (أكاتانكيغوس — AKATANKEGHOS) و(موسيس الخوريني — MOTSES KHORENATSY) و(بافسطوس البيرنطي — PAVESTOS — PUYZANTATSY) و(غازار باربetsy — GHAZAR PARBETSY)، وتكشف عن تنوع موضوعاتها وأشكالها وأساليبها الشعرية.

ويؤكد بعض العلماء الأرمين وجود أدب أرميني مدون في المعابد الوثنية في أرمينيا وفي بلاط الملوك الأرمين القدماء ولكن بلغات أخرى غير الأرمينية، لربما باللغة اليونانية، انتقلت أفكاره عبر العصور وتعبّر عن نظرة الشعب الأرميني ومشاعره وعاداته وتقاليدته....

وينطلق الأدب الأرميني المدون بطابعه القوي ومضمونه العلماني من مختلف الإبداعات الشعبية. ومنذ أن ابتدع (القنيس ميسروب ماشدوتس — ST. MESROB MASHDOOTS) الأبجدية الأرمينية، بدأ الشعب الأرميني يكتسب خبراته وتجاريه في لغته الخاصة، التي تحمل حسيلا تفاعله مع الكون والطبيعة والأمم والأحداث، وهي تشكل أهم مقومات شخصيته الثقافية التي تميزه من سواه. ففي نسجها يتناقل خصوصيته ويحميها، وفيها تلقت شئاته، ومنها يقدم شينا من ثقافته وأدبه وحضارته للشعوب الأخرى.

...

الشعر الأرميني القديم غير المدون

إن أقدم ما وصل إلينا من الشعر الأرميني القديم هو مقاطع من الشعر الملحمي الخاص للإله (فاهاكن — VAHAKN).

يذكر المؤرخ الأرميني (موسيس الخوريني) (2) في القرن الخامس للميلاد في مؤلفه "تاريخ الأرمن" — حيث اعتمد في تأليفه على الأساطير الأرمينية القديمة وكلمته غنية بالمدخلات الفنية — أن القصيدة الشعرية: "كانت الأرض والسماء في المخاض..."، كانت منتشرة في القرن السادس قبل الميلاد، أيام الملك الأرميني (ديكران يروانتيان — DIKRAN YERVANTIAN)، تكريما وتمجيذا لولي العهد الأمير (فاهاكن)، زوج الإله (آسدغيك — ASDGHIG) (3)، وهي تخبرنا عن ميلاد الإله (فاهاكن) وعن أعماله البطولية.

لقد سبق وذكر المؤرخ الأرميني (أكاتانكيغوس) في القرن الخامس للميلاد في مؤلفه "تاريخ الأرمن"، أن الإله (فاهاكن) كان يهب البطولة والشجاعة للأرمن ولوطنهم. وتجدر الإشارة إلى أنه وردت في هذا المؤلف التاريخي، الذي يتميز بقيمة تاريخية وفنية وأدبية كبيرة، براهين كثيرة عن الميثولوجيا الأرمينية، وأن المؤرخ استند على الأساطير الأرمينية القديمة إلى حد بعيد.

فضلاً عن ذلك، يشرح (موسيس الخوريني) أنَّ الإله (فاهاكُن) كان معروفاً بلقب "قاتل الثنين"، لأنه قاتلهم بشجاعة فائقة وانتصر عليهم. ويشهد بأنه سمع بنفسه مقطعاً من هذا الشعر كان الأرمن يغنون به مرافقة آلة موسيقية تسمى "بانثير" (PANTER) (4).

لكنَّ كلَّ هذا لا يعني أنَّ هذا الشعر الملحمي يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. فالتحليل العلمي الدقيق للغة وللنظام التصويري فيه، ثمَّ المقارنة مع الرسوم التصويرية الواردة على الصخور في أرمينيا، يدلان على أنَّه ظاهرة ثقافية وأدبية قديمة جداً.

كانت الأرض والسماء في مخاض
وكذلك البحر الأرجواني
وكانت تستمخض في البحر
القصة بـ الحـمراء
ومن ينطلق الدخان من القصبة،
ويرتفع اللهيب منها،
ومن خلاله كان يركض
صبي أشقر،
كان شعره من النار،

...

وذقنه من الذهب،
وكانت عيناه تسطعان مثل الشمس.

فالملاحم الشعرية الروائية التي تروي عن الإله (فاهاكُن)، هي من أروع ما كان يتغنى به الشعب الأرمني. كانت شخصيته رمز الخير والبطولة فقد حاربت القوى الشريرة وأعداء الوطن، وأما هو فيُعدُّ أقدم تعبير عن الشجاعة والنور

لمحة موجزة عن الشعر الأرمني القديم

والشمس والرعْد والبرق. واحتفظ الإله (فاداكُن) بمكانته الخاصّة لدى الأرمن
وعدا فيما بعد رمز النهضة الوطنيّة وشارك مشاركة حيّة في مسيرة تاريخ الأرمن
إلى القرن السابع الميلادي، حين ذكره عالم الفلك الأرمني (آنانيا شيراكا تسي –
ANANAIA SHIRAKATSY) في دراساته العلمية عن الكون.

وتستقّق المصادر الأرمنية كلّها على أنّ النموذج الآخر للشعر الأرمني القديم
هو قصيدة (الولد فارتكيس – VARTKES DEGHA) فوق (موسيس
الخوريني) ألّفت قصائد ملحمة طويلة عن (الولد فارتكيس) لم تصل إلينا سوى
خمسة أبيات منها فقط. وتقول الحكاية بأنّ الأمير الأرمني (فارتكيس) – الملقّب
بـ "الولد" بسبب قوته الخارقة وثقافته البليغة – ، قدّم برفقة شعبه إلى ضفاف نهر
(كاساغ – KASAGH) قرب مدينة (أردميت – ARDIMED)، وتزوَّج من
الأميرة شقيقة الملك الأرمني.

وهذه القصيدة هي إحدى القصائد الروائية الأولى التي قطعت مسافة ألف سنة
تقريباً ووصلت إلى القرن الخامس للميلاد، حيث دوّنّها (موسيس الخوريني)
لقيمته الاجتماعيّة والفنيّة والأدبيّة وأنقذ صفحة قيمة من أقدم صفحات التاريخ
والأدب الأرمني.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>
ذهب الولد فارتكيس

من إقليم دوهاتس عبر نهر كاساغ
واسْتَقَرَّ في هضبة شريش
قرب مدينة أردميت، وهو
ينوي أن يدقّ باب الملك الأرمني
كي يطلب يد شقيقته.

حافظ الشعب الأرمني على أساطيره وأغنياته وفنّه وأدبه، وعلى تراث
الملوك والآلهة، وعلى التقاليد الشعبيّة التي ترتبط بالطبيعة الخلابة لبلاده
وينمط معيشته.

ولعل أجمل الأمثلة هي تلك الأغنيات التي وصلتنا من إقليم (كوغتان KOGHTAN) الأرميني، الذي اشتهر بتراته الغنائية الفريدة. لقد كان الأرمن يعشقون القصائد الشعرية الغنائية التي كانت تروي الحكايات عن الملك الأرميني (أراداشيس الأول — ARADASHES I) (190 ق. م — إ.م)، وعن الحوادث التي كانت تقع في البلاط الملكي.

يحدّد (موسيس الخوريني) بأنّ المختارات الشعرية التي وصلتنا من هذا الأدب غير المدوّن التي تدعى "أغنيات كوغتان"، تعدّ صفحة أدبية حقيقية وتعبّر عن حقبة تاريخية معينة عاشها الشعب الأرميني.

"وامتطى الملك المقدام جواده الأسود الجميل..."

تظهر من البيت الأول شخصية الملك الأرميني البطولية، تغلب عليها مشاعر الوطنية وحُب الوطن. فقد كان يعشق طبيعة أرمينيا والاحتفالات والتقاليد الشعبية الحافلة.

وتروي "أغنيات كوغتان" أنّ الملك الأرميني حارب جيوش شعب (الآلان) (أو الأغوان) الذي كان يغزو أرمينيا بين حين وآخر ويخرب قرأها ومنذها العامرة. وفي إحدى المرات جمع الملك (أراداشيس الأول) جيشه العرمرم والتقى بجيش الأعداء على ضفاف نهر (كورا أراكس — KURA ARAKS)، وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً، وأسر الأمير ابن الملك. وطلب ملك الآلان عقد صلح يعده بدفع الجزية والابتعاد عن الأراضي الأرمينية. ولكنّ الملك الأرميني رفض ذلك، عندئذ تقدّمت الأميرة الحصناء (ساتينيك — SATENIG) إلى ضفة النهر وخاطبت الملك قائلة....

فتمنّل إليك أيّها البطل أراداشيس
أنت الذي انتصرت على شعب الآلان الشجاع.
تعال واسمع كلام ابنة شعب الآلان ذات العيون الجميلة،
وافرج عــــن الصــــبي.
فليس للأبطال الأسطوريين قاتون،

لمبة موزة عن الشعر الأرمي القديم

يسمح بأسر سليل الأبطال الأسطوريين الآخرين
أو الاحتفاظ به كالخدم في عداد الأسرى،
وتثبيـت العـداء الأبـدي
بين الشـعبيـن الشـجاعين

وتستمر الحكاية مؤكدة أن الملك الأرمني عشق الأميرة الحسنة إثر سماع
أقوالها فقرر الاقتراح بها وعقد الصلح مع الأعداء. إلا أن أباه الملك أثارت
الشكوك في عدم قدرة الملك الأرمني على دفع المهر المطلوب. فدفعاً عن
كرامته، خطف الملك الأرمني الأميرة الجميلة.

وامتطى الملك المقدام جواده الأسود الجميل
ورفع سوطه الذهبي الذي كان يشع نوراً ولهباً،
وعبر النهر كالنسر الجـاثج
ثم رفع السوط المتألق
ولفـف به خصـر الأمـيرة الحـسنة
التي كانت تـفـرّط في الأكم،
وجاء بهـا طـرف جـيشـه.

ويعتبر هذا المقطع الشعري عن شخصية الملك الأرمني التي تتسم بالشهامة
والإباء وحبّه للسلام. وأما حفلة العرس فكانت فخمة لا مثيل لها.

في عرس أرداشيس كان الذهب ينثر كالطر الغزير،
وفي عرس ساتينيك كانت اللآلئ تمطر...

وتتميز "أغنيات كوختان" ببساطة اللغة وواقعية المشاهد التصويرية، على
نحو يبرز براعة الشعراء وذوقهم الرفيع ومبادئهم الأدبية المميزة.

وتبلغنا هذه الأغنيات — فضلاً عن أعمال الملك البطولية — عن مأساة الأسرة الملكية ورغبات الملكة (ساتينيك) التي لم تتزوج عن حُب، وعن أمنيات الملك الأخيرة وهو على فراش الموت.

من يستطيع أن يقدم لي الدخان الأرجواني
وصباح يوم عيد النافاسارت (5)،
حيث تُركض الوعلان
وتكردح الآبائ،
حيث كنا نعرّض السبوق
ونُدق الطب
على أداة الماكوك.

يُذكر بأنّ الحان هذه القصائد كانت رائعة أيضاً وبغنيها الأرمن بمختلف طبقاتهم لأنها كانت اتروي الحوادث التاريخية وقصص أبطالها بأمانة كبيرة.

<http://ArchiveBeja.Sakhrir.com>

الشعر الأرمني القديم المدون

مع إعلان المسيحية ديانة رسمية في أرمينيا سنة (301م) من قبل الملك الأرمني (درداد الثالث DERTAD III — 252 — 330م)، وتنظيم الكنيسة الأرمنية الرسولية من قبل (القديس كريكور المنور — KRIKOR LOUSAVORITCH 302 — 325م)، بدأت تتراجع مفاهيم الوثنية لتحل مكانها مفاهيم الدين الجديد، ثم فقدت أرمينيا مكانتها التاريخية وانقسمت سنة (387م) بين (بلاد الفرس) و(بيزنطة). وأثناء هذا المأزق السياسي الحرج، الذي كان يهتد الهوية الأرمنية، ابتدع (القديس ميروب ماشدوتس) الأبجدية الأرمنية سنة (406م)، تبعها حركة الترجمة والتأليف وتأسيس المدارس في كل أنحاء البلاد بقيادة الملك الأرمني

لمحة موجزة عن الشعر الأرمني القديم

(بهرام شابوه — VERAM SHBOUH) (392 — 414م) والكاثوليكوس (سماهاك بارثيف — SAHAG BARTHEV) (387 — 438م) و(القديس ميسروب ماشدوتس) ونخبة من طلابهم. فعمت البلاد نهضة ثقافية وأدبية وروحية لم يسبق لها مثيل.

توازياً مع هذه المستجدات، تطوّرت القدايس الكنسية بدورها، وظهرت مجموعة من الشعراء الذين كتبوا قصائد دينية ومذائح وترانيم روحية. وهكذا بدأ عهد الأدب الأرمني المدون وسميت هذه المرحلة بالأدب الروحي، وكان من رواده الكاثوليكوس (سماهاك بارثيف) و(القديس ميسروب ماشدوتس) والمؤرخ (موسيس الخورينسي) والكاثوليكوس (أوهان مانتاكوني — HOVHAN MANTAGOUNY) (478 — 490م).

انصفت هذه النخبة من الأدباء بعقريّة الإبداع، وأفلحت في التوفيق بين مؤلفاتها ومتطلبات العهد الجديد، وسميت إبداعاتها الشعرية بـ "التراتيل". وهي قصائد شعرية ملحنة، تستخدم في القدايس الكنسية المختلفة، وتتميز بتوقعها وبأن المفاهيم الدينية فيها أكثر تطوراً من الكلمة الفنية والمشاهد التصويرية. أي أنها تتضمن أفكاراً وأجاسيس علمانية ضمن نطق المفاهيم الدينية على نحو لا يمكن الفصل بينهما إلا بدراسة تاريخية وعلمية. أما من الناحية الفنية والأدبية، فإنها تنصف بلغتها البسيطة وأسلوبها المؤثر فضلاً عن ألحانها الشعبية الأصيلة.

ولا بد أن ننوه بأنه توجد دراسات علمية تحليلية واسعة عن "التراتيل" تؤكد بأنها لم تتخذ شكلها النهائي في القرن الخامس للميلاد بل مرت بمراحل تطوّر في القرون التالية.

ويستق المؤرخون والنقاد الأرمن بأن الكاثوليكوس (أوهان مانتاكوني) كان رائد التيار المحافظ في الأدب الروحي الأرمني في القرن الخامس للميلاد.

فقد كان من أبرز الشخصيات الدينية والوطنية وقد تميّزت مؤلفاته الشعرية بالوطنية أيضاً فضلاً عن الطابع الديني — الأخلاقي. ومن المختارات الشعرية تلك المهداة إلى المترجمين الأرمن الأوائل الذين أضأوا أرمينيا بنور العلم والمعرفة، وتتألف من (24) فقرة.

فلتُبتهج اليوم كل الأمم والشعوب،
بأننا نحتمل بذكرى المعتمدين القديسين،
الذين يشع منهم النور السماوي. (الفقرة 1)
إنهم بقوة الحكمة الإلهية
أسسوا كرسي القديس كريكور (6)
مع تفسير حروف الأبجدية،
فلتباركوا الله بأغنية عذبة رفيعة. (الفقرة 13).

ونؤكد هنا أن ابتداء الأبجدية الأرمنية كان نقلة قومية فاصلة في تاريخ الشعب الأرمني، وقد غدا موضوع مؤلفات العديد من الأدباء والمفكرين في القرنين الخامس والسادس للميلاد بخاصة.

كذلك، من أجمل مؤلفات الكاثوليكوس (لوهان مانتاكوني)، قصيدة شعرية تتألف من (12) فقرة، يمجّد فيها "العذارى هريپسيميانس" (7) (HRIPSIMYANTS) (GOUYSER) ويعظم روح التضحية لديهن.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

بالدفاع عن القديسين
ضد أصنام العبادة
كان أولئك العذارى المنتصرات أبدأ
يجدن السعادة في الكفاح،
لأنهن أحبين الله كثيراً
وباتباع مثال الرب المتجسد؛
نلن إكليل الفخر. (الفقرة 2)

...

لمبة مويزة من الشعر الأرمني القديم

ثمّ مرت "التراتيل" بمراحل تطوّر تبلورت في القرن السابع للميلاد، حيث برز على مسرح الأدب الروحي الكاثوليكيوس (كوميداس الأول — COMIDAS I) (615 — 628م)، وكان بعيد الشهرة بإنجازاته العمرانية والثقافية والأدبية. يُذكر بأنه فضلاً عن كونه شاعراً مبدعاً كان موسيقاراً فذاً، وأجمع العلماء الأرمن على أنه كان أبرز شعراء العصر.

من أشهر مؤلفاته قصيدة شعرية تتألف من (36) فقرة وتكاد تكون ملحمية، وصف فيها جمال "العذاري هريمسيماتس" وإيمانهن وشجاعتهن. وتتميّز بلغتها السهلة المعبرة والأوزان الشعرية المحددة والخصائص الفنية المتكاملة مع أسلوب موسيقي أخاذ.

مكرّسات لمحبة المسيح،
شهيدات سماويات وعذاري حكيمات،
فخرًا لكنّ، تحتفل الكنيسة الأم مع الملائكة
بعيداً عن بابس تهاج. (الفقرة 1)
ملائك الأصوات السماوية الأرض،
ولقد انتشعرت الزكينة فسرّب المسيح.
أنتم ضحايا الإيمان والخلص،
وحملان طاهرة مهداة للرب. (الفقرة 2)
لقد لعب الوثنيون لعبتهم
على لؤلؤة كريمة،

فوصلن من الغرب إلى الشرق

ليعظن علناً عن منظره (المسيح) الرابع. (الفقرة 11)

في المرحلة الثانية بدأ المديح الديني بالانحسار تدريجياً ليحل مكانه المديح العلماني. ولمعت في القرن الثامن للميلاد شاعرتان هما: (خسروفوخت كوغتاتسي — KHOSRIVITIOUKHD KOGHTNATSY) و(سهاكوتخت

سيونتسي — (SAHAGTOUKHD SUYNESY).

سارت الأولى على خطى الكاثوليكوس (أوهان مانناكوني) والكاثوليكوس (كوميلاس الأول)، وأغنت ترانها الشعري بقصيدة مميزة تتألف من خمس فقرات، ألقتها في ذكرى استشهاد شقيقها الأمير (فاهان كوغنتاسي) سنة (737م). كانت القصيدة مديحاً تبنتها الكنيسة الأرمنية وصنفتها في عداد "التراتيل". تجدر الإشارة إلى أن الشاعرة كانت بعيدة الشهرة في مجال التلحين أيضاً.

إن رنين أصوات رثائك
يبدو لي عجباً
أكثر من الأبحان الموسيقية،
أيها الطوباي السيد فاهان،
يا من اختارك الرب. (الفقرة 1)
إن نسكك يبدو رهيباً
لنظر رعية جسدي.
وأما أنت ففضلت ذلك
أيها الطوباي السيد فاهان،
يا من أحبب الرب. (الفقرة 3)

بينما اختارت الثانية الأدب الروحي. إنها أخت الشاعر الأرمني (استيان سيونتسي)، وكانت ملحنة أيضاً، تنسكت منذ نعومة أظفارها وألفت قصائد شعرية روحية تركت أثراً ملموساً على مسيرة تطور "التراتيل". من مختاراتها الشعرية، قصيدة تتألف من (10) فقرات تمدح فيها السيدة العذراء.

ليتها القديسة مريم، أنت كنيسة طاهرة
أنت أم والدة خليفة حية،

مباركة أنت بين النساء،
أيتها العذراء وأم الرب البهيجة. (الفقرة 1)
لقد ظهرت على هذه الأرض
مع أسامي الملائكة السماوية،
وحملت في حضنك
صاحب الجيوش السماوية.
مباركة أنت بين النساء،
أيتها العذراء وأم الرب البهيجة. (الفقرة 4)

لقد خلف الشعراء الأرمن القدماء في الفترة التاريخية الممتدة ما بين العصور القديمة والقرن الثامن للميلاد تراثاً أدبياً عريقاً، تميز بقيمته الفنية والأدبية الأصيلة، فترعرع عليه العظماء من الشعراء الأرمن في القرون الوسطى، أمثال: (كريكور ناريكاتسي) — (KRİKOR NAREGATSY) و(نرسيس شنور هالي — (NERSES³¹ SHNORHALY) وغيرهما، ولا يزال هؤلاء الشعراء الأوائل يلهمون الأجيال الجديدة بعبقرية وجمال إبداعاتهم الشعرية.

الحواشي

- (1) يعدّ (القديس ميسروب مائندوتس) من أهم شخصيات التاريخ الأرمني، إليه يعود الفضل في إرساء أسس النهضة الثقافية والدينية التي شهدتها أرمينيا في القرن الخامس للميلاد والذي سمي بحق بـ "العصر الذهبي".
- (2) يُعدّ المؤرخ (موسيس الخوريني) من أعظم المؤرخين وأبا التاريخ الأرمني، كما يلقّب بـ "هيرودوت الأرمن".
- (3) الإلهة (أسدغيك) كانت إلهة الجمال لدى الأرمن.
- (4) بانثير: هي آلة موسيقية أرمنية وثنية قديمة جداً.
- (5) أعياد النافاسارت – NAVASART: كان الأرمن يحتفلون برأس السنة في موسم الخريف أي مع موسم الحصاد الأول من شهر (نافاسارت) – الموافق 11 من شهر (آب) من التقويم الحالي – ، وكانت تعدّ من أهم الأعياد الأرمنية الشعبية.
- (6) يعني تأسيس الكرسي الكاثوليكيوسي في أرمينيا، وكان أول الجثالة الأرمن (القديس كريكوب المنور).
- (7) "العذارى هريسيميانتس": هي مجموعة من الفتيات المسيحيات كانت (هريسيمة) أجملهن، قمن من (روما) إلى أرمينيا هرباً من اضطهادات الإمبراطور الروماني (دقلديانس) (284 – 308م). لقد أراد الملك الأرمني درطاد الثالث أن يقتن بـ (هريسيمة)، ولكن الفتاة رفضت الزواج من الملك الوثني، مما أثار غضبه، فلقيّن الشهادة على يديه.

أهم المصادر والمراجع

- 1 — أبيغيان، ماثوك، تصانيف (بالأرمنية)، المجلد الأول، منشورات أكاديمية العلوم في يريفان (أرمينيا)، يريفان — 1966.
- 2 — آكاتانكيغوس، تاريخ الأرمن (بالأرمنية)، الترجمة من اللغة الأدبية القديمة إلى اللغة الأرمنية الحديثة: آرام دير — غيفونتيان، منشورات جامعة يريفان، يريفان — 1983.
- 3 — بابايان، ليفون، مختارات من تاريخ العصر الإقطاعي المتقدم في أرمينيا (القرن الرابع — القرن الثامن للميلاد) (بالأرمنية)، منشورات أكاديمية العلوم في يريفان، يريفان — 1981.
- 4 — خوكاسيان، أنترانيك، أساطير أرمينية (بالأرمنية)، منشورات دار النشر "لويس"، يريفان — 1985.
- 5 — سانطريان، فابريك، أبناء ماشدوتس (بالأرمنية)، منشورات دار النشر "الكاتب السوفيتي"، يريفان — 1985.
- 6 — سركيسيان، الأب كاركين، لاهوت الكنيسة الأرمنية وفق التراتيل الأرمنية (بالأرمنية)، كندا — 2003.
- 7 — مكرديجيان، آشود، الأدب الأرمني في القرن الخامس (بالأرمنية)، منشورات دار النشر "هايمستان"، يريفان — 1985.
- 8 — موسيس الخوريني (خوريناتسي)، تاريخ الأرمن (بالأرمنية)، الترجمة من اللغة الأدبية القديمة إلى اللغة الأرمنية الحديثة والحواشي: استيبان ملخسيان، منشورات جامعة يريفان، يريفان — 1981.
- 9 — تاريخ الشعب الأرمني (بالأرمنية)، المجلد الأول، منشورات أكاديمية العلوم في يريفان، قسم التاريخ، يريفان — 1971.

أدب الأمثال الشعبية عند الأرمن

■ بقلم: كتاب أرمن ■

■ ترجمة: أكوب ميخائيليان ■

القصص أو الأمثال الشعبية هي من أقدم فروع الأدب الشعبي ذات الانتشار الواسع وهي جنس أدبي صغير الحجم له مضمون وعظمى غايته حث الناس على التحلي بالأخلاق الحميدة والابتعاد عن الرذائل والخطايا.

هذا النوع من الفن الأدبي أبدعته الشعوب للتعبير عن فلسفتها في الحياة مدافعة دائماً عن الخير ومنكرة الشر وذلك لتوعية الناس وتوجيهها إلى درب الصحيح. إلى جانب الإنسان تقوم الحيوانات والنباتات وحتى الأشياء الجامدة بأدوار البطولة، وهذا طبعاً بشكل مجازي لإخفاء المعنى الحقيقي وخاصة عند التعبير عن شكواها وسخطها على حكامها أو انتقادها لهم.

هذه القصص تشبه في قالبها قصص الأطفال، ولكنها تخفي بين سطورها فلسفات يستمتع بها القارئ ويتأثر بمعانيها.

لقد اشتهر الأرمن كالليونان بين القدماء والهنود والعرب بالأمثال الشعبية منذ العصور الغابرة والتي كانت إما موضوعاً أو مقبلة من شعوب أخرى.

من أشهر مدعي هذه الأمثال وجامعيها بين الأرمن "مختار كوش" Mekhitar Gosh و"وارطان ايكيكتسي" Vartan Aykegtsi.

1. مختار كوش

ولد العالم والمفكر ورجل القانون الأرمني مختار كوش حوالي عام 1120م في "كانتسماك" في أرمينيا. دخل في سلك الكهنوت وهو شاب، وسافر إلى كيليكيا ليكمل دراسته لدى علماء الجبل الأسود ثم عاد إلى موطنه.

ذاع صيته في حقل الفلسفة فنتلذذ بين يديه الكثير من طالبي العلم وذلك من شتى أطراف البلاد. أطلقوا عليه تسمية "الراهب الكبير" لمكانته المرموقة بين الناس وفي حقل اختصاصاته.

عمل مستشاراً في بلاط الأمراء. له العديد من المؤلفات في تفسير الدين والمواظ، كما اشتهر مؤلفه "كتاب القوانين" (كتاب الأحكام) ومجموعة قصصه وأمثاله الشعبية التي كانت تهدف إلى هداية الناس إلى الطريق القويمة للمعاملة ومعاشرة الناس والابتعاد عن العداوات والمؤامرات وذلك من أجل خلق مجتمع يسوده الوئام والتآخي. كان ينصح الناس بإطاعة الحكام وبشير إلى الحكام بمعاملة الناس بالعدالة والدفاع عنهم أمام الأعداء والمستغلين.

تتألف مجموعة قصصه وأمثاله الشعبية من 190 قصة وضعت في ثلاثة أقسام وهي:

1 - أمثال حول الأخلاق، 2 - أمثال حول الأساطير، 3 - أمثال حول الإبداع، وهي جميعها منتظمة حسب موضوعاتها أو حسب أبطالها من الأجرام السماوية والنباتات والطبيعة والحيوانات والطيور والإنسان. ففي أمثاله عن الأساطير والإبداع يتحرك الأبطال بحيوية كبيرة خلافاً للنباتات، فهنا الأمثال مستقاة من حياة الحيوانات والإنسان.

تعتبر مجموعة قصص وأمثال مختار كوش أول عمل أدبي وضع نثرأً خلافاً لما سبق من الأعمال الأدبية الأرمنية التي كانت جميعها مكتوبة شعراً موزوناً، لذلك اعتبر مختار كوش مؤسس الأدب النثري الفني عند الأرمن.

طبعت أمثال مختار كوش لأول مرة عام 1790 في مدينة البندقية بإيطاليا وترجمت إلى الفرنسية والروسية.

وإليك بعض هذه الأمثال الشعبية:

اجتمعت النجوم مرة. فقالت أكبرهن سناً:
— إننا كثير وعدنا كبير، فلماذا لا نستطيع أن نضيء النهار والليل مثل
الشمس والقمر؟
فأجابت إحداهن: لأننا لا نضيء بتوافق ووثام.
فقررت أولاً مطاردة الشمس وطردها، ولكن عندما طلع القمر وتغلب
عليهن، قلن:
— إذا بهت ضوءنا من شدة ضوء القمر، فماذا سيحدث عندما تشرق
الشمس؟
خمدت النجوم وأعلنت عن فشلها...

سأل أحد الحكماء الأشجار:
— لماذا تمت جذورك في باطن الأرض كلما ازداد طولك؟
فأجابت الأشجار:
— كيف لا تعرف، وأنت الحكيم بأننا لا نستطيع مقاومة الرياح ونحن نحمل
كل هذه الأغصان إذا لم تكن جذورنا في أعماق الأرض. ألا ترى تلك النباتات
كيف تقتلعها الرياح لأنها لا جذور غائرة لها في الأرض.

أرسل الفيل ولده إلى أفلاطون ليتعلم الحكمة، فحاول الفيلسوف في بادئ
الأمر أن يعلمه كيف يركع في قاعة الدرس، ولكنه لم يقدر على ذلك. ثم طلب منه
أن يحني رأسه فلم يستطع أيضاً. فأرجع أفلاطون الفيل الصغير إلى والده قائلاً:
— بحق لولدك أن يكون واقفاً دائماً في البلاط الملكي وليس في قاعة الدرس
عندي لأنه لا يعرف أن يركع أو يحني رأسه.

ضرب الرجل الجمل فغضب هذا الأخير وقال:
— لا تضربني أنا الحزين وإلا فإنني سأقتلك. وقال الرجل:
— كيف لي أن أعرف أنك حزين؟ ما هي العلامات؟
فردّ الجمل: عندما ترى شفتي السفلية متدلّية وقوائم الأربعة لا تصدر صوتاً
أثناء المشي، فاعلم بأنني حزين.
فقال الجمال: وكيف لي أن أعرف ذلك، ما دامت شفتك السفلية متدلّية دوماً
وقوائمك الأربعة لا تصدر صوتاً أثناء المشي أبداً؟...

2. وارطان ايكيتسي

أمّا وارطان ايكيتسي فقد ولد في النصف الثاني من القرن الثاني عشر
الميلادي. وهو يذكر بأنه ولد في قرية "مارات" أو "ماراتون" القريبة من مدينة
حلب وكانت آنذاك إحدى أقضية حلب.

وهذه القرية التي سميها أهلها اليوم بـ"معرات" أو "موعات" تقع إلى الشمال
الغربي لمنطقة عفرين بحوالي 5 كيلومترات والتي تبعد عن مدينة حلب قرابة 60
كيلومتراً. هي قرية صغيرة جميلة تحيطها التلال الغنية بالمغابر التي كان الرهبان
يستعملونها كصوامع للتنسك للابتعاد عن الدنيا، كما تزدان هذه القرية بأشجار
الرمان والزيتون.

لو سألت أهلها حول تاريخ قريتهم، لردّوا عليك بكل فخر واعتزاز بأنها
قديمة تعود إلى عهد الرومان والبيزنطيين، وهناك دلائل تثبت ذلك كالقبور
والأحجار المنقوشة والمزخرفة والصلبان والكتابات اليونانية واللاتينية، كما أن
بعض كبار السن في القرية يذكرون ما تناقلوه أباً عن جد، بأن حكيم قريتهم كان
يسمى "وارطان وارطانوس" الذي كان يحكم هذه المنطقة قبل 800 سنة.

كان من المنطقي أن يسمى أدينا بـ"وارطان الماراني" نسبة إلى مسقط رأسه
ولكن الرهبان في ذلك الوقت كانوا ينسبون أنفسهم إلى الأديرة التي كانوا يقيمون
فيها، لذا سمي بـ"وارطان ايكيتسي" نسبة إلى دير "أيكي" أو "أيكيك" ومعناها
بالأرمنية البستان أو الكرم، حيث أمضى الكاتب فترة من حياته.

انتقل وارطان من "مارات" إلى دير "أركاكاغين" في كيليكيا ليكمل دراسته ثم رحل إلى مدينة "أمد" ولكنه لم يجد هنا الهدوء الذي كان ينشده فقرر ترك الدنيا وملذاتها واللجوء إلى الدير. وبمساعدة أمير كيليكيا آنذاك "ياغدين" انتقل إلى نواحي الجبل الأسود القريبة من أنطاكية، حيث كان الرهبان يمضون حياتهم في التمسك.

نقرأ في إحدى رسائل وارطان إلى الأمير باغدين...
"أنا وارطان المغفور له، الجاهل بين العلماء... كتبت هذه الكلمات إلى الأمير باغدين سائلاً:.... في سنة الأرمن (ر.ك.أ) أي (1212) وكان ملك الأرمن ليفون روبينيانس يحكم كيليكيا..."

في عام 1220 يظهر وارطان في دير "ترازارك"، حيث بقي مدة من الزمن وكتب الكثير من أمثاله وقصصه.

إن تاريخ وفاة وارطان أيكيتسي غير معروف أيضاً، ولكنه يذكر في كتابه عن "غزو شعب غريب شرير لأرمينيا" ويعني المغول "الذين دخلوا أرمينيا في أوائل عام 1220م، ثم تابع قائلًا: "الشيخوخة والألام الطويلة أعمت بصيرتي وبصري" فإذا قبلنا بفكرة حتى الشيخوخة البغيضة كما يصفها، فهناك أساس للافتراض بأنه توفي حوالي العام 1240م.

ليس من المستبعد أن تكون قصص وأمثال "يسوب" اليوناني معروفة لدى الأرمن منذ القديم إلى جانب قصص الفيلسوف "فولبيانو" وذلك نسبة إلى المؤرخ الأرمني "توفما آردروني" لذلك فمن المعقول جداً أنه كانت هناك كتب لمجموعة الأمثال والقصص الشعبية مثل مجموعات وارطان التي إما اختلطت فيما بعد بأمثال وارطان، أو بقيت على حالها ونسبت إليه.

كتب وارطان أيكيتسي أكثر من 400 مثل وقصة. والشعب هو مؤلف هذا النوع من الأدب قبل أي كاتب، ولذلك تبقى شخصية الكاتب في المرتبة الثانية، ولكن قيمة هذا المؤلف كبيرة قبل كل شيء كجامع لهذه الأمثال وكمفكر قام بتفسيرها وتدوينها بأسلوب بسيط وجميل وصياغة أدبية بليغة.

حتى وإن كانت أمثال ايكيكيتسي تحتوي على الكثير من المواعظ الدينية، إلا أنها تعتبر فلسفة دنيوية لا روحانية قبل كل شيء.

كتب وارطان ايكيكيتسي يقول: "يا ويلي يا أبنائي الذين ستأتون إلى الدنيا من بعدي، لأنني أراغب بزيارتكم لكنني لن أستطيع، لأنني سأكون قد تحولت إلى تراب في قبوري، لذلك سأحدث إليكم بواسطة هذا الكتاب حتى خمسة أجيال أو سبعة وسأبقى معكم بروحي دائماً.

لقد صدق وارطان ايكيكيتسي وبقي ذكره أكثر مما كان يُتَكلَّم ولاشك بأنه سيبقى أجيالاً وأجيالاً أخرى...

كان ايكيكيتسي جريئاً في مواعظه، يوبّخ نساء المدينة من فوق منبر الكنيسة قائلاً "إلهم بحبين التبرج والتزين ومسح أعينهن ووجوههن بأنواع العقاقير والمساحيق لإثارة الشبان. إنهن يمنعن أنفسهن عن إتيان الأولاد بأدوية شيطانية ويصفن هذه الأدوية لغيرهن من النساء.

كان وارطان ينذر الذين يعطون الأموال بالفوائد ويستغلون الفقير والفلاح ويغشون في الأوزان ويخلطون الحليب بالماء... بنار جهنم.

لقد صدر هذا الكتاب تحت عنوان "كتاب الشعب" لأول مرة في أمستردام (هولندا) عام 1668، ثم في مرسيليا (فرنسا) عام 1676 وعام 1683، وهكذا ففي النصف الثاني من القرن السابع عشر طبعت مجموعة الحكايا هذه أربع مرات، بينما نشرت في أرمينيا السوفيتية مرات عديدة.

عندما نلارن وارطان ايكيكيتسي بالكاتب الفرنسي المعروف "لافونتين" نجد أنفسنا أمام لغز!... لأن أمثال وارطان كما أشرنا آنفاً قد طبعت في أمستردام بهولندا عام 1668 بعد أن قام اثنان من الرهبان الأرمن بترجمتها، ونحن نعلم من الأدب الفرنسي بأن لافونتين نشر أمثاله لأول مرة في نفس العام أي في 1668 وبعد ذلك وفي عامي 1678 و1694 طابع أمثاله الجديدة.

هناك الكثير من أوجه الشبه بين أمثال وقصص هذين الكاتبين. إنه من غير المعقول أن يكون وارطان قد استفاد واقتبس من قصص وأمثال لافونتين أنه ولد قبل لافونتين بأربعمئة عام على أقل تقدير.

لذلك فهناك أسباب للاعتقاد بأن العكس هو الصحيح، أي أن لافونتين هو الذي اقتبس ونقل من أمثال وقصص وارطان ايكيكتسي.

إن فرضيتنا هذه تتأكد وتعمق ببرهان آخر ففي عام 1891 وصل إلى أرمينيا ولفترة بضعة أشهر، المستشرق الفرنسي الضليع في علم اللغة الأرمينية (أنطوان ماية) ومن هناك كتب بعض الرسائل إلى ابنة عمه في باريس. لقد طبعت هذه الرسائل مؤخراً (في عام 1987) باللغة الفرنسية في فيينا. وفي إحدى تلك الرسائل يقول "أنطوان ماية":

"استغربت حين سمعت من أفواه القرويين الأرمن في أرمينيا الأمثال الشعبية التي سمعناها وتعلمناها من لافونتين".

فمن غير المنطقي أن يكون القروي الأرمني قد تعرف إلى لافونتين قبل مائة عام ولكنه من المعقول أنه سمعها من آبائه.

ترجم العلامة خير الدين الأسدي بعض هذه الأمثال إلى اللغة العربية وطبع في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي في مدينة حلب. وإليك مجموعة من قصص وأمثال "كتاب الثعلب" لوارطان ايكيكتسي.

<http://ArchiveBeta.Sakhrit.com>

سبب الحرب قطرة عسل

كان لرجل حانوت يبيع فيه العسل فوقعت قطرة من العسل على الأرض فجاءت ذبابة وحطت عليها وهنا قام الهر وضرب الذبابة بقائمتيه، فجاء الكلب وضرب الهر فقتله فقتل صاحب الحانوت الكلب، وكان الكلب من قرية مجاورة، فعندما سمع صاحبه ما أصاب كلبه جاء وقتل صاحب الحانوت، عند ذلك خرج الفلاحون من القريتين وتحاربوا وقتل بعضهم بعضاً وبقي رجل واحد على قيد الحياة، وكان سبب كل هذا قطرة عسل.

...

الليث والثعلب والدب

مرض الليث، فجاءت الحيوانات جميعها لزيارته، ولكن الثعلب تأخر عن الحضور، فاستغل الدب فرصة غياب الثعلب وأخذ يتكلم عنه بالسوء ولكن الثعلب سمع كلمات الدب من فتحة الباب فأسرع بالدخول وألقى بنفسه عند قدمي الليث الذي سأله: لماذا تأخرت أيها البغيض. فقال الثعلب: لا تغضب أيها الملك العادل، أقسم برأسك على أنني كنت في زيارة كبار الأطباء بشأن مرضك، تعبت وشقيت كثيراً ولكنني عرفت دواءك.

أهلاً وسهلاً بك أيها الحيوان الذكي — قال الملك، مهلاً — وما هو ذلك الدواء؟. فقال الثعلب: إنه ذو فائدة كبيرة ومن السهل الحصول عليه. فقد نصحتني الأطباء أن تقوم بسلخ فروة الدب وتلف به جسمك وهو ساخن فتشفى فوراً. أمر الملك، فأمسكوا بالدب وأخذوا بسلخون فروته وهو يصرخ من شدة آلامه. أما الثعلب فقد قال للدب: هذا جزأوك وجزاء المرائين أمثالك.

<http://ArchiveBeta.Sakhrit.com>

الجندي الذكي

ذهب جندي ذكي إلى الحرب وهو يعرج برجليه. فقال له أحدهم: أيها البائس إلى أين تذهب؟ ألا تعلم بأنهم سيقتلونك لأنك لا تستطيع الهرب. فقال الجندي: أيها الساذج، إنني لا أذهب إلى الحرب كي أهرب بل كي أقتل وأنتصر.

• • •

الملك والتعبان

كان للملك تعبان يحبه كثيراً. ورزق بولد فأخذ يداعبه فوق العرش كل يوم ويرمي التعبان على ولده وهكذا كان الطفل والتعبان يلعبان.

وفي أحد الأيام وعندما كبر ابن الملك أخرج سيفه أثناء اللعب وقطع ذيل التعبان ورماه على الأرض، فغضب التعبان ولدغ ابن الملك الذي مات. أما التعبان فقد ترك القصر وذهب إلى بلاد بعيدة.

عندما جاء الملك ورأى ابنه ميتاً، مسوداً من لدغة التعبان وإلى جانبه ذيله، أدرك بأن ولده كان السباق في قطع ذيل التعبان حتى لدغه التعبان، فحزن كثيراً ودفنه في المقبرة.

بعد مضي زمن طويل، بعث الملك يطلب إلى التعبان ويرجوه أن يعود إلى القصر قائلاً: أعرف أن ابني هو المذنب فقد قطع ذيلك ومن ثم قُمت أنت فلدغته وقتلته، فتعال ننسى الموضوع وما جرى قد جرى فلننسى كالسابق على المحبة.

أجابته التعبان: ليس الأمر كما تقول، لأنه كلما نظرت أنا إلى ذيلي المقطوع ورأيت أنت قبر ولدك بقيت العداوة بيننا لذلك فمن المستحسن أن نبقى بعيدين أحدهما عن الآخر كي لا تكبر العداوة بيننا.

• • •

الأمير والأرملة

كان هناك أمير شرير يحكم مدينة تعيش فيها أرملة بائسة. وكان الأمير يضايق الأرملة مطالبا إياها بالضرائب الكبيرة، أما الأرملة فقد كانت دائماً تصلي وتدعو إلى الله أن يطيل عمر الأمير.

ذهبت جماعة الأمير وقالوا له إن الأرملة تصلي من أجله بدلاً من الشكوى تجاه أعماله الشريرة ومضايقته لها. فذهب الأمير إليها وقال لها: لماذا تصلين من أجلها أيتها المرأة وإني لم أعمل خيراً لك؟

قالت الأرملة: كان والدك رجلاً شريراً لقد لعنته فمات فجئت أنت في مكانه فكنت أكثر شراً منه. وأخاف الآن أن تموت ويأتي ابنك من بعدك ويكون أكثر شراً منك ومن أهلك لذلك أصلي من أجلك.

• • •

اللسان الساذجان

صعد لسان سطح دار رجل غني وأراد النزول إلى البيت وكان القمر يضيء في السماء. عرف صاحب البيت أن هناك لصوصاً على سطح المنزل فسألته زوجته: من أين لك كل هذه الثروات والذهب والأقمشة يا زوجي؟ فقال الزوج: كنت أذهب لسرقة بيوت الأغنياء في الليالي المقمرة كهذه الليلة وكنت أنزل من السطح إلى البيت محتضناً أشعة القمر ثم أنطق بكلمة فتظهر لي كل الأقمشة الموجودة في الدار فكنت أجمعها وأربطها بأشعة القمر وأرفعها.

عندما سمع اللسان هذه القصة فرح كثيراً ثم احتضن أشعة القمر وسقطا في فناء البيت وتكسرت أطرافهما.

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

الخيزرانة والأشجار

خرج الملك للتنزه في الجبال والوديان فرأى أشجاراً كبيرة مكسرة ومقلوعة من جذورها متناثرة على الأرض. وكانت هناك خيزرانة واحدة تقف منتصبة في مكانها، فسألها الملك: أيتها الخيزرانة كيف بقيت منتصبة في الوقت الذي تكسرت فيه كل هذه الأشجار الشامخة. فقالت الخيزرانة: أيها الملك عندما هبت الرياح العاصفة وققت الأشجار أمامها بكبرياء فكسرتها الرياح، أما أنا فقد احتجيت وطاقات رأسي أمامها ولم أزل منتصبة في مكاني.

• • •

الخمير

كان لملك ابن وحيد فأمر نوابه باصطحابه بالتناوب وتكريمه. وذات يوم كان الابن بصحبة أحد النواب، وعند المساء أعاده النائب إلى القصر وتركه ورحل وكان ابن الملك مخموراً جداً فوقع في المزبلة ومات.

فأمر الملك بإغلاق بساتين الكروم في مملكته وتحطيم كافة الدنان. ففعلوا كما أمر.

وكان لأرملة ولد وحيد وقد أخفت محصولها وكانت تقدم صباح مساء كل يوم طاسة من الخمر لابنها بعد الطعام.

وفي ذات يوم خرج ابن الأرملة ليلاً وقتل سبع الملك فأعلن الملك في صباح اليوم التالي أن الذي قتل سبعة إذا جاء إليه وروى له كيف قتله فلن يعاقبه. جاءت الأرملة مع ابنها إلى الملك فسأله كيف قتل السبع. فرد الصبي قائلاً أنه خرج ليلاً وصادفه وقتله. أمّا الأرملة فقد أضافت أنها كانت تسقي الخمر وروت له كيف كانت تسقيه.

حينذاك أمر الملك بغرس الكروم ويشرب الخمر على أن يقتل شارب السباع ولا يموت في المزابل.

<http://Archivebeta.Sakhrir.co>

• • •

حساب الشعير

كان رجل ينقل الشعير على حمارته إلى بيته وكان الجش الصغير يمشي إلى جانب أمه ويلتفت إلى الوراء بين الحين والآخر.

وفي البيت الذي كانوا ينقلون إليه الشعير كان هناك خنزير مربوط يطعمونه ليسمن بالشعير المتوفر أمامه دائماً سأل الجش أمه: لماذا يأكل هذا الخنزير الشعير الذي نقله بمشقة دون أن يعمل ونحن الذين نتعذب ونسقى يطعمونا مرة واحدة في اليوم؟

فقالت الأم: اسمع يا بني انتظر أسبوعاً واحداً وسترى بعينيك ثم أريد على سؤالك.

بعد أسبوع وبينما الحمامة وصغيرها يعودان إلى البيت بالحمل وكان الصغير يسبق أمه، سمع صوتاً، فقد كانوا يذبحون الخنزير، فارتعد الصغير وركض فاقترب من أمه، فسألته أمه: ماذا جرى لك يا بني فخفت وأصابك الذعر؟ لا تخف من الخنزير، إنهم يطالبونه بحساب الشعير.

وذات مرة.... عادت الحمامة وصغيرها من الحقل بعد نقل الشعير ولما وصلا إلى البيت رفع الجحش حافره وقال: انظري يا أمي إلى حافري، أخاف أن تكون حبة شعير عالقة به فيطالبونني بها كما فعلوا بالخنزير.

• • •

القاضي الحكيم

كان لرجل زوجة شريفة، تشاجرت معه ذات يوم قائلة: هل تظن أن أولادك الثلاثة منك؟ الواحد فقط منك أما الاثنان الآخران فإنيما غير شرعيين. فسألها الرجل: أي واحد منهم ابني؟ ولكن الزوجة لم تجبه على سؤاله.

وفي أحد الأيام عندما كان الزوج على فراش الموت قال: أترك كل ثروتي لولدي الحقيقي، ومات.

فأخذ الأخوة الثلاثة يستقاتلون وكل واحد منهم يدعي أنه الابن الحقيقي والوريث الشرعي. ذهبوا إلى قاض حكيم ليحكم بينهم بالعدل فأمر بإخراج جثة أبيهم من قبره وإطلاق السهام على الجثة ومن يستطيع أن يصيب الجثة فهو الابن الحقيقي.

استطاع اثنان إصابة الجثة بسهامهما أما الابن الثالث فقد اسفل خنجره وهجم على أخويه ليقتلها ثم بكى وأعاد الجثة إلى القبر.

عند ذاك عرف الجميع أنه الابن الحقيقي فأعطوه ثروة والده.



لقاء صحفي مع الروائي الأرمني وليم سارويان (1981.1908)

■ بقلم: زوري بالايان ■

■ ترجمة: نبيل المجلي ■

من هو وليم سارويان WILLIAM SAROYAN ؟

— ولد في مدينة (فريسنو) Fresno بولاية كاليفورنيا عام 1908
— هاجر أبواه من أرمينيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبل ميلاده بفترة قصيرة.
— توفي أبوه وموسي النسبة من عمره فألحق بنؤسسة للأيتام، مكث فيها
خمس سنوات.

— اضطرت أمه للعمل كي تدبر نفقات معيشته هو وأخوته.

— ألحق بالمدرسة حتى سن الخامسة عشرة.

— مارس في صباه مهناً عديدة كبيع الصحف وجني الغب ثم عين موزعاً للبرقيات..
أغرم بالقراءة منذ الصغر، وثقف نفسه بنفسه، مما هيناً له العمل في الصحافة
فيما بعد.

— صدرت أول مجموعة قصصية له عام 1934:

(الفتى الجريء على الأرجوحة الطائرة).

□ من مؤلفاته القصصية:

— الأطفال الصغار (1937).

— يا حب.. هاك قبعتي (1938).

— السلام.. شيء رائع (1938)

— اسمي آرام (1939).

□ من مؤلفاته المسرحية:

— قلبي في الأراضي المرتفعة (1939)

— الناس الحلوين (1941).

— رازل دازل (1941).

□ من مؤلفاته الروائية:

— الملهاء الإنسانية (1943).

— مغامرات ويلزي جاكسون (1946).

— روك وإجرام (1950).

— أمي.. أحبك (1956).

— أبي.. أنت أحق (1957).

— هنا يأتي، هنا يذهب، وأنت تعرف من يكون (1961).

— منحه جائزة (بوليتزر) عن مسرحية (أيام حيائك) ضمن مجموعة

المسرحيات (قلبي في الأراضي المرتفعة)، لكنه رفض استلام الجائزة

لأنه يكتب من أجل الفن والإنسان لا من أجل أي اعتبار آخر.

— توفي عام 1981.

تحت عنوان "حوارات من أجل قوة السوفييت..." نشرت مجلة الأدب

السوفيتي "Soviet Literature" في عددها الصادر في الشهر 12 من عام 1977

مقابلة مع الروائي الأرمني الأصل والذي ولد وعاش جل حياته في الولايات

المتحدة الأمريكية وتوفي فيها، أجريت خلال إحدى زيارته لأرمينية. أجرى

المقابلة زوري بالايان ZORI BALAYAN وفيما يلي نص المقابلة القيمة:

بالايان: أيها المعلم، زرت الاتحاد السوفيتي لأول مرة في 1935. ورحلتكم

التالية إلى هذا البلد جاءت بعد ربع قرن. وهأنتم مرة أخرى. إن الفترات الزمنية

التي تفصل بين كل زيارة من زيارتكم عن الأخرى كانت طويلة فعلاً. أود بالتالي

أن أسألكم السؤال التقليدي: ما هي التبدلات التي لاحظتموها؟

سارويان: أود بادئ ذي بدء أن أقول إنني لاحظت أيضاً تبدلات في نفسي. ولمست أخشى أن أتهم ثانية، كما جرى من قبل، بكوني ذاتياً زيادة عن الحد أو بكوني أنزعج إلى رسم الذات. لأنه في مثل هذه اللحظات تحدث التبدلات داخل المرء. فكر فقط في ذلك: لقد جئت أول مرة إلى أرمينيا حين كنت في السابعة والعشرين من العمر. في المرة الثانية كنت في الـ 52، والآن أنا في الـ 68. رجل عجوز إنها تماماً مثل اللوحة الذاتية الفلسفية الشهيرة التي لا تنسى لساريان — أعمار الفنان الثلاثة على لوحة واحدة. إنها من كل النواحي لوحة لثلاثة أشخاص مختلفين. لكن توجد بالنسبة لوليم سارويان في كل رحلة من الرحلات الثلاث عامل رابط: الانفعال المفرح الذي شعرت به حين وضعت قدمي فوق ترابي الأرمني. عموماً، يصعب التعامل مع التبدلات باختصار. أستطيع أن أقول فقط إنني وجدت في رحلتي الأولى أن الأدب الأرمني مجسد في تشارينتش، وإسباكيان، وديميرتشيان، وفي الثانية — بماري، وكوتشار، وزاريان، والآن قد استلم للتو جيل شاب. هناك شعور بالتعاقب. وهذا ليس فقط في حالة الكتاب. فلقد حدثت اليوم مثلاً، أن لدى أحد بنائي الحجارة بالوراثة والذي يبلغ الستين من العمر، وهو صانع الأنواع الحجرية المنحوتة المذهلة خاشكار، ثلاثة أبناء يعملون معه. إن تقاليد معلمي نحت الحجارة الأرمن يجري الحفاظ عليها. أجل أنا أرى، وأراقب، وأحس بالتبدلات. قبل واحد وأربعين عاماً مضت رأيت للمرة الأولى ليس يريفان فقط بل وموسكو، أيضاً. في هذه الرحلة أيضاً أتيت إلى هنا عبر موسكو وصدمت بحقيقة أن الكثير قد تغير في هاتين المدينتين. فكلتاها نمت بصورة هائلة وأصبحت أنيقة في نفس الوقت.

بالإيمان: قابلتكم مارتيروس ساريان الذي حفلت لوحاته، مثل كتبكم بالضوء والأحلام، أكثر من مرة. رسم ساريان صورة لكم...

سارويان: ساريان حي مع رسومه في ذاكرتي. كنت أنظر إليه وأفكر: كم هو مدهش أنه في الثمانين من العمر! كنت مسروراً أنه في هذه السن الوقور مفعم بالحياة ويمتلك ذهنًا صافيًا وبدأ ثابتة. جعلني هذا أمل أنه يمكنني أن أكون أنا أيضاً قادراً على الاستمرار في العمل لوقت طويل. إنه من الصعب الحديث عن فنّان. بالأمس زرت المتحف المنزلي للمعلم وكنت طوال الوقت الذي بقيته هناك أجد نفسي بحاجة لأن أفعل شيئاً واحداً فقط — أن أبقى ساكناً. لأنني، كما تعلم، لا

■ لقاء صيفي مع الروائي الأمريكي ولبر سارويان ■

أصعل في اللوحات بل هي التي تعمل في. وللايجاز، إنه ذات الشيء القديم الذي كان نقادي يوبخونني من أجله دائماً.

بالايان: ما يسمى بذاتيتك؟ هل تعتبر ذلك منصفاً؟

سارويان: إن نقادي باتهامهم لي بهذا، لا يخامرهم الشك أبداً أنهم كانوا، عامدين أو صدفة، يصفونني بدقة أنني كاتب الرواية في الاعتبار الأخير، هي الروائي والقصة هي القاص. نحن نتعرف إلى الكاتب لا من خلال أسلوبه وحسب وإنما من خلال عمق مشاعر المؤلف كشخص، وكفرد. أنا، مثلاً، لن أصدق أبداً أن كل الضيق النفسي الموجه الذي نراه في أبطال دوستويفسكي يمكن أن يكون قد ابتدع أثناء جلسة المرء على مقعد، كما يقال. مرة لفت نظري عنوان: ربما كان حكاية معاناتي أو ربما قصة ما مررت به. شعرت أن على المرء ألا يعطي لكتابات مثل تلك العناوين لأن الكتاب يكتبون دائماً عما عانوه أو مروا به. لهذا أنا لا أقبل تعبير "ذاتية". إن حياة همنغواي الشخصية كلها موجودة في كتبه. أنا أحب وأقدر توماس وولف كثيراً وأذكر أنني ابتهجيت، حين اتهم هو أيضاً بنفس الكلمة سيئة السمعة.

بالايان: حدثتني، يا معلم، أنك وثني بطبيعتك، وأن لديك كثيراً من الآلهة التي تحميك حينما تكتب. سمعنا بعضنا من فضلك.
<http://Archivebeta.Sakshi.com>
سارويان: الصدق، والإخلاص، والسخرية...

بالايان: منحتم جائزة نقاد نيويورك على كتابكم "وقت حياتك". ما هو موقفكم من النقد هذه الأيام؟

سارويان: أنا شخصياً، لا أستطيع فقط أن أعمل بدون النقد، وإنما أستطيع أن أقوم بهذا بسعادة فعلاً. أظن أن الأدب أيضاً بمعنى محدد، يستطيع أن يحيا بدوره، الأمر الذي لا يمكن أن يقال عن النقد بما أنه لا يمكن أن يوجد من غير الأدب سابقاً في الماضي البعيد حين كانت الإلياذة والأوديسة تكتبان، لم يكن هناك نقد رسمي ولم يكن ثمة مشكلة: ولا أظن أن هوميروس أصيب بالعمى في شيخوخته لهذا السبب. فيما يتعلق بي، يجب أن أعترف أنني أحب أن أمدح لكنني لا أنزعج كثيراً جداً حين أطرق بالمطارق. في هذه المسألة كما في كثير من المسائل، أشعر بقرب لا نهائي وتعاطف مع تشيخوف العظيم الذي تعلمت منه — كيف أصوغ هذا؟ — ربما الثقافة. كان يعتقد أن على المرء ألا يستجيب للنقد. ذاك مبدأ مذهش.

ليس كل شخص لديه الشجاعة الكافية وعزة النفس لأن لا يستجيب للنقد. إذا تدبرت هذا، فإن الناقد إما مصيب وإما مخطئ. إذا كان مصيباً، فمن الحماقة أن ترد عليه وإذا كان مخطئاً، عندها لا معنى لأن تشتيك معه لأنه في ذلك الحدث لا بد أن يكون إما أحمق أو غير شريف. شعور، مع ذلك، يحفزني لأن أقول إن النقد جنس أدبي مستقل. أو على الأقل، أنا أرى، أنه هكذا يجب أن يكون.

بالإيمان: من هم الكتاب الروس والسوفييت الآخرون، فضلاً عن تشيخوف، الذين تشعر أنك، كما قلت، قريب منهم ومتعاطف معهم؟

سارويان: فضلاً عن تشيخوف؟ حسن، تشيخوف يأتي في المقام الأول. لقد رافقتني خلال حياتي. وحتى هذا اليوم كثيراً ما أقرأه. كل ما عنده يثير حسدي — بالمعنى الجيد للكلمة... إن له روحاً رقيقة، وغنائية مرهفة، وإخلاصاً صافياً. حتى عناد تشيخوف وشجاعته رائعان. في مقدمة مختارات من أعماله، وضعت قائمة الكتاب الذين أثروا فيّ. بينهم تشيخوف، وتولستوي وغوركي. هذه القائمة، على أي حال، يمكن أن تتابع. أنا لا أعيد فقط قراءة تشيخوف وتولستوي؛ كل عام تقريباً أجد أنه من الضروري أن أقرأ المعطف لغوغول. غير ناس دوستوفسكي وتورغينيف. من الكتاب المعاصرين، أستطيع أن أسمي تولوخوف، وسيمينوف، وإرنستبورغ، وفاسن دافتيان. لقد ذكرت للتو غوغول وما حدث لي أنني في هذا اليوم بالذات كنت أفكر فيه. هذا الصباح وقبل الشروع، وجدت حوالي 20 إنساناً في غرفتي في الفندق... كلهم، أناس طيبون، ولطيفون، حضروا ليجيوا ابن بلدهم. مراقباً وجوههم، للحظة أو نحو ذلك تذكرت لا إرادياً غوغول. أنا دائم الذهول من قدرته على وصف أناس متنوعين، ورسم لوحات متنوعة، وشخصيات متنوعة. وكل ذلك بضربة أو ثلاث ضربات دقيقة من ريشته. وهناك أمامي كانت كل هذه الوجوه المختلفة، كلها فريدة، بعضها ذو مظهر جيد وبعضها ليس كذلك. وعلى الرغم من حقيقة أنها لم تكن لحظة مناسبة، لنقل بصراحة، ورغم الضجة، والصخب، والضحك، والدعابات، أردت فجأة أن ألقت إلى تصنيف هذه الوجوه.

بالإيمان: أعتر لمقاطعتك لكن هذا الصباح كان في غرفتك في الفندق كثير من الضجيج والصخب. وكنت أنت أكثر أولئك الموجودين مرحاً. متى إذن وجدت الوقت لـ "تصنيف" وجوه ضيوفك؟...

سارويان: ذاك عملي. لنقل هذا بطريقة مختلفة: عن هذا الأمر كان كل

■ لقاء مهنّي مع الروائي الأرميني ولبر ساروبان ■

صلي. أنا لا أصبح كاتباً بمجرد أن أجلس إلى آلي الكاتبة. إن النقر على الآلة الكاتبة هو جزء واحد من عمل المرء، هو جزء من العملية. لا يستطيع الكاتب أن يجلس على مقعده ما لم يكن مشحوناً، وممتلئاً بانطباعات وخيالات جديدة وطازجة دائماً.

بالايمان: هل تحب الشعر؟

ساروبان: قد سئلت ذات السؤال من قبل غرائت ماتيفوسيان. طرحه وبدأ في الحال الإجابة عليه نيابة عني. قال إنني شاعر يكتب النثر. أدرك أن ما يلمح إليه هو غنائية معينة في كتاباتي. على أي حال أنا أكتب الشعر أيضاً.

فقد بدأت مهنة الكتابة بالشعر. ومازلت أكتب قصيدة المناسبة. لكنني لا أنشرها أبداً. ليفعل ذلك من أجلي بعد موتي. أفترض، أن سبب كتابتي للقصائد، هو أنني أحتاجها. وربما أحتاجها لكي أشعر بقوة "الكلمة الصحيحة"، وقوة الإيجاز، وازدراء الدوران الطويل، وطبعاً، لكي "أحسن" بالمجاز. باعتقادي، إن الصور واللغة المجازية هي التي تميز، في نهاية المطاف، الشاعر من غيره والفنان من الحرفي. وجل الأمر أن شخصاً لا يكتب أبداً أي شعر يستطيع أن يكون شاعراً وفناناً. خذ مثلاً، غريغور غورزاديان، الذي أخبرني أنه بنى جهازاً وضع في الفضاء. كنت سأشعر أنني غيت لو لم أحظ بمقابلة غورزاديان. ليس واضحاً بالنسبة لي ما الذي يعمله، رأيت بعض ترجمات لمقالاته على مقعده: قرأت العناوين ولم أستطع أن أفهم شيئاً. إن موضوع بحثي هو الروح البشرية في حين يدرس هو الفضاء الخارجي والنجوم. يمكنه أن يمضي مئة سنة وهو يشرح لي، ماذا يعمل وسأظل غير قادر على أن أفهمه. لكنه بدأ فجأة يستخدم اللغة المجازية. وفهمت أن طاقتنا على تطبيق ملاحظتنا للمجرة من الأرض قد استنفدت. ما أنجزناه أننا الآن نملك في أيدينا قطعة من ذيل حيوان ضخم ومجهول ومن خلال هذه القطعة نحاول أو نستجمع انطباعات عن الحيوان ذاته. ترددنا بإخراج العالم لتلكوكه إلى الفضاء، قدرته على المراقبة مرات عديدة أكثر.

وكم تكلم غريغور بروعة عن نجومه! كم كانت عيناه تشعان! تكلم ولم أستطع أن أفهم شيئاً. تحدث عن حياة وموت النجوم — ومرة ثانية لم أفهم شيئاً. أنا أعرف فقط حياة وموت الناس، والأشجار، والبحيرات. وبدأ، كما لو أنه يقرأ أفكاره، يتكلم عن شجرة التفاح. لن أنسى في حياتي شجرة غورزاديان. وأستطيع

أن أرى شجرة تفاح حقيقية، حقيقية بشكل تام تنمو هناك في الفضاء. تكلم هذا الرجل اللطيف الذي أغرمت به كثيراً عن كيفية امتلاكنا لأفكار مختلفة عن النجوم لا لأنها مختلفة كثيراً بعضها عن بعض وإنما لأننا نراها في أزمنة مختلفة من حيواتنا. وملاحظاً بوضوح أنني أجهد ثانية وأعاني من غلظة فهمي، قال إن علي أن أتخيل أننا ننظر إلى شجرة في الشتاء. إنها جافة كما لو كانت ميتة. في الربيع هي، مع ذلك، شيء آخر تماماً: تبدو بطريقة ما وكأنها تغني وهي مغطاة بسحابة من الأزهار القرنفلية والبيضاء. وهي مع ذلك شجرة أخرى في آخر الصيف أو بداية الخريف. ثمة الآن شيء له علاقة بالكتاب المقدس بالنسبة لها تتدلى الفاكهة منها مثل دمي تتدلى من شجرة عيد الميلاد. طبعاً، لو أن شخصاً رأى شجرات السنفحة المختلفة كثيراً هذه في نفس الوقت، فإنه لن يظن أنها واحدة وأنها ذات الشجرة. شجرات تفاح ونجوم... أمر رائع! إنها ببساطة معجزة وشيء يجب أن أكتب عنه. أنا شخص بعيد ليس فقط عن السياسة وإنما عن العلم أيضاً. ومع ذلك أحبي العلماء وخصوصاً أولئك الذين هم في أرواحهم شعراء. إذا كان العالم شاعراً في روحه، فإن هذا يعني أنه سيبدع الجيد فقط.

من حسن حظنا، أن غورديان فنان علاوة على ذلك. حين أستخدم هذه الكلمة أستدعي دائماً مينامس أفانيسيان. إنه فنان عظيم. وإصراره على مغادرتنا مبكراً هكذا هو مأساة كبيرة للفن الحديث، مينامس شاعر أيضاً. أنا أحب الشعراء، أحب الشعر.

بالإيمان: هل عندك أي نوع من الشعارات؟

سارويان: لا أظن ذلك، لا. أفضل أن أقول إن لدي مبدأ أجبر به في نفسي: "لا تجعل نفسك تابعاً لأحد ولا تجعل أحداً تابعاً لك أيضاً".

بالإيمان: أنت مسافر بالفطرة. لا تستطيع أن تجلس ساكناً. أخبرت أنك ذات مرة اعتبرت الدراجة الهوائية أفضل وسيلة للانتقال من مكان إلى مكان آخر: يستطيع المرء أن يحظى برؤية جيدة لما حوله. من الواضح أن السفر يؤدي إلى ملاحظات، وانطباعات، ومعارف جدد، وبكلمة واحدة، إلى كل ما يحتاجه الكاتب. والسفر الذي لا ينتهي، هو على أي حال، يتطلب لياقة بدنية، وهو مرتبط بالرياضة. لذا أود أن أسألك، ما هو موقفك من الرياضة؟

سارويان: إن عالم الرياضة مادة مذهشة للكاتب. في هذا المجال يستطيع المرء أن يغبط جاك لندن وهمغواي. من الروس يجب أن أذكر كوبرين. الرياضة شباب. والشباب لا يستطيعون العيش بلا أبطال. وحين ينظر الشاب إلى بطله، فإنه يناضل ليحسن نفسه: وهذا هام. أنا بالذات لم انخرط أبداً في أي نوع من الرياضة. رياضتي المفضلة هي السفر. أول شيء فعلته حالما حصلت على مال كاف أدخره، أن أقوم برحلة إلى العالم القديم. كان هذا بعد طبع مجموعتي القصصية الفتى الجريء على الأرجوحة الطائرة في الولايات المتحدة. حالما دفع لي، عبرت المحيط وندمت إلى أرمينيا. وقتها قابلت وتصادقت مع بغيشة تشارينتن. كنت فخوراً ليس فقط لأنني ابن بلدي بل لأنني كنت كاتباً تماماً مثله. أذكر حينئذ، قال لي تشارينتن: "أنت تكتب بالإنجليزية، لكنك مع ذلك كاتب أرمني. وكان، طبعاً، محقاً على طريقته. فيما بعد كتب شخصياً أن كل ما فعله ينهض على ثلاثة أحجار أساس هي: اللغة الإنجليزية، والتراب الأمريكي، والروح الأرمينية.

بالايان: ما الذي تكره أكثر من غيره؟ وما الذي تحنقه؟

سارويان: الجبن. الغدر. دعاية الحرب والعنف. إن مما يدعو للأسف أحياناً أن أناساً موهوبين أيضاً، إما بسبب قصر النظر أو لأنهم منتشون بالنجاح والشهرة، يسمحون لأسماهم أن تستغل، غير مدركين، ربما، أن هذا يؤدي إلى النكبة. إن الحروب لا تبدأ صدفة، إنها لا تبدأ بصورة مباغتة كلياً. تبدأ الحروب قليلاً قليلاً حين يجيز الناس لأنفسهم الجبن والغدر، ورغبة في التلاعب بالمثل والمبادئ ويدعن الآخرين لهذا.

بالايان: ما الذي تعتقده فيما يتعلق بروح هيلسينكي، "الانفراج"؟

سارويان: أعتقد أن اتفاقيات هيلسينكي والانفراج كلاهما رائع. إن صون السلام والتفكير بمستقبل كوكبنا هما في المحصلة ما يدعو إليه الفنان الحق أيضاً. هنا الشيء الكثير يعتمد علينا، أنا لست سياسياً، ولا رجل دين لكنني أبشر بالطيبة والصدق. ومن التبشير أستطيع أن أنتقل إلى الدعاية الفاعلة. وأعتقد الآن أنني سأقوم بدعاية لأرمينية السوفيتية. أقول "سوفيتية" لأنني رأيت، إذا جاز لي التعبير، عدة "أرمينيات" في العالم — مستعمرات أرمينية في دول مختلفة. وحتى بلدي الأم فرينسو (كاليفورنيا)، يمكن أن يعتبر نوعاً من أرمينية — كان هذا صحيحاً بصورة خاصة في بداية القرن. أنا أقول كل هذا لأبين أنني حظيت بالفرصة لكي أقارن.

وأنا أقول إن أرمينية السوفيتية هي، في نظري، واحدة من أفضل البراهين لصالح الاتحاد السوفيتي. أنا أعرف كيف كانت أرمينيا ذات مرة؛ رأيتها بعيني قبل نصف قرن تقريباً مضى وأراها اليوم. أنا مقتنع بعمق أن إنساناً فخوراً فقط، إنساناً حراً، إنساناً ممثلاً بالإحساس بكرامته - وأود أن أضيف، بالكرامة القومية - استطاع أن يرفع نصباً رائعة في أرضه لكل كتابه الكلاسيكيين تقريباً. قبض لي أن أرى نصباً لضحايا الإبادة الأرمن وتوقفت لأفكر بامتنان للشعب الروسي الذي أنقذ الأرمن من الذبح عن بكرة أبيهم. بعد كل هذا، أنا أيضاً، ضحية من ضحايا الإبادة. أنا ولدت فوق تراب أجنبي.

بالإيمان: يا معلم، أنتم كنتم ما بنوف عن 2000 قصة، ناهيك عن العدد الكبير من الروايات والمسرحيات...

سارويان: بما أننا اتفقتا على أن هذه ليست ببساطة حديثاً في سيارة بينما هي تخرج بمسرح على طريق غارني وإنما هي مقابلة حقيقية، هذا يعني أنك ستسألني الآن ما الذي أعمله وما هي الخطط المستقبلية عندي. لن أخبرك. ليس لأن الأمر سر ولا لأنه أمر خرافي. الأمر ببساطة، أنني أعمل دائماً، أكتب دائماً. فأنا كاتب. أنا أكتب عن الناس. ولكي أخبرك ماذا أعمل الآن، فإن علي أن أعطيك موجزاً عن الحكمة. وما الحكمة إلا حكاية.

أنا أفضل أن أعلم قراؤك أن وليم سارويان في هذا ضبابي جميل انطلق خصيصاً ليشاهد مكان عبادة وثي. سيفهم كل شخص أن المرء لا يستطيع أن يزور أرمينيا دون أن يذهب ليرى غارني. أنا في الواقع رأيت غارني من قبل. في الطريق من لينينغراد إلى يريفان، أراني رازميك دافويان وليفون مكرتسيان صورة لغارني في البرافدا بصورة طارئة، دعني أضيف شيئاً لما قلته نوا. إن استعادة هذا المعبد الوثني القديم، هذا الصرح الذي لا يقدر بثمن للثقافة العالمية، ليو أيضاً برهان على قوة السوفييت.

بالإيمان: كوننا ذكرنا بعض الأجناس التي تعمل عليها أردت أن أسألكم بعدئذ ما الذي تقولونه في السينما والتلفزيون بما أن هاتين الوسيطتين الجماهيريتين تتنافسان بنجاح مع الأدب؟

سارويان: أنا أحب السينما. اعتدت أن أفعل الكثير من أجلها. ثم ولوقت فضلت أن أنقطع عنها. فيما يتعلق بالتلفزيون، فذاك سؤال أكثر تعقيداً. فأنا، مثلاً،

■ لقاء صحفي مع الروائي الأرميني ولبر سارويان ■

ليس عندي تلفزيون في البيت. التلفزيون طبعاً هو أقوى منافس للأدب. لكن له بعض المنافع. فبعض الكتاب الذين لا موهبة لديهم، ومهووسو النسخ الذين لولاه لانتزعوا طريقهم بنجاح إلى الأدب، وجدوا ملجأً تحت سقف التلفزيون. في نفس الوقت عدد كبير من المجلات والصحف أفلست في حين أن حجم طبعات الكتب تزدنى وارتفعت أسعارها. يكلف الكتاب اليوم حتى 10 دولارات. حتى أنني أجد نفسي أحياناً غير قادر على شراء كتاب. في هذا المجال أنتم، هنا، مجانبين تماماً: أكثر كتبكم، كما رأيت بنفسي، تكلف أقل من روبل....

شخصياً أحب أن أطبع في الصحف. والعديد من قصصني رأته نور النهار في الصحف. هذا يجمع فضيلتي الطبعات الكبيرة مع قدرة الوصول إلى عدد كبير من الناس فوراً. نقرأ الصحف عادة كلها في المحاولة الأولى، دون أن نضعها جانباً — خلافاً للكتب. لا أظن أن التلفزيون سيخلق صعوبات جدية للكلمة المطبوعة. "في البدء كانت الكلمة" — وهذا لن يتغير. إن أولئك الذين يعتقدون أن الناس يقرؤون أقل في هذه الأيام مخطئون. وعلى المرء أن يخشى لا من التلفزيون وإنما من الوسطية في الجودة، والسوقية، ونقص الموهبة. يبدو لي أن اختصاصيي المستقبل المعاصرين يضيعون وقتهم في بحث مسألة مكان الأدب والتلفزيون في المستقبل. لا شيء — لا الآن ولا بعد ألف عام — سيحل محل معطف غوغول بالنسبة لي.

<http://Archivebeta.Sakhr.com>

بالإيمان: ماذا نقول بشأن الشعبية الواسعة لما يسمى أدب الإمتاع الجماهيري في الغرب؟

سارويان: إن عبارة "أدب إمتاع" ذاتها فيها شيء غير طبيعي. الأدب ليس كرة قدم أو مصارعة أمريكية. سألتني مرة الشاعرة الرائعة، سيلفا كابوتيكيان، من هي النماذج الأصلية لقصتي ومسرحيتي قلبي في الأراضي المرتفعة. سميت كل الشخصيات، متضمنة النساء، وأضفت أنني كنت النموذج الأصلي لهم جميعاً. أي نوع من الإمتاع حين يحيا الكاتب أولاً حيوات أبطاله ومن ثم يبلغ هذه الحياة المركبة لقراءه! تتكون المهمة الأسمى للكاتب ليس من قدمه بذاته إلى أبواب جماجم قرائه وإنما من جعلهم جميعاً يدخلون حياته، وبيته، وقلبه. أي نوع من الإمتاع هو ذلك! الأدب الحقيقي وحده من يستطيع أن يشر بالطيبة والإنسانية. دوستويفسكي، مثلاً.

بالاين: هل تعتبر نفسك كاتباً ذا شعبية؟

سارويان: هناك من هم أكثر شعبية، وحولهم يصنع ضجيج أكبر. لكنني شخصياً أحب نوعية شعبيتي. إنها هادئة تماماً، والناس يستقبلونني لا بنشوة مرضية وإنما باهتمام.

بالاين: هل ترتبط رحلتكم الحالية في أرجاء أرمينية بأي أهداف ملموسة في عملكم؟

سارويان: أجل. بكتاب. ولقد باشرت به للتو.

بالاين: كان في إحدى مجلاتنا الأدبية قسم يدعى "كيف تكتب؟" ماذا كنت ستجيب على سؤال كذلك؟

سارويان: لا أعرف. يمكن للمرء أن يسأل خبازاً، مثلاً، "كيف تخبز الخبز؟". وإذا سألت، هل تعتقد حقاً أنه سيكون قادراً أن يشرح لك كيف يخبز الخبز؟ أنا لا أعرف كيف أكتب. أنا أستطيع أن أقول شيئاً واحداً: أنا أكتب كل يوم. لا أكون أبداً ولا في أي مكان دون التي للكتابة. كل يوم — هذا هام كثيراً. لأنك إن كتبت كل يوم، فلا يمكن إلا أن تقول شيئاً واحداً ذا قيمة مرة في السنة على الأقل.

بالاين: ليس من الأدب أن نذكر ضيوفنا بتاريخ مغادرتهم. أود بالتالي أن أسألك متى تنوون أن تأتوا إلى الاتحاد السوفيتي مرة أخرى؟

سارويان: أنا لست ضعيفاً على الإطلاق هنا. في كل مرة آتي فيها إلى هنا، فألي بلدي، وإلى أبناء بلدي. ربما آتي خلال سنة.

بالاين: خلال سنة ستكونون في السبعين....

سارويان: خلال سنة، ستكون السنة المئة والخمسون منذ انضمت أرمينية الشرقية إلى روسيا. أحب أن احتفل بهذا اليوم العظيم مع أبناء بلدي. لست أعمى وأستطيع أن أرى إلام صار وطني. أعرف كيف كان ذات مرة. ولد وليم سارويان على أرض أجنبية. أريد للناس أن يولدوا على أرض أجدادهم.



الرسام فاروجان أرتونيان

■ بقلم: كابرييل تاكفوريان ■

■ ترجمة: د. هارونتيون قهوجيان ■

الفصل الأول المعنون (الحية في الجنة) من القسم الأول والفصل الثاني المعنون (محاولات السهوض من جديد- معرض فريد من نوعه) من القسم الثاني من رواية عن حياة الأرمن في المهجر تحمل عنوان (الحارس خلف الستارة) للكاتب الأرمني كابرييل تاكفوريان والحائزة على الجائزة الأدبية الأولى لجمعية زافاريان، طبع في مطبعة أريفيك في حلب عام 1956 ضمن السلسلة رقم 28 لجريدة أريفيك اليومية.

ARCHIVE
http://www.ashkharit.com
(الحية في الجنة)

كان غروب خريفي رائع يرخي سدوله ببطء على أرض فسيحة، تنفخ هواء البحر النقي في ضاحية كليوباترا، إحدى ضواحي مدينة الإسكندرية. كان ذلك في اليوم الأخير من شهر تشرين الأول من عام 1924. خففت سيارة أنيقة من سرعتها وتوقفت فجأة أمام فيلا جميلة، محاطة باليساتين الخضراء، معزولة نوعاً ما وتستند بجلاء على مرتفع.

خرج من السيارة على عجل رجل قوي البنية تبدو عليه علامات الغنى والهيبة. إنه آرام أرتونيان، هكذا كانوا يسمونه وبكلمات فيها نبرة الإنسان، الذي سعد بتحقيق أمنيته التي طالما حلم بها توجه إلى الصبي الذي قفز بعده خارجاً من السيارة كالمنجاب فقال:

— "فاروجان! هذا هو بيتنا" قالها وهو يشير إلى ذلك البناء الفخم المحتجب خلف الأغصان الخضراء الكثيفة. كانت لكلمة "بيتنا"، ذات المعنى والنبوة اللطيفة وقع على فاروجان الذي أحسّ بشعور وكأنه أعطي الحق في أن يكون أحد أفراد ذلك البيت الرائع.

ارتسمت على وجه الصبي ابتسامة الفرح وأشعث عيناه كبخيرة ينعكس عليها ضوء القمر طاردا للحظة شعوره بالتعجب، الذي يخالغ الصبيان غير المعتادين أمام وضع جديد يفيض بالأمل. قال في نفسه وهو ينظر حوله دون أن يشبع: — طبعاً، أب أو عم، أليس كلاهما نفس الشيء؟

حقاً، كان المنظر خلافاً. كانت الأرض تبسّم بالطرز العديدة للأبنية وبأنواع الأشجار الخضراء وخاصة أشجار النخيل الباسقة المنتشرة، وقد تبيّحت باللون الذهبي للخریف الذي حل باكراً.

عندما فتح الباب الحديدي الكبير من قبل الخادم ودخلا معاً، قتل آرام ابن أخيه البالغ 9-10 سنوات بحرارة وأضاف بفرح رافعا يده بحركة تؤكد كلامه: — يا بنسي الحبيب من الآن فصاعداً، سنتنسى أيام التهجير المؤلمة وتعيش حياة جديدة وفرحة. لقد أوصيت الخادم أن يجهز لك غرفة في الطابق الثاني تتوفر فيها كافة اللوازم".

ولكن بدلاً من صعود الدرج رغب الصبي في التوجّه نحو الحديقة المليئة بالزهور، فقد جذبته منظر الجنة تلك، حينها ناداه عمه قائلاً: — "فاروجان! أنن تأتي لتتعرف على أمك الجديدة؟".

رغم انهياره بمنظر الحديقة، إلا أن الصبي فهم ما يقصده عمه، فصعد الدرج بسرعة ورأى السيدة على أريكة متكئة في هيئتها. اقترب الصبي في خوف وسلم عليها خجلاً.

— "هذا هو ابن أخي..." قال آرام.

على هذا الشكل من التعريف فحصت السيدة الضيف في فتور من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، ثم تهتبت: — "آه! كم يشبهك!..."

ردّ آرام بابتسامة الرضى على هذا الدلال في التشبيه.

— "ما اسمك...؟"

— فاروجان..."

— "فارو..جان" ردت السيدة جانيت وهي تهجئ كل مقطع في اسمه. "يا له من اسم موسيقي...! هل تلك الكلمة أرمينية؟"

— "ليست أرمينية وحسب بل اتخذت الآن معنى شاعرياً. إنه اسم أحد كبار شعرائنا القوميين والذي قتل بوحشية على طرق التهجير". قالها آرام في حزن.

خيم على الجميع صمت عميق. اعتبر فاروجان اللقاء منتهياً فأدار رأسه كان يرغب في رؤية هذه المسرحية المملة وقد انتهت.

عندها قال آرام وقد فهم ما يخالج نفس الصبي

— "الآن تستطيع الذهاب واللعب في الحديقة".

نزل فاروجان الدرج ببطء واختفى بين الأشجار. لقد علق في شبكة سحرية. وقف أمام منظر يأخذ الأنفاس. كانت شمس الأصيل قد حولت الحديقة إلى لوحة رائعة وكانت موجة من الروائح الزكية الأنثى من كل صوب قد أخذت عقله ورجحت مخيلته السهلة الانطلاق برؤى جلوة وكأنها من الجنة. كان يفكر في نفسه:

"آه! يا لها من سعادة أن يحظى أحد بعمّ مخلص كهذا في مصر البعيدة!".

كان هناك على الشرفة في نهاية الصالة ثلاثة أطفال: فاهيه، أرتو وأرمينية. أكبرهم بالكاد يبلغ الثامنة من العمر، والذين فور سماع صوت أبيهم أوقفوا اللعب وركضوا نحوه لاستقباله بصيحات الفرح قبلهم في شوق، ثم قال في فرح ورضى:

— "فاروجان في الحديقة، هيا يا أطفال! اركضوا وقلوه..." ثم جلس على كرسي قرب زوجته السيدة جانيت، التي نهضت لتأخذ وضعيّة هجومية هذه المرة. كانت عيناها تشعان في تهديد وخداع. تركت الكنزة، التي كانت تحيكها لتقول بلغة أرمينية عامية وقد حولت نظراتها الحادة نحوه:

— "كم تأخرت!".

— "إن بور سعيد ليست بمدينة قريبة فيالكاد استطعت أن أنهي عملي وأعود على عجل".

— "ألم يكن بالإمكان أن ترسل أهداً بدلاً من الذهاب بنفسك، فتجنب بذلك عناء السفر؟". قالتها بصوت متوّد ومتقلب. كان آرام ينظر بعينين حزينتين.

— "أن أرسل أهداً؟... يا له من اقتراح غريب...! هل كان بإمكان أحد أن يقوم بتلك المهمة، التي تتطلب العطف والتضحية؟ هل تؤمنين أن هذه الرحلة لم تسبب لي أي تعب؟ بعد تلك السنوات من الشوق والانتظار

أن أسمع أن أخي قد وطأ بقدمه هذه الأرض على صورة ابنه، الذي تركه، وأرسل شخصاً غريباً لاستقباله! كم كان ذلك سيئاً من عدم الإحساس! أليس الابن والأخ وابن الأخ بنفس القدسية بالنسبة لرجل حساس؟ هل تعامين كم أنا سعيد الآن لأنني عشت هذا اليوم فرحة عشرات السنين؟".

كانت الزوجة تنظر بصمت إلى إحسانه الفاض غضباً، وقد أخذها العجب كأنها تحضر ذلك الإحساس الأول مرة

— "كانت نيتي أن أحبك المصاعب التي لا تفارق السفر الطويل". أضافت بهدوء، كي تخفف نوعاً ما من التوتر، الذي سببته.

— "ما من مصاعب غير مننطرة، حتى لو كانت ذلك أسباب عاتقة لما سببت لي التعب، بل قد تزيد من غيظي". قالها آرام بسرور. وكى يشرك زوجته في فرحته، بدأ يسرد التفاصيل الملفتة للانتباه، التي حصلت يومها، رافعاً من الشأن الحسي لمعانيها.

— "عندما أخذت علماً بوصول فاروجان إلى بور سعيد، انطلقت، كما تعلمين، إلى الطريق في الصباح باكراً. حقاً، إن الانطلاق في طرقات مصر السهلة ممتع، خاصة عندما يخفق قلبك فرحاً. أملاً بقاء حبيب منتظر منذ زمن طويل. وصلت إلى ميناء تلك المدينة الجميلة حين كانت مجموعة من الصبية الأرمن تنزل من الباخرة. امتدت صيحات الفرح من معبر الباخرة حتى قاعات الجمارك. كان فضول القادمين الجدد في أوجه وعيونهم تشع نوراً، لأن أقدامهم وطأت الأرض التي طالما حلموا بها. تلك الأضباع البشرية تم جمعها بصعوبة

■ الرسام فاروكان أرتونيان ■

كبيرة من أنحاء عديدة من الصحراء فكانوا يحملون آثار جروح الشتاء والتشرد، وبخاصة على وجوههم، لا يغطي أجسادهم إلا الجلد المجعد، ولكن عيونهم تبدو عزيمة لا تقهر في التحمل والعيش. كيف بإمكانني أن أجد الآن قريبي بين تلك الأمواج المتلاحقة والطويلة من الصبية؟ ذلك كان تفكيري حينذاك.

فتشتُ بين تلك الأشكال المتشابهة عن الطابع الخاص لأسرتي. لكنني لم أخطئ، إذ ميّزت بين مئات الصبية الإشارة الخاصة لدم أسرتي، وقد طرأ تبدل طفيف نتيجة الآثار التي تركتها أيام التشرد. رأيت فيه عيني أخي وجبين أختي وشفاة أمي الرقيقة. إنه فرع طبق الأصل لآل أرتونيان، مع كنفه الأيمن الذي يتحرك لا شعوريا، كما كانت تفعل أمه.

مستكنه من كنفه، وأنا أناديه (فاروجان!) حنق في متعجبا بعيون برّاقة وابتمسم. كان أخي هو الذي ينظر إليّ في حزن مليء بالشوق. عرفني، وقد امتلأت عيناه بالدموع. قبلته وضممته إلى صدري بعطف. أما هو فقد عانقني، بينما للدموع تنهمر من عيوننا. حينذاك اقترب المشرف، فقلت له: أعلمتموني أن ابن أخي سيصل بالباخرة اليوم صباحاً. ها أنا جئت لأخذه. وبسرعة قامت اللجنة المسؤولة عن إيواء الأيتام بإنهاء الأوراق الرسمية فأخذت فاروجان إلى الفندق، حيث استحم ولبس الثياب، التي حضرتها له مسبقاً. وهكذا تحول إلى صبي آخر. بعدها أسرعنا للعودة إلى الإسكندرية. في الطريق بدأ فاروجان يحكي لي ما سمعه من أبيه وأمه وأخوته وأقاربه عن حوادث التهجير التي تعصر القلوب والصور المفرعة التي تقشعر لها الأبدان، حيث تأثر بها روحياً. كان ذلك الصبي وصفاً حياً لما حدث في عام 1915.

استمعت إليه بحزن عميق، وقد ارتعد جسدي. يا إلهي! هل من الممكن أن يتحمل الإنسان كل ذلك الشقاء، الذي لم يسجل التاريخ له مثيلاً أبداً ويبقى على قيد الحياة ويخرج من لهيب نيران ذلك الجحيم والفظائع المميتة؟ أجل، طبعاً، بالأعجوبة الإلهية.

كان آرام قد أنهى كلامه. بعد ذلك ساد صمت مطبق للحظة. أية آثار تركت تلك الأمواج من الأحاسيس، التي نسجت بها تلك المأساة، على روح زوجته؟.. لا شيء... تقريباً... كما السيول، التي تنساب على أحجار الصوكن دون أن تترك أية

أثار. كانت نظراتها اللامبالية تكشف عن عدم اهتمامها مع انزعاجها العميق. أخيراً انشق جدار الصمت، لأن السيدة جانبت لم تستطع أن تجد الوقت الكافي كي تكثف ما يخلج في أعماق نفسها، فجاءت لحظة الرد:

"ولكن أين سيقم فاروكان؟"، قالتها بدم بارد، وكأنها لم تفهم شيئاً من القصة التي تنفطر لها القلوب.

بدأ الدم يغلي في عروق آرام غضباً فردّ في وجهها صارخاً:

"ما ذلك السؤال؟ هل نقصنا مكان في بيتنا لأجل فاروكان؟ ألا نستطيع أن نطعم شخصاً آخر؟ افرضي أن لدينا طفلاً آخر."

"كيف ذلك؟ طفل آخر... صبي غريب! عفواً... أقصد غير ابنتنا الحقيقي، هل من الممكن أن نستقبله في بيتنا ونسكنه بين أولادنا، خاصة أنه جاء من الصحراء...؟"

"جاء من الصحراء... قلبي مشرد ولا تخافي! أفرغي سُمك! يالها من إهانة وجرح للشعور، كان بإمكان التركي فقط أن يلفظ تلك الكلمات في وجه الأرمني. اسمعي يا سيّدتَي العزيزة، بالنسبة إليّ لا فرق بين فاروكان وبقية أولادي. ويجب أن يكون كذلك بالنسبة إليكِ أيضاً. أما بخصوص مجيئه من الصحراء فإنّ ذلك يجعله عزيزاً عليّ أكثر، لأنه في ذلك العمر اقتسم شقاء شعبه ونصيب كبارهِ واشترك معهم في الشهادة. إذا فهو بطل وجدير بالتقدير وعليكِ أنت أيضاً أن تتظري إليه النظرة نفسها. لو كنت تعرفين والده رمز الكرامة والتضحية، لكنك أول المدافعين عن ابنه، الذي أرسله الله كوصيّة إلينا مسلماً إيّاه لرعايتنا وعنايتنا."

"هل من المعقول أن نستقبل غريباً كابن حقيقيّ لنا؟ يا إلهي، أبداً، خذه إلى مدرسة داخلية". قالتها وهي تكرر في نفسها وتلطم رأسها بيدها في يأس.

"أي بعيداً عن الأعين! أبداً لا أستطيع أن أقوم بذلك العمل الشائن بحق قريبِي. بعيداً عن الأعين بعيداً عن القلوب... بالعكس إنه بحاجة إلى العناية الأسرية كي ينمو أكثر من حاجته إلى الخبز، ويجب أن ينعم بتلك العناية هنا أمام عينيّ."

■ الرسام فاروكان أرتونيان ■

هل من الممكن التصدي لذلك الشعور الجيَّاش؟ لم ترد السيدة بعد ذلك، بل انزعجت وانزوت في غرفتها شاكية وصدّت بابها بقوة.

بقي آرام في مكانه محطماً وقد تسمر كالتمثال، إذ لم يكن يتوقع ذلك التصرف العنصريّ. إنّ الشرر المتطاير من لهيبنا الداخلي لا يمكن أن يشعل روح الآخرين، حيث ينقصهم شيء يماثل ما يشتعل فينا بسهولة. إنّ المآسي الأسرية تنتج دائماً عن عدم إمكانية انتقال الانتهاب المتبادل بعد برهة استفاق آرام من تعجبه والتفت إلى وضعه الذي يدعو إلى الشفقة وانطلقت تنهيدة (آه...) من صدره.

كم كانت تلك التنهيدة معبرة.

وفي تلك اللحظة استعاد آرام ماضيه بالكامل.

• • •

(محاولات النهوض من جديد.

معرض فريد من نوعه)

ARCHIVE

كانت الجرائد والمجلات الأرمينية والأجنبية في القاهرة والإسكندرية تعلن بعناوين عريضة عن إقامة معرض فريد من نوعه سيفتح في الإسكندرية بتاريخ 28 نيسان عام 1935 في صالات (كاليري درفو) تحت رعاية الحاكم المحلي.

كان معرض الرسم بعد حدثاً غير مسبوق ضمن البرامج الفنيّة في المدينة. وكان الفنان شاباً في مقتبل العمر وقد أصبح معروفاً بسرعة بين عشاق الفن في العاصمة مثلما هو في الإسكندرية بفضل ذوقه الفني المرفه ونهيمه الكلاسيكي. إنّه الفنان المميّز فاروكان أرتونيان.

بالكاد مضت سنة واحدة على عودته من باريس، حيث بقي عدّة سنوات بعد أن أنهى تعليمه العالي في روما بنجاح باهر، فعمل في البدء كرسّام ثم كمهندس معماري. وبعد أن أكمل اختصاصه في باريس غداً وجهاً بارزاً في العاصمة، مركزاً الفن، واشتهر من خلال المسابقات الدوليّة المتعدّدة. كان نجاحه متوازياً في مجالي الرسم والعمارة، الأمر الذي يبدو نادراً.

في تلك البلاد انتشر سحر موهبته الذي لا يقاوم في موجات كبيرة، رغم طلاقة تلك المراكز اللامحدود، والتي غالباً ما تحدّ من شهرة هؤلاء المبدعين وتعمّقهم أو تنتشر إصداًء إهانتهم بشكل خاص. كان لترفعه كمصري من بلد الفراعنة أثر أكثر إذهالاً. وكان حجم نجاحه الآتي من بعيد قد نال إعجاب المصريين من أرمن وأجانب. وعندما انتشر نبأ عودة الفنان إلى موطنه الفن الأول أي الإسكندرية درج بينهم التساؤل هل سيتناسب ذلك الإنسان فعلاً مع شهرته؟ لكن الجميع كانوا مقتنعين وبسرعة بأن قيمته الحقيقية لم تتغير من قريب أو بعيد وأن الفنان كإنسان كان يساير فنه وأنه ليس عبثاً أن يتقبلوه بذلك النهم كرسام موهوب وميندس بارع في بلد يصعب ثقيله للفن.

رغم ألفته وطراز حياته في القاهرة والوسط الذي عاش فيه، إلا أنه استقرّ في الإسكندرية فاستأجر (فيلا) جميلة بالقرب من ضاحية (كليوباترا) كانت خالته التي عرقها بأنها أمه تسكن معه ويكنّ لها احتراماً عظيماً إذ عوضت له أهله الحقيقيين بكلّ الأوجه لسنوات طوال.

كان من الصعب عليه إقناع خالته بمغادرة القاهرة، حيث عاشت سنوات طويلة مع زوجها الذي فجعت وفاته، فارتبطت بالقاهرة بذكرات كثيرة حلوة ومرة لكنها راضية في النهاية لتوسلات ابن أختها كي لا تتركه وحيداً في مدينة غريبة، حيث من السهل جداً الخضوع لطيش الشباب. كذلك كان فاروكان يرغب أن يعوض بواسطتها حنان أمه بقدر ما، ذلك الحنان الذي أغدقته عليه خالته لسنين منذ هروبه المليء بالمخاطر من بيت عمه لحين سفره إلى أوروبا. لكن رغم نقصه إلا أنه كانت هناك نقطة ظلت سرية ولم يستطيع أن ينال عليها جواباً مقنعاً وهي من أين كانت ترسل له مصاريف الدراسة الباهظة في القاهرة وأوروبا لسنين عديدة، إضافة لمصاريف النقل والسكن والأدوات والمشغل؟ لقد لاحظ ومنذ اليوم الأول قدراتها المادية المحدودة، فأخبرته بأنها باعت مصاعها وسنداتها لتدبر له قيمة المصاريف وأرسلت له المال بانتظام، وبفضل ذلك المبلغ لم يلق فاروكان أبداً أية ضائقة مالية خلال حياته الطويلة والمكثفة في الاغتراب. كذلك لم يئل فاروكان أي إيضاح بهذا الخصوص من عمه، الذي كان بدوره يحاول أن يحفظ ذلك السر في الخفاء لعلمه بعزة نفس ورهافة حسّ ابن أخيه.

كان فاروكان قد جيز لنفسه مكتباً للهندسة ولقي على مرّ الأيام نجاحاً كبيراً فاستلم تصميم وتنفيذ مبان كبيرة ومعقدة مهما كان طرازها. ولدراسته لطرز وتقنيّة العمارة في العصور القديمة والوسطى والحديثة بكلّ تفاصيلها فقد كان يتقنهم بخياله الواسع المشاكل والعقد المستعصية والإمكانيات الماديّة لحلّها وتنفيذها. وكفنان تشكيلي كان متمكناً من إظهار تفاصيل رسومه بشكل واضح ومفهوم بحيث كان كثير من المهندسين المشهورين والخبراء يلجؤون إلى خبرته لحلّ المصاعب وإزالة العوائق في التنفيذ الدقيق للمنشآت المعقدة شرط أن يعودوا مطمئنين على لجوئهم إليه.

وهكذا أصبح مكتبه معروفاً على المستوى الدوليّ إذ كانت مشاريعه في توسّع مستمرّ. ولأجل إرضاء طلبات وعروض الكثير من الزبائن كان عدد كبير من الموظفين والمحاسبين يعملون باستمرار، فكان تصميم وتنفيذ مشفى حكومي ضخم تتويجاً لموهبته وخبرته، فغدا المهندسين المعماريّ الذي يشار إليه بالبنان في كلّ الأوساط.

صار المال يستحقّ بغيره بالتوازي مع انتشار شهرته، لكن المال لم يكن ينكتس عنده بل يفيض كنهر يورّع الطمي على الحقول والأراضي. كان يقول لمننقديه بشأن سخائه وتضحياته: "لا أريد أن أكتسب المال فأصبح حارسه الرخيص. يجب أن يقوم المال بمهامه فلا يجمد أو يركد فيتحوّل إلى مرتع للسموم". كان يصرف المال دون حساب، ليس لأغراضه الشخصية وحسب، بل لأهداف قومية وخيرية وإنسانية لإرضاء الطلبات وبصورة سخية أحياناً. كان عضواً في النادي الدوليّ للفنانين ورئيس شرف لدار مكتبة رافي - زوهراب الأرمنيّة، فيشارك في كلّ النشاطات التي تفيد الوطن، دون تحفظ، إن كان من الناحية المادية أو المعنوية. ربما كان ارتباطه غير العاديّ بالمال نتيجة لأيام التهجير حين كان الأرمن ينطلقون على عجل في مسيرهم نحو المجهول، تاركين كلّ شيء من منازل ومصاغ ومال بأيدي الأعداء فأقدين بعد حين ما يعزيهم من لباس، جياع عراة وبحاجة لكل شيء، يرتجفون رعباً أمام الموت الذي سيأتي في اليوم التالي. في تلك المأساة كان الغنيّ يعاني أكثر من الفقير لأسباب عدة أولها أنّه لم يكن معتاداً على تلك الحياة القاسية، وثانيهما أنّه كان ينظر بحسرة إلى الوراء وفي قلبه

غضب ويتعذب لتسليم ثرواته إلى أعدائه الأذلاء ليتصرفوا فيها كما يشاؤون. إذا بالنسبة لفاروجان كان من المنطقي كسبه للمال الوفير وصرفه للفائدة العامة، لأن الغد مجهول بالنسبة للمهجّر الأرمني. فشكل حوله وسطاً مقرباً يحسد عليه واستطاع أن يجمع عدداً كبيراً من الأصدقاء والمعارف وأبدى رغبته تحت ضغوطهم في عرض نتاجه الفني على الجمهور، كما فعل قبلاً في باريس وروما. وهكذا ولدت فكرة الشروع في إقامة هذا المعرض في الإسكندرية. تم الافتتاح في حفل مهيب حضره الحاكم صديق فاروجان وعدد كبير من المسؤولين الكبار وعشاق الفن والوجوه المعروفة وممثلو الصحف الأرمنية والأجنبية ومحاضرو ومدارس الفنون وأعضاء المجلس المليّ الأرمني والطلاب وباقية مختارة من الحضور.

كانت اللجنة المنظمة، التي يدخل في عدادها كل من فاهيه وأرمينية ومادلين ابنة أخت السيدة جانبيت وشبان آخرون تقدم خدماتها للزوار مع القيام بأعمال أخرى في صالة العرض.

احتوى المعرض على ثلاثين لوحة زيتية وعشر ألوحات لتجارب أخرى عديدة، وقد وقف الزوار بإعجاب أمام كل منها سننكر بعضاً من اللوحات المميزة

1 - أكوام الطين تتحطم: بيت ريفي قديم وجميل مبني على سفح جبل، يتعرض لضربات البرد والسيول والبرق لكنه يبقى صامداً. من خلال النوافذ نلاحظ نظرات مليئة بالرعب خوفاً من قرب التهديم. حول البيت آثار الخراب، الحواجز تتأرجح وأكوام الطين تتحطم وأشجار الحور الباسقة المحيطة بالبيت تنحني والحراس يراقبون يقظين. كانت فكرة اللوحة واضحة. إنها صمود التكوين أروحي الأرمني. كان فاروجان قد تصور هذه اللوحة منذ فترة طويلة، وبالتحديد منذ شبابه إذ جسّد بحسه القوي الرعب من الخطر المحدق بقومه في ألوان دراماتيكية. كانت اللوحة مهداة إلى آرام أرتونيان.

2 - مأساة: مدينة أثناء المذابح، عجوز أرمني عند عتبة بيته وهو بهم بالدخول إليه، وقد تعرض للضرب من قبل القتلّة المسلّحين بالهراوات والخناجر والفسّوس، فيبدو الضحية وقد ارتدى على الأرض مضطجاً بالدماء، يصارع الموت، كان المنظر مروّعاً لدرجة أن الناظر كان يمسك نفسه: هل سبق للرسم

■ الرسام فاروكان أرنوتيان ■

يبا تری أن عاش تلك اللحظة المربعة كي يصورها بتلك الحيوة، فيخرج التعبير صادقاً.

3 - الماضي والحاضر: لوحة بألوان محلية، الهرم الأكبر ليلاً في لحظة شاعرية، حيث يقوم رائد النهضة في مصر بزيارته مع أعوانه ليستلهم من صرح الأبدية هذا نزعة لربط الرؤيا الجديدة بعظمة الفراعنة القدماء. أهدي فارجان هذه اللوحة إلى متحف المدينة.

4 - العذراء: لوحة مثيرة للاهتمام، إنها لوحة حية لـ أرمنيه بوجهها الوردي وجمالها الكلاسيكي، وهي تمثل البراءة العذرية. لم يبق في نهاية المعرض أية لوحة، لقد وجدت جميع اللوحات مقتنيها. كان الزوار بالمئات من أرمن وأجانب، وقد عبروا عن إعجابهم بالمعرض في اليوم خاص.

كان السجاح الباهر لشباب أرمني كفتان بين الأوساط الدولية قد ملأ قلوب الأرمن بالغسطة غير المحدودة. إنه كبرياء أمة، إنه أمر طبيعي نابع من أعماق كينونتسنا وعامل مهم لتخفيف الشعور بالنقص في المهجر. وهكذا فإننا ننتظر أن يشهد الأجانب على تغيير قيمنا، ذلك هو مقاييسنا.

هنا نورد ما جاء عن المعرض في دورية أرمنية في مصر تدعى (الصقل):
"منذ قرون، عندما فتح الأرمني عينيه تددت أمام ناظره جبال تعانق السماء، تحيط بها الغيوم، أفاق متعرجة، حافات زرقاء ربابية، سفوح الجبال تغطيها الخضرة، تنتظر إلى الأبدية السحيقة، حيث يختلط خريف مياه الأنهار مع فحيح الأقاعي. على بعد تتراءى له قبة الكنيسة كرمز للديمومة، تتطلق منها رائحة البخور المنعشة. وهكذا تتمايل روح ذلك الفتى على أمواج الجمال والسمو والأبدية والروى بعد أن يتجسد كل ذلك كشعور وحس مرهف، كحكمة ورغبة، ولكن بعد أن تضاف إلى ذلك آثار الاضطهاد والتجهير والإبادة والمآسي فإن تلك الروح تتجسد على ورق أو قماش للوحة كصورة مذهشة أو قصيدة مؤثرة على صفحات كتاب أو أغنية كنيية على أوتار قيثارة.

ليس فاروكان رائد فن الرسم الأرمني بمواضيعه وحسب، بل بأسلوبه وألوانه أيضاً، حيث نحس المظهر الملفت للانتباه للفن القومي الأصيل بألوانه وخطوطه وتركيبته المميزة للشكل والخلق.

إننا نحیی بسرور نهضة فنّ الرسم الأرمني من خلال هذا الرسّام الحقيقيّ الفئسيّ. ومن دوریة (الفنّ) الأجنبيّة نقتطف فقرة كتبت عن المعرض: " الفضاء رحب بين الحقيقة والخیال وغير قابل للاحتیاز غالباً. لقد صهر فاروكان خفایا جمالیات أوجه هذين العالمین فی توافق طبعیّ، حتّى لیخیل إلیک أنّهما متطابقان. لا عجب، فهما یبینان لنا بشكل محسوس ومعاش بعمق روحاً قویة فی الأعماق، واسعة ومخترفة. إنّ عالمه الداخليّ الشاسع یضمّ تنوعاً غیر عادیّ فی خلط بارع للأشخاص والأشیاء والظواهر والأشكال والألوان الممزوجة. تخرج كلّ تلك الأشياء من عالم قد یبدو غریباً لنا، لكن الفنّان بحوله إلی شيء مألوف بمعجزة من ریشته. أمّا إذا ظهرت بوجه معروف فإنّها تصور لنا بعد أن تلبس ثیاب الفنّ السحریة فتبدو أنّها آتیة من عالم غریب.

من الملفت للنظر ذلك الحسن المرحف المتمّ بالرعب القوميّ، الحسن الذي یقبل الترفع إلی أعلى درجات الفنّ لیخلق أسلوباً خاصاً مطبوعاً بالختم القوميّ. ومن دواعي السرور الإعلان أنّ الخطوة الحاسمة فی نهضة فنّ الرسم الأرمنيّ قد اتخذت، ویبقى أن تبشر تلك الخطوة بمبدعین جدد. تهانینا بهذه المناسبة الفريدة.

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>



أرمينيا جذوري

■ بقلم: أسد غيك جمكيرتن ■

■ ترجمة: عبد الله حجار ■

مؤلفة الكتاب سويسرية من أصل أرمني عملت في المنظمة العالمية الخيرية "كاريتاس" وشاركت عام 1988 في بعثة إلى أرمينيا لمساعدة ضحايا الزلزال هناك، وقررت إصر عودتها إلى سويسرا أن تعود إلى أرمينية لتكتشف البلد والشعب ولتعلم اللغة الأرمنية، وقد أمضت سنة كاملة في أرمينيا في أحد بيوت الطلبة بعد حصولها على منحة جامعية.

تسجل في كتابها "أرمينيا جذوري" شهادة عن سجل للحياة اليومية في أرمينيا السوفيتية التي تسير نحو الاستقلال، والطباعاتها عن الشعب المضايقات وظروف الحياة اليومية الصعبة والروتين وروعة الآثار، وتطلع على آمال الشعب وهمومه الاجتماعية وتعاطف معها محاولة نقلها إلى بلاد الانتشار وأوروبا كنوع من العرفان بالجميل وهي تحس بأنها وجدت جذورها في بلدها الحقيقي أرمينيا وكأنها ولدت من جديد...

يتألف الكتاب من 260 صفحة تطرقت فيه إلى أكثر من 50 موضوعاً في مختلف الشؤون البيئية والاجتماعية والسياسية والمالية مع التطلعات المستقبلية وصفتها بشعور وتذكير من عاش في أوروبا وبتفصيل دقيق لما هو غير مألوف لديها مثل إعداد الطعام ولف اليبرق.

ونقتطف من كتابها فصل "العام الجديد" و"الميلاد" و"عيد مولد" و"في المطعم" نموذجاً على أسلوبها الجزل في الوصف والتعبير.

ع.ح.

العام الجديد

31 كانون الأول 1989

غدا يبدأ العام الجديد. يوم الاجتماعات الكبرى في العائلات، حيث يتم إعداد وجبة طعام فخمة لتكون بداية جيدة للعام. إنني ملزمة بالذهاب لقضاء سهرة الميلاد عند ليفون. لقد ألحّ كارو كذلك... لكن ليفون هو صديق ابن حماتي، أي هو صديق مختار وكان فيه شيء من الألفة والطفرة التي كانت تخص كل البدايات. ولذلك يكون هدف أن أكون أرمينية... قد تحقق...

ذهبت إذن لقضاء السهرة عند ليفون. في 31 كانون الأول كانت تتواري السنة القديمة وتبدأ السنة الجديدة. تطايري يا أغطية زجاجات المشروب، وليمسح رنين الكؤوس، "غدا سوف تطرد الهموم وسوء الحظ"... لكن لا! في الحقيقة، العيد المفترض لم يكن موجوداً، لم يحاول أي شخص أن يبذل جهداً ليعيش الأمل، حتى ولو لمناسبة واحدة أو لساعة واحدة... العيد هنا، ربما يُنتهج به بوجود الطعام، لكن الأنفيس غير سعيدة، وسوف ننتظر برصانة منتصف الليل قبل الجلوس إلى الطاولة. وينتظر كالعادة دائماً أمام هذا التلفاز شديد الاحتكار، المنقل بالضجيج والصور الذي يثبت لنا مسلسلات أفلام أوروبية رديئة. ليليت وفكتوريا يبدو عليهما الإرهاق، أحاطت بأعينهما هالات سود من التعب، لقد قامتا بإعداد فطائر خلال الليل بطوله. كما أن إيزابيل الصغيرة مريضة. هواء يريفان الفاسد لا يناسبها. وبعد إيزابيل سيأتي دور ديكران...

بسبب التلوث، الجهاز المناعي لسكان يريفان متخرب بشكل كبير، والمرضى المتزايد بسبب ظروف الحياة شديدة الاضطراب سوف يستقر بشكل دوري في كل فرد من العائلة، وسوف يؤدي لاحقاً إلى هجمات جديدة غامضة.

ويمضي الوقت، ويخفف الكونياك الكأبة، الجو هادئ، وكان ليفون يتألم أكثر فأكثر من ركبتيه. أدت إصابته بالروماتيزم إلى إحداث تشوهات. لا. لا يوجد شيء يمكن القيام به، لقد حاول كل شيء دون جدوى.

— لقد ابتلعت بالتأكيد كمية من الدواء تعادل رقفاً في صيدلية، ولم أستد منها شيئاً. يجب القول بأن الأدوية هنا...

لكل يوم موكب كابته... هذه الليلة، إنه العام الجديد، وكل شيء سيبدأ من جديد. إيزابيل، غارقة في قراءاتها، تعطس مرات عديدة.
— هل تناولت ملعقة العسل هذا الصباح؟

نعم، لقد تناولتها. بالطبع لو كانت مع الليمون لكان ذلك أفضل. لكن هنا الليمون... في تقديري، أن ليمونة واحدة تماثل بغلاء سعرها قيمة وجبة في مطعم جيد في سويسرا. بينما بالنسبة للعسل، فلدينا العلية الثمينة المجلوبة من سويسرا والتي يُحتفظ بها للحالات القصوى... إنها "علية العسل ذات القطرات الذهبية". أما بالنسبة إلى ليفون، فلن جرعة من الكونياك الأرمني أوري هي التي تشفي الرشح والذبحات الصدرية لديه. قليل من الأوري المدغم بقليل من الفلفل والثوم... وبصحتك!!!

وأخيراً حل منتصف الليل. عام سعيد! عام سعيد! سنة مباركة Chnorhavor nor dari! أخرج ليفون الشمبانيا؛ على المرء أن يستمتع إنها السنة الجديدة. الشرب نخب العائلة، ونخب أولئك الذين تركناهم في سويسرا، وفي أرمينيا... كلام وكلام من أجل الجميع... لكن القلب بالتأكيد لم يكن سعيداً. لقد حضرت فكتوريا الأرز المطحون التقليدي المزود بالمشمش والخوخ والزبيب، كما توجد قطع منتخبة من فخذ الحمل، كنا ليفون وأنا قد ذهبنا نبحث عنها قبل عدة أيام على طريق إنشيمازين الشريان الكبير الذي تنتصب على جانبيه خرفان تلهث أو خرفان مسلوخة لا تلهث، رأسها المقطوع مرمي على حافة الطريق. وبيع اللحم... إنه اليوم وجبة العيد! لكن في العاصمة، لا يبيع اللحامون شيئاً... وفي الأفران يوجد الخبز فقط في الصباح الباكر. في هذه الليلة سيقدّم البرتقال على طاولة ليفون. أنا أعلم أن الكيلو غرام يكلف 13 روبلاً في السوق. برتقال للجميع ويزرع عدة مرات على الجميع. ويقشر ليفون البرتقالات ثم يضعها بشكل أرباع وبعناية في كل صحن على حدة. مذاق ذهبي. برتقال منتخب ربّما من جورجيا.

سنة سعيدة! إنه العام الجديد! سنة مباركة Chnorhavor nor dari! أما ديكران فهو تحت الطاولة غير مهم، يلهو بأقدامنا المصطفة جيداً، وهو يقوم بإحصاء الموجودين ويخطئ أحياناً في العدد.

الأول من كانون الثاني 1990

سنة جديدة أيضاً، لكن هذه المرة في ضوء النهار. الجو في وكالة الـ A.P.N. أقل وطأة لقد قررت مجموعة الرفاق أن تبذل جهدها لتفرح. وسيحتفل بالعيد عند كل شخص وبالذور وفي وقت محدد. أولاً عند روبين حيث سأتعرف على عائلة من الفنانين الرسامين، لفت بعض أفرادها انتباهي بتعبيرهم شديد النمطية. أخوة، بنات حمى، أب وأم وأجداد... صباح الخير للبعض، صباح الخير للأخريين: وتتابع الوجود، جمال قديم صارم حيث يمتزج الذكاء مع السحر. كان وجودهم كافياً لعيد اكتشاف شعب حكايات الأطفال. وبعد صفقة قوية في راحة اليد دلالة على الصداقة، أدخلني الوالد في الحكاية: غرفة تترخز باللوحات والصور الشخصية للعائلة، وعلى مقربة مسند خشبي نصف مستور تحت قماشة كبيرة بيضاء وبعض المجالات مبعثرة على الأرض. وفي الغرفة المجاورة طاولة مرتبة: غطاء طاولة مخرم وصف من الكراسي وكؤوس وصحون وملاق وسكاكين وشوك وتعاقب صحن... الديكور ذو أبهة وكأنه ينتظر ملوكاً... إنه ملوك استعملوها ورحلوا.

سأذهب بعد ذلك إلى بيت أرشور حيث الجو متوتر، لأن الزوجين متخصصان. الطاولة النثرانية معدة بالطبخ لكي تجعل المرء يسمى ويسامح... المضيفان متضابقان. لحسن الحظ، هناك طفل صغير ظريف ومستبد يلهو ويشوش كل شيء. وتقبله الجدة ويغتنم الصغير المتهيج الفرصة ويرمي الصحن على الأرض، وبما أن اليوم هو العيد فللعزيز الصغير الحق هو أيضاً في الحصول على قطرة من الشمبانيا من كأس أبيه.

ويستمر العيد عند أفيد حسب البرنامج الموضوع مع الطاولة الفاخرة والمليئة بالأطعمة. ولكن... هل كان يجب البدء من جديدة مرة أخرى؟

— بالطبع؟ إنه لشرف كبير لنا أن تكوني ضيفتنا!

وبمجرد أن عرفت والدة أفيد أنني أرمينية راحت تتكلم بصوت عالٍ وتقوم بالعناقات الحارة... نجلس إلى الطاولة وهاهي المأدبة مرة أخرى. وأشعر أن ساعتى قد دنت لكثرة الطعام الذي تناولته وأستعد لمواجهة أزمة كبدية. ويبدو لي

أن الأسوان تَمزج وتختلط الصحون وتزداد الكؤوس، تتصادم فيما بينها مع طنين في كل مكان... لننكلم عن شيء آخر.

ومقابلتي على الطاولة كانت الأخت هرمينة وهارون ابنتها ذو الأربعة عشر عاماً ولم يعمد بعد. لا تسألوني كيف كان يتم الحوار. همس أت من بعيد كان يتضخم بالتدريج ليصبح صوتاً جلياً على شكل سؤال:

— هل أنت معمدة يا أسديك؟ هل بإمكانك أن تكوني إشيينة لهاروت؟

كانت بضعة كؤوس مبعثرة هنا وهناك، وكان الجو مكهرباً نوعاً ما بالكحول واللامبالاة. وكنا ننكلم من وقت إلى آخر عن تعميد هاروت، لكن "قي يوم ما"، و"يوم ما" هذا دوماً بعيد.

كان عليّ أن أفكر، أن أكون إشيينتها، نسيبة وُد أرميني... غريب كيف أن كل شيء هنا يؤخذ ببساطة... وفي الحقيقة الجو مساعد... وإذا كان هاروت يريد ذلك حقاً، فلم لا؟ هاروت! نعم، أراد ذلك حقاً من كل قلبه! إذن تم الاتفاق!

تم تبادل التهاني بين الجميع وسيل من الخطابات المنوعة والمبهجة، وتم تثبيت كل شيء. وتم العمد وهو تقليد بسيط في العائلة في الأسبوع التالي. لقد تعلم هارون الإيمان بشكل غامض من أهله بدون دعم من أية جهة.

على كل حال كان وجه هاروت، يوم العمد، مشعاً ومؤثراً جداً. وحال إنهاء عملية الغمر بالماء قمت دينياً بتتشيف الطفل بمنشفة الإشيينة. وعند الخروج من الكنيسة تم توزيع الشوكولا...

إذن عام جديد وقرار كبير ولد هناك وسط هذه النفحات الروحانية. وينتهي النهار، أوف، ما زال أمامي عام لاستعادة قواي... أمّا بالنسبة لأهل المعمد الفرحين فإنهم مشروحو الصدر ومبتهجون. ولحسن الحظ كان ليفون يقود السيارة بأعصاب باردة وهو جالس خلف المقود. بينما جلس أرثور وروبين في القسم الخلفي يشكلان زوجاً ممتازاً: يلوحان بالتحية بالقبعة والشبابيك مفتوحة بالكامل ويحدثان المشاة وركاب السيارات العابرة الأخرى معلنين أنه العام الجديد. وأن جميع الآمال مسموحة، وأنه غداً أو بعد غد ستصبح الكاراباخ جزءاً من أرمينيا، وأن جميع الأرمن في العالم سوف يعتمدون.

— سيداتي سادتي، سنة جديدة طيبة، نحييكم بصوت منخفض.

في الواقع أن القبة المحترمة للصديق روبين وهي تمد إيماء صاحبها رفيع الشأن أخذت في الوقت نفسه حرياتها لتذهب تلهو في أفاق أخرى، في قناة بالصدفة متواضعة. لقد وضعت بذلك نهاية لسنوات من الخدمات المخلصة والجيدة لرأس شخصية مليئة بالإساءات والأهواء، لكن حمل القبة غفر لها كل شيء.

الميلاد

6 كانون الثاني 1990

الميلاد⁽¹⁾. تساقط الثلج طيلة الليل ثم توقف، مصحوباً بهبوط بارد جليدي. وعلى حافة نافذتي، تجددت حبات زيتون أرمين السود الكبيرة داخل مائها الذي تحول إلى جليد. ويشير ميزان الحرارة عندي إلى 15 درجة تحت الصفر.

الميلاد. مولد الفقير. لكن الفقير هو ملك. وتبدو المدينة بيية وجميلة. ويوزع الرز على المؤمنين عند باب الكنيسة Khorovats (المشاوي) مجلوبة من كاراباخ أمام ساحة الحرية. وكان أهالي يريفان قد أرسلوا الهدايا إلى أطفال كاراباخ. إنه تبادل الأعمال الخيرية بين الوطن الأم والابن المفصول عنه.

وجد روبين سيارة مع وفود لذهابي إلى إيشمازين، وهو نفسه يجب أن يلتقط فيها صوراً للوكالة.

الميلاد في الكاتدرائية. سيمسح روبين الكاتدرائية طويلاً وعرضاً وهو يمر بصعوبة ضمن حشد كبير ومتراس من الناس، وفي يده آلة تصوير يلتقط بها صوراً من قريب ومن بعيد: دخول موكب رئيس الأساقفة مع نوابه والشمامسة الشمعدانيين والإنجيليين وأولاد خدمة القدا، ويتقدم موكب الحاشية بعظمة وقد اصطف أفراداه بانتظام على نسقين وجاء من بعدهم صف المرتلين مزهوين في ثيابهم الزرق.

(1) بعيد الأرمن الميلاد في 6 كانون الثاني في الوقت نفسه مع عيد الغطاس انجسماً مع تقليد الكنيسة الأولى.

والتقطت صور بعض لحظات التوقف مثل تلك البركة التي تعطي للجموع برسم إشارة الصليب ومشهد نظرة الفتاة الصغيرة الحاملة وهي تحديق في الشجرة التي ترتجف... صور وصور... حصاد وفير من الصور... ونفذت أخيراً الأفلام. لقد توقفت آلة التصوير وعدوان ومضاتها. هذا روبين ووضع آلة التصوير ضمن محفظتها، لكن ومضات أخرى ربما لأشخاص آخرين ما زالت تعمل... إنه على كل حال متحفظ جداً بالنسبة إلى الكنيسة. وهو متوتر جداً، إذ أنه "لا يستطيع البقاء في صلاة سينما حتى انتهاء الفيلم" ويعرف ذلك في نفسه. ومع ذلك فقد توقف في الكنيسة. ربط بين حياته وعمر القباب من آلاف السنين، إنه عمود من اللحم إلى جانب أعمدة من الحجارة مسنداً ظهره بسكون وثقل مثل ركيزة.

عند الخروج من القديس، قدّم لي كهنية صليبا من هذه الصليبان الصغيرة المصنوعة من النحاس الأصفر والذي يباع عند مدخل الكنيسة. بينما السوفييتي كان قد قدّم لي صليب أرمينيا. كان الأرمني يستعيد تقليده ويربط بماضيه من جديد. اقتحم رمز العطاء أبواب الإيمان. وهي طريقة تقول "لا" للفلسفة المادية وللتأكيد مجدداً على هويته الأرمنية. يا لها من صرخة!

اليوم، ينقل قديس الميلاد على التلفزيون الأرمني. وما كان ذلك يحدث من قبل أبداً. وقد تابعت الكنيسة حجّها الكبير وهي تجذب وراءها شعباً يولد من جديد. إنه الميلاد!

عيد مولد

18 آذار

رجفة برد: الباردة، كانت درجة الحرارة 15م. اليوم، البرد قارس.

غداً، إنه عيد مولد ليندا زميلتي في بيت الطلبة. يجب الاحتفال! فريقنا مدعو، وهو مؤلف من ثمانية طلاب، من بينهم أرمن من الولايات المتحدة وسوريا ولبنان وحتى "حسن" السوري المحبوب الذي لا يتكلم سوى العربية والروسية! وكل ما استطعت أن أفهمه منه، أنه يمضي وقته في العيش على أحزان حب يحاول إغراقه على مراحل بدعوتنا إلى شرب الكحول.

أشغل نفسي في عمل البيرق مع كوهار وهريسيمييه. اشترت أوراق العنب طازجة من السوق، تتقع طويلاً وتفصل بعناية واحدة واحدة لتدرج فيها حشوة معدة من الرز والتوابل وقطع ناعمة من اللحم. عمل طويل يحتاج إلى صبر كررته الأيدي الأرمنية منذ أجيال وهي تتأمل في أرق الصغير الأخير أو في زيادة سعر البندورة.

— انتهى، بيرقتك صغيرة جداً، وهناك وضعت كثيراً من الحشوة، يجب وضع الكمية الكافية لملء جميع أوراق العنب. وهذه يجب أن نلقها من جهة العروق. والأوراق الممزقة يمكن استعمالها أيضاً.

أجل، هأنذا الأرمنية يداي ممثلتان بالرز وورق العنب، أعمل في غرفة الطلبة في يريفان. على طاولة الدرس بعد الانتباه لإبعاد القواميس وأشعار طومانيان. وعلى مسافة قريبة، على الموقد الكهربائي الصغير وفي طنجرة ضخمة، ضمع البيرق بعناية على شكل أهرامات. وفي الغرفة المجاورة، تحضر البيتر: وقد امترج العجين بالماء والملح ثم ستمد لاحقاً الخضرة الصغيرة المتوفرة في السوق، ثم شيء فاخر جداً، بعض أسماك مملحة جلبها حسن من سورية. أما الجبن، فقد أمنه روبين، جبن قاسي مجلوب من هولندا ويؤمن بأسعار غالية في الشوارع العميقة من المدينة. سيجري الطبخ في فرن الطبقة العليا، في طرف الممر. بقي أيضاً موضوع المشروبات: لا يوجد نبيذ في المدينة كلها. لقد علقت الحوانيت لوحاتها "لا يوجد نبيذ". لا فائدة من الإلحاح. إلا إذا... بالطبع "إلا إذا"... إنه النظام D للعلاقات التي ستظهر في آخر لحظة، وبفلس الرشاقة التي يخرج فيها الساحر الحفامات من قبعته تظهر زجاجة أو اثنتان من هذه الزجاجات الثمينة. وإذا كان يلزم عشرون زجاجة. حسناً. ابن عم يسكن في الريف سيؤمنها.

تحولت غرفة الدراسة إلى مختبر حقيقي. إن إنجاز البيرق يستغرق زمناً يمتد حتى منتصف الليل، حينما لا يسيل من الحنفيات أية نقطة ماء. الأيدي الغارقة بالمسم ستتدافع أمام علية المحارم "الكليتيكس" المصنوعة في سويسرا. غداً، سيجلب حسن الخوروفاتس (الكباب المشوي) الذي يباع على الرصيف ملفوفاً ساخناً في لافاش (الخبز الرقيق المصنوع على الصاج). كارينيه ستجهز الأطراف بالكراميل في بيتها. ونورا ستجلب الكاتو الموصى عليه.

دائماً النوع نفسه من الكاتو، مصنوع من عجينة البسكويت المطاطي بدون طعم، مغلف بكريما لا طعم لها كذلك. ويضاف إلى كل ذلك سكاكر على شكل أزهار وردية وخضراء. إنه الكاتو التقليدي الذي لا بد منه ولو في المناسبات الصغيرة. من أجل الموسيقى منجم كل ما لدينا من أشرطة التسجيل: من الفولكلور الأرمني حتى (الروك) الأمريكي مروراً ببعض الأغاني الجبلية السويسرية...

سيكون العيد جميلاً حوالي 15 شخصاً سيأتون ليحيوا الجدران الياثسة في غرفتي. روبين بصوته العريض يؤدي أغاني حبه، ثم بدون توقف ينتقل إلى أغانيه الثورية المفضلة. ليندا سترقص، وحسن، وهو رياضي متقو، سينفذ قفزة رهيبية متجنباً الكرسي الذي يُبعد ببطء من خلفه. وستجد العصابة الصغيرة في الممر مخرجاً أكثر ملاءمة لحيوياتها الملتببة. حتى الساعة الواحدة من الصباح، سنكون أسياذ الطبقة بكاملها. إذن مؤمن ومثبت بفضل حضور أرمين "حارس" الليل.

ARCHIVE في المطعم

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

21 آذار

عادت مياه الأحواض في المدينة للجريان وعادت من جديد خطوط سير أهل يريفان الذين جاؤوا للاستمتاع بالرطوبة قربها. البارحة قبض أرمين راتبه ويريد أن يحتفل حالاً.

— قبل فوات الأوان... يشرح. ومن الآن فصاعداً وفي كل شهر، سنحتفل بذلك معاً في المطعم.

— إلى أين نذهب؟

— إلى تغليس، إنه مطعم جيورجي يبعد قليلاً في مرتفعات المدينة.

وهو مطعم تعاوني نظيف جداً ومعتنى به. الطاولات الثلاث أو الأربع مشغولة بالكامل. كلا، ظلت إحداها فارغة من أجلنا. طبعاً أرمين قام بحجزها. الجو خافت قليلاً. وآلة تسجيل (أو حاكمي) قديمة تبث أغاني تقليدية، لكن أصواتها

غرقى بالكامل بإيقاعات بطارية اصطناعية. واهتماماً بمذعوبه، يلخ أرمين على وجوب سماع بعض ألحان الناي⁽²⁾.

يصل النادل، يطلب منه تشكيلة "مازا"⁽³⁾، وبشكل خاص صحناً "إنكليزياً". ويخرج أرمين من محفظته السوداء الرسمية جداً هدية من صديق إنكليزي، والمكمل الذي لا يذُ منه، الذي لا يباع في المطاعم ولا يتوصل إليه إلا عن طريق العملة الأجنبية: زجاجة الويسكي. هي ساحرة حرّرت دائماً حالات روحية في أرمين. ومع العزف الحزين والأثنين الخفيف للناي في الخلف أحسست أنا أيضاً بأن روحي تنتثر.

جلس الثلاثة رعاة أسفل الشجرة ذات القشر الكثيف والأوراق اليابسة والأغصان المكسرة. الأعشاب عالية ونادرة وبريّة. وأخرج راعيان نايًا صغيراً من جيبهما ورافقهما الثالث مع طبلته. وعلى بعد قليل، كنيسة منسية ترتعش. القبة مقننعة وأحجارها راسخة أكلتها الطحالب. وفي جهة أخرى، سيدة عجوز بغطاء رأس أسود يتدلى على كتفها جالسة على مقعد حجري عند مدخل البيت؛ ورفيقها العجوز بجانبها ينظر إليها ووجهه يستند على يده. تغزل المرأة صوفاً غامقاً وتقيس حركاتها الطويلة الموجهة إلى الكتف المنحدر لرجلها. وهناك على البعد، بقرتان رأسهما منخفضتان تدوسان الأرض بنقل وتجران وراءهما الدراسة التي يوجهها الفلاح بعضاً طويلة في يده.

أزرع أيها الزارع
ولتكن حركتك أبدية
من أجل الطاولة في منزلك
كل هذه الحبوب المتناثرة ستمطر
غداً مطرة مطهرة
على أحفادك⁽⁴⁾.

(2) ناي صوته خشن ودافئ من الآلات الأكثر شهرة في أرمينيا له شعبية جداً لدى الرعاة.

(3) مجموعة صحنون مختلفة من السلطات والخضار تقدم باردة كمقبلات.

(4) من قصيدة للشاعر تانيليل فاروجان (1884 - 1915)، مأخوذة من ديوانه "تشيد الخبز"، أشعار مترجمة من قبل فاهيه غوديل، نشر: "ما بين هلاكين" 1990.

رغبة شديدة تصعد من أصعاق ذاتي، رغبة البقاء فترة في أرمينيا القديمة هذه. وأن أعود إلى الغضار القديم في مهد تقاليدها.

— سأخذك إلى قرية تيليجان، يقول لي أرمين، لي فيها عائلة ومكان. وسوف يستقبلونك بفرح.

لقد تكلم عن "كيور" (Kiour) مقطع واحد وجرف "راء" "r" قاسية في الأخير. كلمة كاملة لتدل على "قرية" والتي تعني أيضاً "ريف" في الأرمنية. حدّ قصير جداً وصعب ليدل على الأفاق البعيدة المتموجة تحت الريح، الأراضي المزروعة أو الأراضي القاحلة وبدون حصاد، وعلى حياة الزهد والمليئة للفلاحين وتقاليدهم الغنية. "كيور" ليست بعيدة عن "كار" (الحجر) ولكنها أكثر حلاوة، كما لو أن التربة اللزجة قد صقلت زواياها. "كيور" إذا أرض ثقيلة ترن مثل آخر اتصال بالحياة. ويشكل الأرمن شعباً ينتمي إلى الأرض. سكّن أرمين. سكون ممثلي بالحنين. رغبتني بالدخول بعمق أكثر أيضاً في أرمينيا يجعله يفكر:

— لماذا يسعى كثير من الناس لمغادرة البلد؟

في الواقع حوالي 12000 أرمني غادروا خلال السنة الماضية. والحركة لا تزال في بدايتها الآن، أخذة معها في موجاتها المتعاقبة جزءاً كبيراً من القوة العاملة الحية في البلد.

— ذلك اليوم أيضاً، يتابع من افقي، قال لي طبيبياً "أرمين أنت الذي لديه اتصالات مع الخارج، ساعدني على الخروج من هنا". نفس الطلب جاءني من موسيقي. بلدنا تفرغ، من جميع المهن بدون تحديد. كارثة حقيقية. الناس لا يصبرون وليس لديهم مثابرة ولا يتبعون أي هدف وينحرفون عند وجود أقل عائق. ما يهمهم النتائج الفورية وهي الأكل جيداً واللباس الجيد والحصول على سيارة ومسجلة...

— لكن أنت يا أرمين، ماذا يقيقك هنا؟

— أسدغيك، أنا أرمني، أنا أرمني "جيد"، ومهما كان المستوى، اتحد ذاتياً مع شعبي. قدرتي أن أرتبط به. هنا موطني وليس في مكان آخر.



لقد كان شخصاً مختلفاً

« اغفري لي أمّاه لأنني كتبت عن حبيبك يبدو »

■ بقلم: سيمون سيمونيان ■

■ ترجمة: هراج كل سحاكيان ■

كان يبدو في ما مضى صديق والذي المقرب، وقد عملا معاً في الطاحونة نفسها وبلغت صداقتهما مبلغاً عظيماً. وقد اقترن والذي — بعد وفاة صديقه يبدو — بزوجته والتي أصبحت فيما بعد والدتي.

وكان يبدو لم يشأ أن يفارقنا أبداً، فبات يحتل، رغم انتقاله إلى الرفيق الأعلى، مكانه أعظم من السابق في حياتنا، وأصبح الزوج والأب والصديق معاً... لكنه لم يكن أكثر من عدو لدود في نظر والدي، الذي رغم ما كان يكنه له في الماضي من مشاعر ودية، بات الآن الوحيد الذي لا يشعر بالارتياح كلما ذكر اسم يبدو. أما عداوته هذه تجاهه فهي تعود إلى اليوم الأول منذ أن ووري جثمانه الثرى.

أتذكر بكل وضوح، وكنت وقتئذ طفلاً صغيراً، كيف شبح يبدو كان يخيم على منزلنا كلما حدث سوء تفاهم بين والدي وكأنه المتسبب الوحيد لكل أزماتنا. لقد كان تأثيره غريباً، ونفوذه عميقاً وخاصة بعد موته، حاله في ذلك حال القديسين والأبطال، الذين عادة ما يسجلون أعمالهم الجليلة بعد وفاتهم ونادراً ما قبلها.

ولم يكن يبدو بطبيعة الحال قديماً مبعجلاً أو بطلاً خارقاً، وإنما كان مجرد واحد من أهالي منطقة صاصون الأرمنية وبالتحديد من قرية دالفوريك الشهيرة. وكان ابناً لأحد الحدادين العاملين في مناجم الحديد في المنطقة. لقد اجتث والد يبدو عروق الحديد من صلب الصخر وجمعها وصيرها وصنع منها المعاول والمحافر ومختلف القضبان، كما سخرها في إصلاح البنادق العتيقة، التي حارب بها وأخوته وأبناء القرية الآخرون المعتدين الأجانب، فنسجت الأنشيد التي تتغنى ببطولاتهم.

بعد أن بلغ يبدو العشرين ربيعاً من عمره غادر صاصون واستقر بعض الوقت في منطقة واقعة غرب الرافدين، حيث عمل في عدة طواحين ثم استقر في مدينة عنخاب، كالعديد من أهالي صاصون في تلك الحقبة. هناك تعرف على والدتي وتزوجها وكانت لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها بينما كان هو في الخامسة والعشرين.

لقد كان يبدو شاباً وسيماً جسوراً، استحوذ على إعجاب والدتي وحرک مشاعرها الرقيقة ولكنه توفي بعد سبع سنين من العشرة الزوجية دون أن يخلف ابناً أو ابنة.

كنت أتحين الفرصة دائماً لأسألها بروح مشاكسة: أماء، هل كان يبدو فعلاً وسيماً؟ فكانت ترد علي تساؤلي: بل أكثر الناس وسامة، له هذبان سوداوان وشارب كث وقامة مديدة ووجه بشوش وهندام راقٍ مثل هندام الأغوات وأناقة طاغية. كان أكثر سكان البلدة وسامة على الإطلاق، وكنت موضع حسد النسوة جميعاً.

ولكي تثبت ما أقول، كانت والدتي تهرع إلى صندوق جهازها العتيق، الذي بالرغم من اهترائه، كان دليلاً ملموساً على أيام سعيدة ماضية، فتقوم بفك قفله وتهبدي إلى رزمة من الصور المطمورة بين الملابس البالية، تسحب من بينها صورة الزفاف، فتأمل يبدو... حبيبها يبدو.

كانت القصص التي ترويها والدتي عن يبدو والوسامة التي كان يتمتع بها تملأ قلبي إعجاباً وافتتاناً بهذا الرجل، الذي لم يكن والدي وإنما زوج والدتي. ولكي تزيد والدتي من حدة انطباعي عنه كانت تستمرل في السرد:

— هذه الصورة تنتقص كثيراً من جمال يبدو وعنفوانه. لقد التقطت له هذه الصورة بغتة دون سابق تحضير، إذ كان عائداً لتوّه من عمله في الطاحونة ولا تزال آثار الدقيق عالقة على ثيابه وتغطي أطراف وجهه. كان الجيران يلتقطون صورة عائلية لهم فلما رأوه أصرّوا على أن يلتقطوا له أيضاً صورة تذكارية، لذلك لم تسنح له الفرصة لتبديل ملابس العمل.

وكان علي أن أتخيل مظهر يبدو من دون بياض الدقيق الذي يلفه، فتبدو لي سحنته أكثر قتامة وشواربه أشد اسوداداً.

كانت عينا والدتي تلمعان كلما تطرق الحديث إلى يبدو ولا تلبث أن تنهمر الدموع منهما مثل حبات الرمان. وكان يحدث أحياناً أن يفاجئنا والذي يدخل الدار دون سابق إنذار أمام الاستعراض الموفر لتلك الصور، فكانت والدتي تلملم الصور دون أن تكفكف الدمع وتعيدها إلى مغلفها القديم تحفظها بعيداً عن الأنظار، أما والسدي فكان يلجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة يقع فيها صامتاً حزناً، يلع دخان سيجارته ويستغرق في كتابته عدة أسابيع، لا يتجاذب خلالها أطراف الحديث مع والدتي على الإطلاق.

وهكذا كان هذا الإنسان الغائب (بيدو) يمضي في زرع بذور الشقاق بين والدتي وكانت روحه الطفولية تمتلئ بمشاعر مبهمة حبال حزن والذي ودموع والدتي وإزاء هذا الوجود المحير للإنسان الذي من المفترض أن يكون في عداد الأموات.

عندما كان والذي يتغيّب عن الدار أشهراً طويلة بدواعي العمل في الطواحين الموجودة في القرى البعيدة، كانت والدتي تجلس معنا قرب المدفأة في ليالي الشتاء الطويلة وتسرّد علينا قصصاً عن حبيبها يبدو، مستغلة غياب الذي، فنستمع — نحن أبناء زوجها الآخر — إلى حكاياتها بإعجاب واندهاش، بينما تغوص هي في بحر ذكرياتها القديمة.

— كان وسيماً مقدماً، كانت تقول، عندما جاء طالباً يدي للزواج، لم يسرع في الدخول إلينا دارنا مباشرة، بل تريث ملياً في الفناء الخارجي ونظر حوله وتفحص موقع الدار قبل أن يهّم بالدخول.

— ولماذا فعل ذلك يا أماء؟ — نتساءل نحن بسذاجة.

— كي يحدّد المصادق المناسبة لتنفيذ خطة اختطافي في حال جوبه طلبه بالرفض، تجيب بتعال وتستطرد: ولكن والدي قرر بعد تردد ومماثلة الموافقة على الزواج.

جرت مراسم الزواج بعد فترة وجيزة من الخطوبة، سنحت خلالها للخطيبين رؤية بعضها البعض مرة واحدة فقط، وعاشا بعد الزواج حياة سعيدة، وكان بيدو يكسب قوته من عرق جبينه ويشرف على أعمال مطحنتين، يشارك مكاسب إحداها مع والدي فكانا مثل أخوين ودودين مقربين.

كانت دار بيدو أشبه بنزل صغير يقصده أبناء صاصون القادمون من الريف إلى المدينة، يجدون راحتهم فيه قبل أن يمضوا إلى أعمالهم التي جازوا من أجلها، وقد وجد العديد من أقاربه المأوى المؤقت في تلك الدار، إذ كان بيدو كريماً يغمسهم بسخائه. وفي المقهى كانوا يتحلقون حوله، يشربون نخبه ويتطرقون إلى أحوال الوطن وفي آخر الليل يغادرون المقهى دون أن يجرؤ أحدهم على مد يده إلى جيبه بحضور بيدو.

وتتابع والدتي قصتها:

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

— لقد كان رجلاً غريباً حقاً. ففي ليالي الشتاء القارسة وتحت تهديد انهيار السلولج وهبوب العواصف العاتية كان يترك المطحنة ويقطع مسافة تزيد على الأربع ساعات مشياً على الأقدام في مثل تلك الأجواء الزهية ليصل إلى البيت ليحفل بمؤانستي.

وعندما كانت تقول "البيت" كانت والدتي تقصد نفسها. فقد كانت هي مبعث فرحه وسعادته، وبفضلها كان يمكن له أن يغير السلولج والعواصف. هكذا عاشا معاً سبع سنوات رغيدة. وكان الأمر الوحيد الذي يوزق بالهما هو عدم الإنجاب. كانت والدتي تترر لنا ذلك بالقول إن الناس الأشداء، من أمثال بيدو، يبقون دون خلف. ولم تتمكن الوسائل العلاجية الطبية منها والسحرية التي استعان بها أن تمنحهما بهجة الإنجاب، ولا تزال والدتي مقتنعة إلى يومنا هذا بأنها كانت ستجب منه طفلاً ولو بعد حين.

وكانت تختتم عادة قصتها بالقول:

— كانت تلك سنين رائعة لا تعوّض. في ذلك العام جاء إلينا العديد من أهالي صاصون، رغم أن الأوضاع لم تشهد أي حرب أو مجزرة. وكان ذلك قبل الحرب الكبرى بسنتين. جاء خمسة أو ستة من أقارب بيدو وكلهم في حالة مزرية، فكان قلبه ينفطر لرؤيتهم، فينفق عليهم المال الكثير. وذات يوم مضى كالعادة للعمل في المطحنة ولكن في ظهيرة اليوم التالي تناهت إلى مسامعي أصوات الزعيق والبكاء من الخارج، فمددت رأسي من النافذة ورأيت الرجال يحملون بيدو على أكتافهم وكان قد فارق الحياة فجأة في المطحنة.

أعدت له جنازة مهيبه، شارك فيها أقرباؤه المهاجرون من أهالي صاصون، وكان والدي، صديق بيدو، أكثر الناس تأثراً بما حدث، فبكي بحرقة على فراقه، كما تشهد بذلك والدتي "كان يرتمي على كومة الحجارة التي غطت قبره وينتحب بألم راثياً لصديقه العزيز".

لم تنقهر منزلة بيدو عند والدتي مع مرور الأيام ولم تنحصر عنها مظاهر الحداد ولم تتبدل جراحتها النازفة بمرور الزمن، فبات الشيء الوحيد الذي يملأ حياتها زيارة قبر بيدو.

— كنت أقصد المقبرة حتى في أيام الشتاء الباردة. أتذكر جيداً... لقد كان يوم عيد القديس فارتان، وكان لابد لي من أن أذهب إلى المقبرة في ذلك اليوم. كانت الليلة السابقة ماطرة وأرادت والدتي مرافقتي إلى المقبرة، التي لم يكن يحيطها سور أو يحميها حارس، في حين كان خطر الذئاب الشاردة محدقاً... كنا نتقدم بين الأضرحة بحذر شديد وفي لحظة من اللحظات تخلفت والدتي في السير وأصبحت أنا وحيدة في المقدمة وترأى لي بأن الأضرحة المغتصبة بمطر الليل قد بدأت تسترزع وخرج منها أناس كثر في لمح البصر، ورأيت بيدو يتصدر صفوفهم ويسد الطريق أمامي وكان يرتدي الثياب نفسها التي دفن بها، فتجمدت أوصالي. كان هو نفسه، لا أحد غيره، حق في وصاح قاتلاً:

— عودي من حيث أتيت ولا تجيني إلى هنا ثانية...

أدركتني والدتي واستغربت عندما وجدنتي جامدة لا أنطق بكلمة، فضغطت

■ لقد كان شهماً مثلاً ■

على عضدها وطلبت منها أن تعود أدرجنا، ولم تصدقني لأننا لم نكن قد وصلنا بعد إلى قبر بيدو...

هكذا، في يوم عيد القديس فارتان، في المقبرة الصامتة وبين الأضرحة الرطبة وعلى مرأى من الذئاب المتربصة، ظهر بيدو بثيابه المعهودة وأجبرها على العودة، وأصبح ذلك اليوم يوماً مصيرياً بالنسبة لها وبدأت تشغل نفسها بالحياسة. ومكثنا السداء الآتسي من العالم الآخر وحده من الخروج من عالم الأحزان. وبعد عام من العمل الدؤوب جمعت والدتي ما يكفي من المال لبناء ضريح جديد لحبيبها بيدو، ولم تتوار ذكرى بيدو تحت ثقل هذا الضريح الحجري بل بقيت حية نضرة في مخيلة والدتي.

مضت سنة أخرى... أبدي والذي رغبته في الاقتران بها، فتزوجا وطفح المنزل في بضع سنين بالأطفال انشغلت والدتي بواجباتها المنزلية ولم تتخل عن بيدو أبداً. أمضت السنوات المنصرمة نوعاً من القدسية على ذكراه، التي عششت في قلبها وتبوءت فيه مكانة فريدة. لقد رثت أبناءها مفطوريين على ذكراه، إذ كانت مقتنعة تمام الاقتناع بأننا كنا أبناء بيدو المتوفي وأن هذا الأخير قد تجلى لها في كل ليلة حبلت فيها بأحد أطفالها وكأنه الروح القدس.

أوصت والدتي بأن تدفن بعد موتها بجوار قبر بيدو، إلا أن ظروف الحرب والتهجير جاءت لتحول دون تنفيذ رغبته تلك. لكنها اتخذت قراراً آخر، لا يمنع تنفيذه أي عائق، لا حرب ولا تهجير ولا أي مانع دنيوي آخر. لقد قررت أن تحيا معه عندما سيحين الوقت للانتقال إلى العالم الآخر. وكان والذي على علم بهذا الاختيار، فكان مكتباً يدرك بأن طلاقاً لا مناص منه ينتظره في العالم الآخر.

دفعني تفصيل والدتي بيدو مراراً إلى التفكير في هذا الموضوع وكنت أميل إلى الاعتقاد بأن الحب الأول الذي عاشته والدتي بشخص بيدو وواسمته وجسارته وسعادة أيام الصبا التي يصعب تعويضها، كانت كلها عوامل دفعت إلى رجحان كفة بيدو في هذه المعادلة الصعبة ولكن والدتي لم تكن لتقرر أبداً، خلال استفساراتي الفضولية المتكررة، بأن قناعاتها بخصوص بيدو مبنية على أي من الأسباب التي أتييت على ذكرها وكانت تكتفي بالتعليل:

— لقد كان شخصاً مختلفاً...

ولا تنكر والدتي بأن والدي — أي زوجها الثاني — نقي، ورع، طيب الخلق، لبق التصرف، ولكن جميع محاسنه وميزاته تلك لم تصمد أمام جبروت هذا الإنسان المتوفى منذ زمن. وكان هذا الولاء لذكرى حبيبها السابق يحزّ في نفس والدي ويسبب له الألم الشديد، محولاً بيدو بعد وفاته، ورغماً عن والدي، إلى أحد أعزى أعدائه بعد أن كان فيما مضى من أعز أصدقائه، عدو لا يمكن لوالدي أن يجاريه رغم أنه هو الحيّ الذي يرزق أما الآخر فمن المفترض أنه غائب ميت.

أما نحن الأطفال فقد اتخذنا مواقف متناقضة تجاه هذين الأبوين. ففي طفولتنا السبكرة أحببنا بعمق شخصية بيدو من خلال روايات والدتنا. أما فيما بعد، أي عندما تقدم بنا العمر، استطعنا أن نستشف كآبة والدنا وتأثرنا من حالته وبتنا نناصره ضد غريمه الأسطوري، الذي كان يتدخله الآتية من العالم الآخر بسبب له الشقاء. وأثمرت انتقاداتنا المتكررة لشخصية بيدو ببعض الفنتاج الحسنة في الفترة الأولى وكنا نجادل والدتنا:

— ماذا تفعلين؟ البقاء وحيدة مع بيدو أم العيش معنا ومع والدنا؟

فكانت تصمت عند سماع هذا، وحكنا رجحت كفة والدي وقويت شوكته بحججنا القوية وبدأت ذكرى بيدو تضمحل ولكن بيدو أنه لم يفقد عرشه في قلب والدتي، فكانت ترجع إلى صندوقها القديم بين الفينة والأخرى وتداعب بأناملها رزمة الصور الباهتة وتتمتم:

— لقد كان شخصاً مختلفاً...

ثم عندما بلغنا سن الرشد انكفأنا عن نصرة أي من الطرفين وبدأت فترة حيادنا، الذي أفسح المجال أمام بيدو كي يعيد زيارته الخاطفة ويستمر في خطب وذ والدتنا، لكننا كنا نقف له بالمرصاد ونمتنع عن قبول أي نوع من الإطراء الموجه إليه على حساب والدنا.

وستبقى هنالك مرحلة أخيرة في هذه الحكاية وهي التي ستطلق في العالم الآخر ونحن متأكدون بأن والدتنا ستضم هناك إلى حبيبها الأبدى الذي ما يرح ينتظرها بفارغ الصبر، بينما سبقى نحن مع والدنا وسنشهد حكاية حب متجددة بين والدتنا الهرمة وبيدو وسنستقبل كل هذا بابتسامة عذبة، بينما ستغمر الكآبة

■ لقد كان شيئاً مختلفاً ■

والدنيا التعميس، ونحن على يقين بأن والدتنا لن تحتمل الفراق عنا وستعود إلى أطفالها دون أن تفكر، في الوقت نفسه، في ترك بيدو، وقد تقترح علينا بأن ينضم بيدو إلينا لتأليف عائلة ثلاثية، مثلما يفعل الفرنسيون، لكن والدي، الذي لا يحيد عادات الأجانب، سيرفض رفضاً قاطعاً حتى فكرة التواجد الروحي لغريمه بيننا، كما من المرجح أن نرفض نحن أيضاً هذا الاقتراح لعدم تعودنا عليه في عالمنا الدنيوي. أخيراً وفي سبيل حبنا، سنتخلى والدتي عنه وستأتي إلينا وهكذا سنبنى هناك أيضاً، في العالم الآخر، عشنا هذا... أما بيدو، يبدو المسكين، فسيبقى وحيداً كمعادته.

• • •

أكتب هذه الكلمات خلال عطلة مطولة وتتناهى إلى مسامع والدتي بأنني أدون شيئاً عن أهل صاصون، وما أن أشرع في الكتابة عن حبيبها بيدو حتى تدنو والدتي العجوز مني وتهمس:

— بنسي... إياك أن تكتب شيئاً عن بيدو، إنه لا يشبه أحداً من أولئك الذين عرفتهم في حياتك. لقد كان شخصاً مختلفاً...

أماه، لقد كتبت عن حبيبك بيدو.

□□

إنه أمر الله

■ ترجمة: مهران مینسیان ■

تأليف: سيمون سيمونيان⁽¹⁾

عندما رُزق أرتمين الطويل ببنت للمرة السابعة ولم يحاول أن يقتل نفسه ولا أن يقتل زوجته، غمر الشك الحقيقي لحظة جميع مواطنيه حول كونه صاصونياً أصيلاً. فقد أعاد جميع الصواصنة المعمرين النظر في نسيبه، وبعد دراسة مستفيضة، وبدهشة كبيرة وصلوا إلى نتيجة حتمية وهي أنه صاصونتي أصيل، من قرية بيلاف في صاصون، وأنه حفيد سبط كينكو الشهير الذي كان قد قُتل بها بصفعة واحدة قبل قرن من الزمان، وأنه شرب مياه الوطن الجبلية الخالدة، واستنشق فواءع البارد، وداست رجلاه صخور الوطن وتربسته الطيبة، وأنه في القرية أيضاً عاش كصاصونتي حقيقي، وأنه أحب الخيول الأصيلة، وعمل طحناً فقط، وحافظ على شرفه عالياً، أي حافظ على شأربه الطويل جداً، الموجود على جسمه النحيل والطويل جداً.

⁽¹⁾ أديب أرمني معاصر ولد في مدينة عينتاب في العام 1913 من عائلة مهاجرة من منطقة صاصون في أرمينية. بعد المجازر الأرمنية في تركيا العام 1915 التجأ وعائلته إلى حلب حيث تلقى فيها تعليمه الابتدائي الذي أكمله في ما بعد في أنطلياس (بيروت)، ثم عاد إلى حلب وعمل في التدريس مدة، أسس مجلة أدبية وعمل في مجال الأدب ونشر العديد من المقالات والدراسات التاريخية، انتقل بعدها إلى بيروت وعاش فيها إلى أن وافته المنية في العام 1986.

في بيروت أيضاً عمل سيمونيان في مجال الأدب، فأسس جريدة أدبية أسبوعية ورأس تحريرها لفترة طويلة (1958 — 1975)، وأسس كذلك مطبعة نشرت مئات الكتب القيمة، إلى جانب رواياته ومجموعاته القصصية الحديثة التي تقتطف من إحداها هذه القصة الواقعية المأخوذة من حياة الصواصنة (نسبة إلى سكان منطقة صاصون في أرمينية) في حلب وهم المعروفون فيها بعملهم الشاق في الأفران والطواحين، حيث كان أغلب فرأئي المدينة منهم في بداية القرن العشرين، حتى أن اسم "الصوصائي" كان يعني "القرّان" عند أهل حلب.

ولكن بعد كل هذه البراهين الثابتة، بقي مواطنوه المعمرون مذهوشين من أن أرئين الطويل إن لم يقتل لا نفسه ولا زوجته، فإنه على الأقل لم يقص شاربه الطويل أيضاً، أو لم يهرب إلى الطاحون من الأكم والخجل، كي يسجن نفسه هناك طواعية سنة كاملة فلا يرى الوجوه اللاذعة لمواطنيه الذين كانوا يملكون أولاداً ذكوراً، بل بقي في البيت ودخن سيجارته، وتأمل طويلاً وجه مولودته، وجه ابنته السابعة...

• • •

عند كانت زوجته تتألم في مخاض ابنتها السابعة، كان أرئين الطويل قد صعد إلى السطح وانحنى تحت جداره وصار يدخن سيجارته الغليظة بانفعال شديد وهو يراقب غروب الشمس ويسحب السحبة بأصابعه المضطربة، وكان "فريق" من بناته قد صعد إلى السطح أيضاً، فأحداهن كانت تنسج، والأخرى تغني، أما الثالثة، زاروهي، فكانت تتعلم أغنية "ولادة فاماكن"، وكانت قد حفظت الأبيات الثلاثة الأولى:

كانت السماء والأرض في مخاض،
وكان البحر الأحمر في مخاض أيضاً،
وكان القصب الأحمر أيضاً له حصة من مخاض البحر*.

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

كان أرئين الطويل يتابع النظر إلى الغروب الأحمر بعينين نصف مغلقتين. هاء، إن الشمس تغيب، وبعد قليل سيولد طفل... ("كانت السماء والأرض في مخاض"). كان قلبه في أزمة شديدة وكان ألم الرزق بينت سابعة والبقاء أباً لسبع بنات فقط يحط على قلبه كالرصاص وكاد أن يحبس أنفاسه، وكان القلق يرمي بروحه من واد إلى واد، كشجرة مقتلعة من جذورها من جراء السيول الغزيرة التي شكلتها مياه جبال الوطن العالية. إن عائلته الموعلة في القدم ستقرض نهائياً بدون صبي، كهنر صغير يسير في بادية واسعة. إن سراج بيته سينطفئ وبناته المسبعة سيعلن سراج بيوت غريبة ومسيقين عاجزات عن نقل اسم عائلة والدهن من جيل إلى جيل. إن كيان أرئين الطويل الذي كان قد تعرض للاختبار ست مرات فيما مضى، هاهو يتعرض للاختبار السابع والأخير. مع البنت السابعة كان سيتحول إلى ميت — حي، إلى كائن بدون خلف في الكون الواسع، سيتحول إلى رجل بلا ثمرة، حتى أن العيش بالنسبة إليه سيكون بداية موت بلا نهاية...

... كانت آخر شعاعات الشمس قد انسحبت كاشواك القنفذ، والظلام أسدل ستاره على المدينة، وكانت أضواء البيوت قد أشعلت، وكانت تصل إلى أذني أرتين الطويل من الأسفل، من بيته المغلق بإحكام أهات زوجته التي كانت في مخاض شديد منذ ست ساعات. لقد غمرته سعادة خاصة عندما تذكر قول أمه المتوفاة منذ أمد طويل بأن الذكور يولدون بصعوبة... تابع سحب سبخته التي كان رنين صوتها الناعم يسكن ألمه الناتج عن عدم الصبر. كانت ابنته زاروهي قد حفظت درسها، لأنها كانت على السطح المظلم للبيت تردد الأسطر الأخيرة لأغنية "ولادة فهاكن":

"... وكان له ذقن من اللهب،

وكانت عيناه شمساً".

نزلت بنات أرتين الطويل إلى الأسفل الواحدة تلو الأخرى ودخلن بيت جارتهم، لأن دخولهن إلى غرفتين الوحيدة في دارهن كان ممنوعاً منعاً باتاً... بقي أرتين الطويل وحيداً على السطح وحنق بنظره إلى النجوم الساطعة والقمر الذي كان يطل من الأفق يضيء أحد طرفيه بهدوء. كان أرتين الطويل يسحب سبخته بلا انقطاع، وكان ينجم في ذهنه حسب حبات السبحة وهو يجرب حظه، وغالباً ما كان يحصل على نتيجة حزينة، إلا وهي أنه سيكون أباً لبنت... حينئذ كان أرتين المسكين يهتز ويطلب الرحمة من الله رافعاً عينيه إلى الأعلى، كي يسلمه من تعاسة الرزق بيئت للمرة السابعة. توقف عن سحب سبخته كي لا يحصل على تنبؤ سيئ من جديد. سارت نشوة دافئة في جسمه غمرته بنشاط خاص بالشباب، أغلقت عيناه بهدوء وظهر أمام خياله "وليد الجديد". آه، كم سيحبّه وينقل جميع بركاته إليه عن طريق قبلات دافئة، ويحبّه اللاهب هذا كان سيعطيه نمو أسبوع كامل خلال يوم واحد. لقد جلب الحلم الجميل كنبذ طيب خدراً ومن ثمّ نوماً إلى جسم أرتين الطويل المتعب من الانتظار.

عندما استيقظ من نومه كانت الأصوات الآتية من الأسفل قد انقطعت، وكانت أهات المخاض قد سكنت، إذًا، فالولادة قد تمت، وبما أنه لم تخرج أية امرأة إلى السطح لتهنئته، إذًا، كان واضحاً بأن المولودة هي بنت... قلق أرتين الطويل كمن يسمع حكم إعدامه. قام من مكانه متمائلاً وهبط الدرجات بصعوبة، مرّ من أمام باب بيته المغلق الذي كان يُسمع منه ضجيج النسوة وحديثهن ودخل بيت جاره،

حيث كانت بناته الست وأصحاب البيت جالسين بسكوت وحزن مكتوم. ذهب أرتين الطويل وجلس على مقعد فارغ، أشعل سيجارة ودخن بملء رئتيه وصار يسحب حبات سبخته. تكلمت جارتته كي تقطع السكوت الذي كان يضغط على الجو ولكي تفهمه الحدث المحزن بلباقة، قالت:

— يا عم أرتين، إن البنات الصالحة أفضل من ولد شرير.

لم يجابها أرتين الطويل، بل قال في سره الولد الصالح يسوي أكثر من سبع بنات. نظرت بنات أرتين الطويل إلى والدهن الحزين يعيون كأنها مذنبه. كان سكوته يضغط عليهن. ساد السكوت من جديد. وفجأة انفجرت الصرخات القوية لزوجته والتي كانت أعلى من صرخات المخاض. ركضت الجارة أيضاً إلى غرفة الولادة. كانت زوجة أرتين الطويل تريد الانتحار وكانت تلقي بنفسها من السرير... كانت الصرخات تمتد بلا نهاية وبأعلى درجاتها، وكانت المرأة المغلوبة على أمرها تريد من قلبها واضطرابها كي تقلل بالمقابل وتخلق في بحر ألمها آلام زوجها. باتت صرخاتها أكثر عصبية رويداً رويداً إلى أن أغشى عليها وسقطت نقطة مميّنة. اصفرّ وجهها ضارباً إلى الأخضرار، وغمر العرق الغزير جسمها وكأن أجنحة الموت تحركت بحزن. استطاع البصل والليمون والتمشيد السريع، وبصعوبة بالغة، إعادة المرأة اليانسة إلى ما كانت عليه. أمرت المرأة الأكبر سناً بفتح نافذتين كي يخلصوا على كمية أكبر من الهواء البارد. لقد غمرت النسوة المجتمعات زوجة أرتين الطويل بالنصائح المختلفة، والتي أجهت تعاستها بدلاً من أن تعزيها.

عادت الجارة بقلق ونظرت إلى أرتين الطويل الذي كان مازال يدخن ويسحب سبخته بصمت، وكأنه كان في سكوته يطلق أصواتاً أعلى من صرخات زوجته قبل أن يغمي عليها، وكانت أعين بناته الست قد تبلّلت بشكل واضح من صرخات أمهن وإغمائها ومن سكوت والدهن الشرس.

بعد قليل، عندما كانت الساعة تقترب من العاشرة، دخل مارديك، الابن البكر لجارتته الذي كان يعود من اجتماع وهو يحمل تحت إبطه مجموعة من الصحف والمجلات الملفوفة بعضها على بعض، وهو يحمل في رأسه تربية أعلى من الوسط بقليل وكمية قليلة من العرق، أما على شفثيه فصفارة وأغنية خاصة بأرمينية. كان مارديك شاباً ظريفاً، وكان أرتين الطويل يحبه بسبب طبيعته السعيدة

ولأنه كان يعطيه معلومات عن أرمينية. خلال لحظات استطاع ماردك معرفة ما حصل وأراد التخفيف من ألم أرتين الطويل، فألقى الصحف والمجلات أمام البنات كي يتسلىن بها وينسين تعاستهن التي لا تنسى، أما هو فالتفت إلى أرتين الطويل وسأله:

— عم أرتين؟

— نعم، قالها أرتين الطويل.

تشجع ماردك، لأنه استطاع خطف كلمة من ذلك السكوت المتحجر، وكان تلك الكلمة الوحيدة التي خطفها منه كانت بمثابة إعادة الاستشاق المفاجئ لرجل ميت، فأرتين الطويل، ذلك الرجل ميت نفسياً، هادئ عاد إلى الحياة. تابع ماردك حديثه:

— كم عمرك، يا عم أرتين؟

— خمسون.

— هل سجت اسمك لتهاجر إلى أرمينية؟

— نعم.

— مازلت شاباً. عدّ تذهب إلى الوطن، وهناك أيضاً ترزق بسبعة أولاد، وهذه المرة ترزق بسبعة شبان. لا تيأس، إن هواء وماء أرمينية مختلفان. إن هواء هذا البلد لا يناسبك.

ضحكت "قرقة" مؤلفة من ثلاث فتيات من بنات أرتين الطويل من كلام ماردك هذا، أما الثلاث الباقيات فتابعن تصفح المجلة والنظر إلى صورها.

أما أرتين الطويل فلم يضحك ولم يغضب، بل سكت وانكفاً على نفسه. وحبّات السّبعة ارتفعت مرّات عديدة في يده بسرعة وهبطت بصوت جميل. سأل ماردك كي يبدّد الصمت ثانية:

— أليس كذلك، يا عم أرتين؟

— إن مياه الوطن مختلفة، قالها أرتين الطويل، إن مياه الوطن مياه مذكّرة، أما مياه هذا البلد ففيها نفس امرأة...

ضحك ماردك، ولكي يبت الحماس في نفس أرتين الطويل، خطب بإيمان:

— في بلدنا، يا عم أرتين، ليس هناك فرق بين الشبان والبنات، فالبنات أيضاً

يعملن كالشبان ويعنسن بأهلن كالشبان، البنات بطلات كالشبان، انتظر قليلاً لأريك، والتفت إلى بنات أرتين اطويل وقال:

— أيتها الفتيات، ناولنني تلك المجلات /دعن والدكن يرَ هذه الصور..

انفتحت صفحات مجلة كبيرة آتية من أرمينية، وبنات أرتين الطويل بدأن بالسرد بحزن أرمني:

— بابا، هذه الفتاة هي مديرة هذا المصنع.

— بابا، هؤلاء الفتيات يحصنن الزرع بالآلات.

— بابا، هؤلاء الفتيات يجمعن القطن.

— بابا، هذه الفتاة تقود طائرة.

— بابا، هذه المرأة وزيرة..

نقلبت الصفحات، واستمرت الفتيات في صنع أشياء كثيرة في أرمينية، سيطرن على الأرض والماء، وكذلك على الآلات والقلوب، لكنهن لم يستطعن تحويل البنات السابعة لأرتين الطويل إلى ولد.

انتهت الصفحات. ارتسمت ابتسامة هادئة على وجه أرتين الطويل، فتشجعت الفتيات وعزين والدهن:

— لا تفكرين بنا بابا، إنني سأجلب لك المنجائر إلى آخر عمرك، قالتها البنت الكبيرة التي كانت تعمل في معمل السجائر، والتي كان من حقها الحصول على السجائر من المعمل بأسعار مخفضة إلى جانب راتبها الصغير.

— بابا، إنني سأجلب لك الجوارب دائماً، قالتها الثانية التي كانت تعمل في معمل للجوارب.

— بابا، قالتها الطالبة زاروهي، البنت الثالثة، إنني سأكبر وسأربح أكثر من الرجال كلهم ولن أتركك بلا معين، وأما إذا ذهبنا إلى أرمينية، فإني سأجعلك تعيش مثل رجل له سبعة شبان.

التفت الفتاة الرابعة إلى والدها وجلست الخامسة في حضنه، أما السادسة فاقتربت منه زاحفة وقالت:

— با..با.

ذاب الجليد المتمركز في قلب أرتين الطويل، ودفت مياه ذلك الجليد وجلبت معها الحب لروح أرتين الطويل المتألّمة.

فرح مارديك من كلّ قلبه.

كان الليل قد تقدّم، وكان عويل الكلاب يمتد في الظلام.

باركت الجارة ابنها مارديك في ذهنها.

كان بيت أرتين الطويل قد فرغ من النساء، وكان على الجميع أن يناموا. حصل أرتين الطويل بناته الست وانسحب إلى بيته. كانت زوجته تنام نوماً عميقاً، نوماً خاصاً باللواتسي يضمن أطفالاً، بعد الألام الطويلة للمخاض. كانت حماته العجوز تدور في البيت لترتب أشياء كثيرة. بدأت الفتيات الكبار بمساعدة جدّتهن: مُدّت الأسرّة على الأرض، والصغيرات نمن بسرعة، ومن ثم الكبيرات لكي ينسبن في نومهن الأكم الكبير الآتي من كونهن قد ولدن بناتاً.

أشعل أرتين الطويل سيكارة جديدة وهو واقف وظهره للجدار ونظر إلى الوجه المتألّم لزوجته من خلال الدخان المتصاعد، وقال لنفسه:

— مسكينة.

بعد قليل نامت حماته أيضاً.

لم يبق يقظاً إلا أرتين الطويل الذي كان النوم بعيداً عن عينيه بعض الشيء تلك الليلة، في غرفة واحدة كنّ ينمن تسعة أشخاص وكلّهم من نسل حواء: حماة وابنتها وسبع حفيدات. في ذلك الحشد "النسائي" أحس أرتين الطويل بألم لا يوصف وليس بالإمكان التكلّم عنه، ربّما كان ذلك الأكم الذي تفوح منه رائحة الموت والذي سيُجلب إليه الإحساس المظلم بزوال نسله. غاص أرتين الطويل في تأملات، وفجأة استيقظت المولودة الجديدة، ابنته السابعة، وببكاها الهادئ والعذب أوقفت تأملات والدها، تأملات أب متحسّر على ولادة ابنته. قال أرتين الطويل بعد سماعه البكاء الذي كان له دوي حبات سُبْحته:

— بنت الكلب...

تابعت المولودة بكاءها اللاعنتاهي.

اعتادت أُنسا أرتين الطويل بسرعة على صوت ذلك البكاء، مثلما كانتا قد

اعتادنا سابقاً على الضجيج الدائم للطاحون.

غرق أرتين الطويل ثانية في التأملات، التي نمت فيه بقوة وأجبرت الأصوات الناعمة ليكاء طفله على السكوت.

تذكر أرتين الطويل ولادة بناته. عندما ولدت ابنته الأولى قال: مازلت شاباً. عند ولادة الثانية قال: إن الله يعطينا، أي أراد أن يقول بأنه في المرة الثالثة سيرزق ابناً.

وحقاً، رزق أرتين الطويل ابناً في المرة الثالثة، فغمره بحب عميق وبحنان لا نهائي. فغطوا سريره بغطاء من الحرير وعلقوا على صدره صليبا ذهبيا، أما زوجته فقد علقت خرزة زرقاء على كتفه كي لا يصاب بالعين، وعندما عمدوه فاض العرق وتخلصت رقصات وأغنيات صاصون من صدورها، لكن الموت قرر أن يأخذ ذلك الوليد بعد ستة أشهر بقي حب أرتين الطويل وحنانه عاجزين أمامه. لم يلبس أرتين الطويل، لكنه في المرة التالية رزق بنتاً من جديد ومن قلقة هرب إلى الطاحون ولم يعد إلى البيت إلا بعد ستة أشهر، وعند الخامسة هرب سنة كاملة، وأخيراً، عند ولادة السابعة شرب العرق وشهر خنجره كي يقتل زوجته.

تذكر أرتين الطويل بعد ذلك كم صلى جينز واستغاث بالقديس كارابيد، قديس مدينة موش، كي يرزق بابن بعد ست بنات...، وهاهو يرزق ببنت من جديد. كانت روحه الجبيلة تكره البنات اللواتي هن أخصب مكان لأعمال الشيطان. كان يكره "بنات حلب"، يكره زينته المصطنعة وسلوكهن الجري والحر، وبالرغم من عداوته الشديد لهن كان يغمر بالفتيات. كان اسم عائلته سيذوب، وكان يفكر أيضاً في كيفية تزويجهن... فمن الصعب أن يستطيع تحضير الجهاز لهن، هو الوحيد، وأما الذين يأكلون فهم تسعة أشخاص، ولهذا السبب كان قد اضطر، ورغماً عنه، إلى إرسال اثنتين منهن إلى العمل، إحداهما في معمل السجائر والثانية في معمل الجوارب.

كان قد قرر بأنه لو رزق ببنت سابعة سيقتل نفسه أو زوجته، كما كان معارفه من الصواصنة يعتقدون ذلك، لكن كلام ماريك وصور المجلة الآتية من أرمينية شجعا ومنحا الأمان. في أرمينية بناته سيعملن بطريقة شريفة ولن يذبلن

ففي البيت بسبب فقرهن، الشيء الذي كان سيحدث هنا، في المهجر. فالحجرة إلى أرمينية ستقذه من المشاكل المادية.

لكن يبقى ألمه الأكبر، الألم الذي لن يزول: الألم الآتي من عدم رزقه بولده. آه، باين وحيد كانت البداية الصفراء لحياته ستزهر واحة خضراء، واسم عائلته القديمة سيلمع كسراج منير جيلاً بعد جيل، وموته بعد ذلك لن يكون مقبرة عائلته. آه، كم كان سيحب ذلك الفتى. كل بركاته وكل ما كان سيفعله أجداده ولم يستطيعوا فعله كان سينقله إلى ذلك الفتى عن طريق قبلاته الحارة، وعندما يزوره الموت المحتوم، كان سيعلق عينيه بهدوء وهو يراجما مفتوحتين في عيني ابنه الشמוש...

• • •

نزل السنعاس على أرئين الطويل، وأظلمت تأملاته التي ربما أكمّلت سيرها في حلمه.

لم يستيقظ أرئين الطويل إلا عند بزوغ الشمس. فتح عينيه للفتن النقتا بعيني زوجته التي كانت قد استيقظت هي أيضاً. نظر كل منهما إلى الآخر. كانت الوليدة تبكي بهدوء. طلبت الزوجة ماء. صعد أرئين الطويل من مكانه وسقاها كأساً من الماء، فشربتها، وبعد ذلك طلبت من أرئين وأكاتها تملب الماء ثانية:
http://Archivebeta.sakhrif.com
— أرئين، أين هو خنجرك، اغرزه في قلبي.

كان أرئين الطويل واقفاً فوق سرير زوجته بقماته الطويلة، ومن الأعلى، من الأعلى جداً نظر إلى زوجته المعذبة، واضطرب قلبه وهمس بصوت خفيف:
— يا بايزار، إنه أمر الله، لقد مرت أيامي هباءً، لنذهب إلى بلدنا، ربما نرزق باين هناك...

□□

البنفسجة الجبلية

■ ترجمة: نوفيقي الأسدي ■

بقلم: أكسل باكونتوس⁽¹⁾

تكتسى قمة جبل كاغافايردا بالغيوم على مدار العام. وتخفي بقع الثلج البيضاء الأسوار المسننة للقلعة، بينما تبرز الأبراج السوداء العالية هنا وهناك. من بعيد يبدو أن هناك حرساً يقومون بدوريات من فوق الأسوار وأن بوابات القلعة الحديدية الضخمة مغلقة وأنه في أي لحظة قد يتحدى أحد الحراس غريباً يتسلق الجبل.

ولكن حين تهب الريح السحب وتتلاشى الغزق البيضاء، فإن القمة المائلة للسبرج تبدو أول ما تبدو ثم الأسوار التي تمت عليها التنبؤات، والتي غرق نصفها في الأرض. لا بوابات ولا حراس.

يغم الصمت خرائب كاغافايردا. الصوت الوحيد المسموع هو صوت نهر "الباسوت" الهائج في الوادي إلى الأسفل وهو يندفع في طريقه، يصقل صخور

⁽¹⁾ أكسل باكونتوس: (1899 – 1937) كاتب أرمني من الطراز الأول. ولد في غوريس لأسرة فلاحيّة. كتب قصصه الأولى في العشرينات من القرن العشرين. وقد نشر مقالات واستكشاث عن الحياة الريفية جمعت في كتب: "كاتب رسائل قروي"، "قرانا"، "رسائل من القرية" وأربع مجموعات قصصية: "الممر الضيق الداكن"، "زارع الحقول السوداء"، "مطر"، و"شجرة جوز الأخوة". مع نهاية العشرينات من القرن العشرين بدأ باكونتوس بكتابة صلبين رئيسيين وملحمة اسمها "كازمراكاز" ورواية تاريخية "خاشاتور أبو فيان" لم يتح له أن يكملها. ولكنه أكمل رواية هجائية عنوانها "كهويريس" (1935) والتي تبقى واحدة من أفضل الهجائيات باللغة الأرمنية. هذا وتعتبر قصة "البنفسجة الجبلية" نموذجية من حيث أسلوب الكاتب المتروفي في القصص، وغنائته وإهتماماته بالعلاقات الإنسانية وحسه الحاد من حيث الملاحظة.

المرو في حوض النهر الصخري العميق الضيق. يبدو وكأن هناك آلاف من الكلاب الذهبية تعوي تحت المياه المزبدة، وهي تتشبه بأنيابها سلاسلها الحديدية.

كان صقر ونسر قد عشا في الأسوار. وعند سماع أول وقع لأقدام راحا يطيران وهما يزعلان زعقات حادة ويبدأ أن بالتحويم فوق الخرائب. ينضم إليهما عقاب جبلي. منقاره سيف معقوف ومخاليه رماح مدببة أما ريشه فدرع من زرد.

الزهرة الوحيدة التي تنمو على هذا الارتفاع الشاهق على جبل كاغافبيردا هي البنفسجة. لونها أحمر كالدم بلون أقدام طيور الترمجان. تبرز الزهرة من بين الخرائب. وحين تحط الغيوم فوق أسوار القلعة الموحشة، فإن الساق تنحني إلى الأسفل لتدع الزهرة تلقي برأسها على صخرة جفتها الشمس. هاهي خنفساء لامعة تستحم في غبار الطلع، وترى الزهرة أرجوحة والعالم برعماً قرمزياً.

هناك بعيداً في الأسفل، في الوادي على الضفة المقابلة لنهر الباسوت، أكواخ عديدة. في الصباح تصعد أعمدة صباحية من الدخان من الفتحات الدائرية في الأسقف. تتحول إلى شرائط زرقاء وتختفي بين الغيوم. في حر الظهيرة قد يصبح ديك في القرية يرسم فلاح عجوز، وهو يتناوب في ظل منزله وقد غرق في ذكرياته، أشكالاً على الرمل بقضيب.

يجري الوقت ببطء في كل مكان من القرية وفي القلعة في الأعلى. تشبه السنون الأوراق المتغيرة لشجرة. تصبح الذكريات مختلطة. والآن كما هو الحال دائماً، يندفع النهر هنا، وفي الأعلى هناك الصخور نفسها والعقاب الجبلي نفسه.

كم عدد الأجيال التي عاشت حياتها على ضفة الباسوت؟ كم عدد الناس الذين نشروا أبسطهم اللبادية الرثة هنا وغطوا أسقفهم بالقصب؟ في الربيع حين يزر البنفسج على منحدرات كاغافبيردا فكم هو عدد من اصطحبوا غزاتهم وأغنامهم نحو مراعي الجبل، ثم ملأوا أعدلة سروجهم بالجبن، وأكلوها في الشتاء مع خبز الشوفان؟

• • •

في عصر أحد الأيام الحارة كان ثلاثة رجال يمتطون صهوات الجياد قد صعدوا المنحدر الصخري لجبل كاغافبيردا. ومن ملابسهم وطريقة رجلين منهم

فسي الجلوس على سرجيهما كنت تستطيع أن تميز أنهما من سكان المدن الذين لم يسبق لهم أن شاهدوا القلعة أو الصخور الشاهقة من قبل.

كان الرجل الثالث هو دليلهم. وبينما كان الرجلان الأولان يشبهان بعرفي جواديهما وكانا عملياً قد أحنيا ظهريهما إلى أقصى حد للحفاظ على نفسيهما من السقوط، كان الراكب الثالث بهيمهم أغنية وهو يتأرجح في سرجه، أغنية حزينة وبائسة شأن الوادي المهجور، وشأن الجرف الكئيب والقرية البعيدة.

كانت الغيوم التي تخفي القلعة وراءها تنفتح أحياناً كما الستارة، فتكشف الأسوار حيناً وتغطي القمم حيناً آخر. الراكب الأول لم يستطع أن يبعد عينيه عن الأسوار. في ذهنه كان يراجع الأساطير التي رويت عن القلعة، حكايا محفوظة في التاريخ المدون على الرقوق الذي يعود إلى عهود كان الأمراء يحكمون فيها هنا، حين كانت الجياد المدرعة تطأ الممر خارج البوابة الحديدية والمحاربون الملوحون برماحهم يعودون من رحلات الصيد. كانت العينان المحدثتان من خلف نظارتين عيني عالم. كان يستطيع فعلاً مشاهدة المحاربين والرواة الذي دبجوا القصائد في مديحهم وبروا قصباتهم وهم يدنون الكلمات فوق الرقوق. كان قادراً على سماع وقع حوافر تلك الجياد القديمة. كما كان صعباً عليه أن يصمت وهو راكب هذا الجرف الذي كان ساكنو القلعة السابقون يتسلقونه بكل سهولة كأنهم ماعز جبلي.

وأخيراً وصلوا القرية. تابع الراكب الأول طريقه. كان يبحث عن الدرب القديم ولم يلاحظ لا الأطفال الذين يلعبون في رماد نار المخيم ولا العنزات التي لحقت به بعيون مندهشة.

أما الراكب الثاني، وهو رجل يرتدي قبعة من اللباد، فلم يكن يبحث عن الماضي على قمة كاغافيردا. كانت ممتلكاته عبارة عن قلم رصاص مبري ومجموعة سمكة من أوراق الرسم. ما أن يطل عليه وجه أو زاوية فائتة بصخرة مغطاة بالطحلب حتى يبدأ بالرسم.

كان أحد الراكبين عالم آثار والآخر فناناً. وحين وصلوا إلى أول مسكن اندفع عدد من الكلاب باتجاههم. وما أن سمع بعض الناس التباح حتى خرجوا وراحوا يحدقون إليهم من عتبات البيوت.

أما الأطفال الذين كانوا يلعبون في الرماد فراحوا يراقبون الكلاب النابحة وهي تطارد الجياد. عبثاً حاول الدليل أن ينيرها بسوطه. ظلت الكلاب تراقبهم حتى أسوار القلعة وعندها فحسب استدارت عائدة وراحت تهبط مجدداً وبسرعة.

بيدت حجارة القلعة وكأنها عادت إلى الحياة: كانت تكلم عالم الآثار. اقترب من كل حجر، وانحنى باحثاً عن شيء ما، ثم قاس الأحجار، وراح يدون في دفتر ملاحظاته، وهو يحفر في التراب برأس حدائه ليكشف حجراً متشكلاً آخر. وأخيراً تسلق السور وحشر رأسه عبر إحدى فتحات الرمي في البرج. عند مشاهدته الكتابة المحفورة في السور صرخ عالياً.

قفز الدليل الذي كان قد ألقى عنان جواده وجلس قرب السور يذخن، قفز وفقاً عندما سمع الصرخة. ظن أن الرجل ذا النظارتين قد لدغته حية.

كان الفنان يرسم خرائط السور والبرج المدبب. وحين أنهى رسم مدخل القلعة توقف قلمه الرصاص في الجو، فقد كان للنسر، الذي أزعجه وقع الأقدام، قد طار من عشه. وراح الآن يحوم فوق البرج. لحقت به الطيور الأخرى وهي ترفرف أجنحتها بقوة.

تجمعت الجياد الخائفة معاً، وحين صرخ عالم الآثار بأنه اكتشف قبر الأمير باكور، فلان الفنان لم يكن يعرف ما الذي يتحدث عنه عالم الآثار. كان يتابع طيران النسور، والرفرفة القوية لأجنحتها، مقنّوناً بمناقيرها الحمراء كالدم. كان هناك شيء جليل في حومانها.

لم يشعر حين سقطت قبعته عن رأسه ووقعت على قمة الصخرة.

راح فلاح دس منجلاً في حزامه وعقد منديلاً قدراً على رأسه وهو يتكئ على عصا يتسلق المنحدر الصخري ويقرب من الدليل.

كان قد شاهد الرجل ذا النظارتين يحرك صخرة. وحين سأل الدليل عما يكون هذان الغريبان وما يبحثان بين الخرائب، لم يحر هذا جواباً. ثم قال إنه مكتوب في أحد الكتب أن جرة كبيرة من النقود الذهبية مدفونة في مكان ما فوق قمة كاغافبيردا.

غرق الفلاح في نوبة من التأمل. ثم هز كتفيه وهبط نحو الوادي ليحصد الدخن في حقّله. كان يحدث نفسه بصوت مرتفع وهو يمضي بعيداً. لكم كان

محظوظاً لو أنه وجد الكنز المدفون. لكم جلس فوق كل حجر حركه الرجل ذو النظارتين. لو أنه كان يعلم فحسب بالكنز من قبل لكانت جيبوه سترن بالذهب. أه، كم بكرة كان سيشتري.... وهكذا وصل إلى حقله وهو منشغل بأفكاره. خلع سترته الطويلة ورمى جانباً الأفكار العقيمة معها، وأمسك بحفنة من الدخن وراح يحصد.

كانت بنفسجة قد أزهرت بين الآثار، ولكن عالم الآثار لم يلاحظ الزهرة القرمزية اللون ولا العشب. كانت كلها قد سحققت تحت جزمته.

كان العالم بالنسبة إليه متحفاً عظيماً واحداً ليس فيه شيء حي. أبعد اللباب الذي كان يغطي الحجارة برأس عصاه واقتلع البنفسج الذي أزهر في الشقوق ومرر يده بحب فوق الأحجار، وكشط الغبار الذي حث الكتابات المنقوشة. أما الفنان وبعد أن رسم كل ما كان عالم الآثار مهتماً به، فقد بدأ يرسم الخرائب وعش النسر بين الصخور المسننة والبنفسجة المتفتحة في أسفل السور.

غادروا القلعة في العصر، وقبل الشروع بالهبوط سار عالم الآثار من حول الخرائب مجدداً، وهو يكتب ملاحظات في دفتره، ثم مشى بسرعة ليلحق بالآخرين. في هذه المرة سار الدليل في المقدمة. ولو كان عالم الآثار يفكر في الأمير باكور والرفوق، ولو كان الفنان يستذكر البنفسجة وهو يصغي إلى مياه الباسوت المزبدة، فإن الدليل كان يحلم فقط بالكعكة الطازجة وجبن الماعز والتبن.

أنزل السروج عن الجياد عند أول مسكن، شد قوائمها ثم دخل عبر الباب الضيق. أقحمت الجياد الجائعة أفواهها في العشب النضر.

في الداخل، كان صبي صغير جالساً قرب الموقد وهو يشوي حبات من الفطر في الرماد الحار. وقد بوغت بمشاهدة الرجل الغريب. لم يكن يعرف إن كان عليه أن يهرب ويترك حبات الفطر تحترق، أو أن يخرجها من الرماد. وحين سمع وقع قدمي أمه الحافيتين يقترب أصبح أكثر جرأة. أخرج حبة فطر مشوية وراح يبردها فوق أحد أحجار الموقد.

دخلت أمه، وجذبت منديلها إلى ما فوق عينيها ثم مضت نحو الركن. أخرجت وسادتين من كومة من الفرشات وقدمتها إلى الزوار.

أخرج الدليل علبة طعام من القصدير من حقيبة ظهر عالم الآثار.
قال: "نحن جائعون يا أختاه. هل لك أن تعطينا بعض اللبن، إن كان لديك
لبن، وأن تغلي لنا بعض الشاي؟ لدينا سكر."

مضت المرأة نحو الموقد، أبعدت حبات الفطر ثم انحنيت فوق الرماد وبدأت
تسفخ عليه. انزلق المنديل من على رأسها فكشفت للفتان جبينها الأبيض، وشعرها
الأسود الداكن وعينيها الداكنتين. لم يستطع أن يرف عينيه عن الموقد المدخن
والمرأة تتحنى فوق الرماد. أين شاهد هذا الوجه من قبل؟ إن هذا هو الجبين
المرمري نفسه والعينان البنفسجيتان الداكنتان نفسهما. حين نهضت المرأة لتضع
المنصب ثلاثي القوائم فوق النار فإن عينيها والغبار الأبيض للرماد الذي يغطي
حاجبيها وشعرها لم يكونا يبعدان عنه سوى مسافة بوصات قليلة.

كانت سنون كثيرة قَدْ مرت. هل يمكن لوجهين أن يكونا متشابهين إلى هذا
الحد؟ حتى شكل الفم كان هو نفسه عند المرأتين.

كان وجه هذه المرأة مسفوفاً بأشعة الشمس، ولكن عينيها كانتا عيني تلك
المرأة، كان لهما كلتيهما الخصر النحيل ذاته والجسم الضئيل. كانت المرأة تتحرك
بسرعة وصمت وهي تعد لهم الشاي. وكلما انحنيت أو نهضت أو سارت فوق بسط
العش كانت الأساور الفضية على كمها ترن كأجراس صغيرة بينما راح ثوبها
الطويل يصدر حفيفاً رقيقاً.

المرأة الأخرى كانت ترتدي أيضاً أثواباً لها حفيف، ولكنها كانت ترتدي
معطفاً رمادياً وقبعة من المخمل الأسود لها دبوس برتقالي اللون أيضاً.

تلك المرأة كانت بعيدة جداً الآن. ربما كان الباسوت الذي يتدفق نحو نهر آخر
يصل أخيراً البحر حيث جلس ذات مرة على الشاطئ الرملي قرب المرأة الأخرى.

فستح الدليل علبة الصفيح الثانية. ظل عالم الآثار ينظر إلى الغطاء والأوعية
التي عليها. كان الصبي يأكل من حبات الفطر ثم ينظر متعجباً إلى علبة الصفيح
اللامعة، منتظراً أن يفرغها الغريباء. لاحظ الدليل نظرته فأعطاه إياها. راح الصبي
يهزها. التهم كلب كان يقبع في الخارج اللقمة المتبقية من اللحم ولعن بقاياها. ثم
اندفع الصبي خارجاً ليرى رفاقه العلبة البيضاء اللامعة، وهو مشهد لم يكن أحد قَدْ
راه في تلك الأثناء.

■ البنفسجية اليلبية ■

جلست المرأة إلى القرب من الموقد، وراحت ترفع غطاء الإبريق مرات عديدة لتتأكد من أن الماء قد غلى. راحت تعبث بالنار وتقرب عيدان الحطب من بعضها البعض، وهي تحمي عينيها من الدخان الذي راح يتصاعد كسحابة ويهرب من الشقوق في جدران القصب.

بدت المرأة الجالسة عند الموقد، والتي كانت ركبتيها واضحتي الخطوط تحت ثوبها الطويل، للفنان، كساحرة تستطيع أن ترى المستقبل في الدخان المتموج.

لم تكن المرأة الأخرى قد سارت حافية القدمين قط كما لم يسبق لها أن جلست قرب موقد يتصاعد منه الدخان.

كان البحر يموج كالحمم البرونزية في الصباحات، ويلق الصخور على امتداد الشاطئ. والمرأة في المخمل الأسود كانت قد جلست على الشاطئ، وراحت ترسم خطوطاً في الرمل برأس شمسيتها ثم تمحوها. كان يفتت قضيباً يابساً بين يديه، والأمواج، التي كانت ترمي بالزبد عند قدميها، راحت تأخذ فتات القصب نحو البحر. وبينما كانا جالسين هناك عند الشاطئ، وعدت المرأة بأن تتزوجه، وأصبح العالم فجأة بحراً لا حدود له، وقلبه جزءاً منه.

ثم جاءت أيام أخرى. كانت قد فرقتهما على نحو مفاجئ جداً. كل ما تبقى له كان ذكرى عينيها البنفسجيتين ومعطفها الرمادي ورأس شمسيتها الذي كتبت به ومحت وعدّها في الرمال.

جلجل غطاء الإبريق. أخذت المرأة بعض الصحون من سلة كما وضعت بعض الكؤوس المطلية على الغطاء. وحين انحنت فوقه انزلقت صغيرتها الطويلة من فوق كتفها. المرأة عند شاطئ البحر كانت ذات شعر قصير وعنق أبيض وبشرة نصف شفافة.

عاد الصبي راكضاً وهو يحمل اللعبة الفارغة.

كانت مجموعة من الأطفال تقف عند المدخل، وهم يحذقون بصراحة إلى الغرباء. لم تكن هناك نهاية لمتعة الطفل حين أعطي لعبة ثانية. في هذه المرة لم يركض بها خارجاً، بل جلس فوق البساط. صبت له أمه بعض الشاي، وأسقط له الفنان كتلة كبيرة من السكر في كأسه. كان الصبي مأخوذاً بالفقاعات التي راحت

تتصاعد من كتلة السكر. دس إصبعه في الكأس ليستخرجها. ورغم أن الشاي الساخن حرق جلده فإنه لم يصدر أي صوت، فقد كان السكر الذائب لذيذاً. ابتسم عالم الآثار، فقد تذكر دون شك مشهداً من ماضي البشرية. ملأت المرأة الإبريق مجدداً وابتسمت بسعادة وهي تنظر إلى ابنها الشقي.

لم تفت ابتسامتها الفنان. كانت مألوفة جداً. حين يشابه الناس بعضهم بعضاً، فإن ابتساماتهم تتشابه أيضاً. أولاً ارتجفت شفة المرأة العليا ثم انفرجت شفتاها وأضاءت الابتسامة عينيها.

أخرج الفنان دفتر الرسم من جيبه، وتصفح رسوم الصخور والنقوش ثم رسم بمهارة المرأة الجالسة قرب النار.

كانت خطوط جسدها مألوفة. وفي ذهنه كان قد رسمها خلال سنوات كثيرة.

لم يشاهد سوى الصبي الرسة في دفتره. بدا له أن الصفحات البيضاء التي تخص الرجل المرتدي القبة اللباد تعكس كل شيء كمرأة، شأن مياه النبع الصافية.

بعد فترة قصيرة، جلب الدليل الجياد. وضع اللجام وشد الحزام لكل جواد ثم ثبتت حقائب السروج وعاد ليودع المرأة. نهضت وسرعان ما جذبت مندليها فوق جبينها. لمست أقدامها يده الممدودة بسرعة. أما الآخران فقد مدا أيديهما إليها ولكنها ودعتهما بأن ضغطت بيدها على قلبها وحلت رأسها.

أعطى الفنان الصبي بعض النقود الفضية وربت على رأسه.

شقت ثلاثة جياد طريقها هابطة المنحدر الصخري لجبل كاغافبيردا نحو الوادي في الأسفل. كان كل من الرجال الثلاثة الهابطين من الجبل قد غرق في أفكاره.

كانت زهور البنفسج متفتحة على امتداد الدرب. اتحنى الفنان وهو جالس على سرجه وقطف زهرة وضغطها على دفتره، على الصفحة التي رسم بها امرأة رشيقة قرب موقد.

كانت الحجارة تصلصل تحت سنايك الجياد وتهبط مجلجلة نحو الوادي.

كان هناك بحر مريض في ذهن الفنان. كان الموج يضرب الشاطئ فيرمي على الشاطئ أولاً بامرأة في قبة من المخمل الأسود ثم بامرأة في ثوب طويل

وضففرفففف ثقلفففف ثفففففف على ظهرها؁ ثم خرائب قلعة وزهور قرمزفة نففففف عند أسفل أسوارها.

• • •

كان الشفق قَدْ هبط.

هاهو رجل يصعد الطريق نفسها نحو الفبل. كان قَدْ دس منجلاً فى حزامه. كان الرجل مفعباً قفد كان فحصل طوال النهار العفدان القصفرة للدفن وكان ظهره فؤلمه. لفا كانت خطوافه قصفرة وقف راح ففكف بقوة على عصاه وفوقف كففراً لفلفففف أنفاسه. كانت ركفباه فرففففف كلما فوقف. كان ذفك هو الرجل نفسه الذى حكى له الفلفل عن الكفف المفففف فى القلعة. كان ففطف من فقله لفرى الفرففف فففففف. لقف فدا له أن الذهب كان فى ففائف سرففف؁ الذهب الذى بقف مفففنا قرفنا ففف الصخرة نفسها الفف فلفس علففا ففففا كانت عزفاته وفرافه فرفى ففف للخرائب. وربما لأن أفكاره لم فكن ففمحه الرضا أو لأنه كان مفعباً ففا قفد كان عصفباً ففا كذب فائف فرف للصف المفففف.

ففن وصل إلى أول مسكن ففف الكفب فاففا ففد أن فرف هذا لاسفقاله؁ ثم أفرج المنفل من فزامة ورماه فى الزاففة. فلفس على الفساط قرب الموقف وهو ففكف على العصا.

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

كانف النار لا فزال فدفن.. كان الفرفق ففلف. كانت قففعفان من السكر فوق الوسافة.

وقفل أن ففاح للففاف أن ففلف ففلفه المفففف من لفاء الشجر وففهما لفففففف ففهما الففاف؁ ففلف زوففاه. كانت الأساور ففلفل فى أكمامفا؁ وكانت طفاف فوففا الطوفل فففر فففا. كان فففا ففففف فففرففا وهو فمسك بالففففف الفارفففف.

ركفف نحو أبفه لفرفه كففه. وففاة أفرق الرجل أن الفرففف فلفسوا على فساطه. ثم أراه الصفف الففوف الفففة الفف أعطاه ففاها الرجل الفرفف الكرفم.

أزاح الرجل الففل فففا فففا ورمى بالففففف الفارفففف. فففر ففا وكذلك ففل الففل. ولكن الففل قفز واقفا والففففهما مفففا. ثم ففن فففه فى ففورة أمه

وراح يبكي. شعر الأب بالأسف عليه. ناداه وطلب أن يرى النقود. اقترب الصبي منه وهو يبتسم من خلال دموعه، وقد قبض على النقود براحته. ثم حكى لأبيه أن الغريب كان معه شيء لامع له صفحات بيضاء في جيبه. كان الرجل الذي أعطاه النقود قد حمل بعيداً صورة أمه فوق إحدى الصفحات.

مزقت الغيرة، مثل التماعة البرق، قلب الفلاح الغاضب. جحظت عيناه. شحب وجهه. نظرت المرأة إلى ابنها وتضرج وجهها. لاحظ زوجها التضرج في وجنتيها. وفي اللحظة التالية كان قد نهض. أمسك بيديه المشعرتين العصا الثقيلة وضرب بها المرأة على ظهرها.

جلجلت أزرارها وارتمت جديلتاها جانباً. انقلب الإبريق. طار الطرف المكسور للعصا نحو إحدى الزوايا. لم تصرخ المرأة، بل تلتوت من الألم فحسب. أمسكت ظهرها بيدها وخرجت من المنزل، لتبكي هناك في الخارج. لحق الطفل بها وهو لا يزال يقبض على العلبتين واختبأ في ثورتها.

كان الزوج يغمغم طوال تلك الفترة، ثم تناول بعض كعك الدخن، ووضع قبعته المصنوعة من فرو الغنم تحت رأسه واستلقى فوق البساط.

ومن جديد حل الصمت على جبل كاغاقابريدا. انطفأت النيران في المواقد بينما كان الليل يهبط بظلمته. أما كلاب القرية، المرتجفة من خوفها من الوحوش الضارية، فقد التفت على أنفسها خارج البيوت. كان الغنم ينام في العشب. نامت المرأة فوق بساط، وغطت الطفل بقطعة من اللباد.

زحفت غيمة أشبه ببزاقة هائلة الحجم فوق الجبل نحو الأكواخ.

غطت العتمة الطحالب والصخور بينما استقرت رطوبة الليل على فروات الخراف النائمة.

هبط السدى على تويجات البنفسجة. كانت خنفساء صغيرة قد ثملت من عطرها فنامت على كأس الزهرة. وبدا للخنفساء أن العالم كان بنفسجة عطرة.



الحمل الأبيض

■ بقلم: سيرو خانزاديان ■

■ ترجمة: توفيق الأسدي ■

عن الإنكليزية

سيرو خانزاديان: (ولد عام 1915). كان ابنًا لفلاح وعمل راعياً وهو صبي. نال شهادة أهلية التعليم في عام 1934 وعمل معلماً في القرى الجبلية حتى اندلاع الحرب في عام 1941 حين ترك التعليم ليخدم في الجبهة. وقد جرح خلال العمليات عدة مرات وتلقى **أوسمة على مسالته**.

نزل الجنائتي العجوز "نافاسارد" إلى النبع الذي يتفجر من تحت شجرة الجوز وذلك ليغتسل ويرتاح. <http://Archivebeta.Sakhrir.com>

وما أن انحنى ليدع الماء البارد يرشش وجهه الذي سفعته الشمس حتى سمع قائد المجموعة يناديه: "هاي، يا نافاسارد، أسرع. لقد عاد ابنك أرساك".

"ماذا؟" قال العجوز مستثراً ثم نهض بصعوبة. اندفع إلى حيث كان الرجل واقفاً برشاقة مدهشة بالنظر إلى سنه. "ما الذي قلته؟ متى وصل؟ أين هو؟"

"إنه في القرية. رأيته بنفسي. وهو يقود سيارة زرقاء ويعبر بها القرية. يا لحظك يا نافاسارد! لقد باركك الله بابن جيد!"

بدأت الشمس تلمع أكثر بعشر مرات من نورها السابق. أحس نافاسارد بأنه كان يطير طيراناً.

وراح قلبه يخفق بقوة من الاستثارة.

بدأ نافاسارد وكأنه يتفكر في شيء ما وهو ينظر في اتجاه القرية. ولكنه استدار فجأة وركض نحو معصرة الخمر بدلاً عن ذلك.

لم يكن قد رأى أرشاك منذ عشر سنوات. في كل عام كان ينظر إلى الطريق بأمل وينتظر. لقد انتظر بصبر. والآن أخيراً سيراه. لقد عاد أرشاك في وقت ملائم: كانت الفاكهة في البساتين قد أُنعت وكان هو لا يزال معافى وقوياً.

لم يكن لنافاسارد أقرباء أحياء في القرية. ولم يعيش حياة سعيدة. لم يكن قد رزق بأولاد من صلبه وكانت زوجته قد توفيت قبل سنين كثيرة. أما أخوه وزوجته اللذان ماتا جوعاً خلال الحرب فقد تركا له ابنتهما الوحيد أرشاك.

الستقط نافاسارد السرفش الذي كان على الأرض قرب حافة الخندق وبدأ بالحفر. كانت الأرض رطبة وتحمل رائحة التنبؤ. أخرج جرة صغيرة كان قد دفنها قبل عشر سنوات وسرّ من ملمس الوعاء الفخاري البارد. راح يتشمم العبير الرقيق للتنبؤ وابتسم وقال لنفسه: "لقد تحول إلى حليب سباع". ثم تذكر أن أكبر بطيخة قد نضجت تحت شجرة التوت الكبيرة قرب حافة النهر. قطع ساق البطيخة ومسح الغبار القضي عنها بخاشية سترته الطويلة وراح يقاوم ألامها اللامعة.

همهم: "أرشاكي يجب البطيخ". ركم ووضع ذراعيه حول البطيخة وضغط عليها بشدة وأذنه على قشرتها. أوما برأسه موافقاً على ملامعة الصوت. ثم مضى نحو شجرة التين وتسلقها بصعوبة وبدأ يقطف من ثمارها الحلوة كالعسل والتي كانت الطيور قد نقرتها من هنا وهناك. اختار أفضل الثمار وصفها برقعة في سلة محبوبكة لامعة.

ثم انطلق نافاسارد على امتداد ضفة النهر حيث كان حمل أبيض في الشهر السادس من عمره يرعى. كان يوفر الحمل لمناسبة خاصة.

"لقد عاد أرشاك إلى بيته. وقد عشت أخيراً لأرى هذا اليوم." قال نافاسارد لنفسه وهو يفك وثاق الحمل. راح هذا يتغو بصوت مرتفع.

قال نافاسارد: "تذهب يا صديق. هيا بنا، لقد عاد أرشاك."

تسلق الممر شديد الانحدار نحو القرية. كانت السلة الثقيلة تضغط على كتفيه، والتنبؤ يترشش في الجرة، بينما كان الحمل الخنوع والوديع يركض أمامه أو خلفه.

■ الهمل الأبيض ■

قال له الناس الذين قابلهم على الطريق: "إلى أين تمضي في هذا الوقت المبكر؟"

وكان الرجل العجوز يجيب بافتخار: لقد عاد أرشاك في زيارة.

في الطريق كانت كل شجرة وأجمة وكل حجر ونبع يذكره بطفولة أرشاك. كم من المرات حمل الطفل على ظهره صاعداً الممر شديد الانحدار. كان يجلس ليرتاح على هذه الصخرة. كان نافاسارد يعطي أرشاك أجاصة ويمسح أنفه بحاشية سترته الطويلة. كان هناك النبع الذي كان أرشاك يحب أن يشرب منه.

كان نافاسارد يجعل كفيه بشكل كوب ليشرب منهما أرشاك. وهاهو البستان الصغير. كانت الأشجار لا تزال تحمل الكثير من الثمر الذي بقي أخضر حتى ونحن في وقت متأخر من الخريف. حين كان أرشاك في السابعة قد سقط ذات مرة من شجرة الكرز تلك وكسر ساقه. وقد حمله نافاسارد كل مسافة الطريق التي تمتد أميالاً كثيرة إلى الطبيب في المستوطنة البعيدة.

ثم فكر نافاسارد بكل الأمور التي باعها ليجز أرشاك لحياة المدينة حين أرسل الصبي ليدرس هناك. مر زمن طويل ولكن أرشاك تخرج في الجامعة ثم ذهب ليدرس في موسكو. وقد وصل إلى مراتب عالية في هذه الحياة.

غالباً ما كان نافاسارد يحكي لأهل قريته عن العمل الهام جداً الذي يقوم به أرشاك في العاصمة، وحول سيارته الفخمة وأنه يعيش في أكبر منزل في موسكو. كان الرجل العجوز حريصاً على أن يصل القرية بسرعة. كان النيبذ يترشش في الجرة والحمل الخنوع الوديع يلحق به.

وصل أخيراً إلى منزله ولكنه لم ير سيارة أرشاك في الخارج. تسام! نافاسارد: لم لم يقد سيارته إلى المنزل مباشرة؟ أه؟ ما الذي أتحدث عنه؟ الحصى حاد جداً هنا. وربما خشي أن تتضرر عجلات سيارته. إنه لأمر جيد أنه لم يقد سيارته حتى المنزل.

كان منزله ذو الطابق الواحد والسقف الممهد والشرفة والأرضية الترابية أشبه بعش نسر على منحدر الجبل، وذلك بين منازل أخرى كثيرة مشابهة. دخل نافاسارد إلى الباحة، وضع الجرة والسلة على الأرض، ورمى ملء

ذراعيه عشياً إلى الحمل وراح يتطلع في أرجاء المكان. ولأول مرة في حياته بدا له المنزل مثيراً للشفقة وآيلاً للسقوط.

"حسناً، إنه بيت أرشاك أيضاً. لن يخل من بيته." هذا ما قاله ليعزي نفسه وبدأ ينظف الباحة.

"تهانينا يا نافاسارد، فقد عاد أرشاك." هذا ما قالته الجارة العجوز له وهي تطل من فوق السياج.

احمر وجه نافاسارد خجلاً. (شكراً. وأتمنى أن يعود غيبك أنت أيضاً).

"لقد رأيت أرشاك."

"هل كان هنا؟"

"كلا. لقد ذهبت إلى الدكان لأشتري رزمة من الإبر ورأيتُه واقفاً أمام مكتب المزرعة. يا له من شاب جميل. لا يمكنك أن تقول عنه إلا أنه ابن شاه. لم أستطع أن أبعد عيني عنه. فليباركك الرب."

"شكراً، قال الرجل العجوز بصوت يخ من الانفعال. ومضى ينظف الباحة بحماسة.

أولاً كنس التراب؛ لا أريد الابني أن يغير أخطاه؛ ثم ضرب مسماراً ناتئاً بحجر: قد يعلق كم أرشاك بهذا المسمار ويمزق سترته."

فتح نافاسارد الباب. كان هناك سرير صغير يتكى مهجوراً إلى الجدار العاري. "سأقول: أتذكر كم نمت في هذا السرير الصغير يا أرشاك ونمت أنا على الأرض؟" كان يفكر بصوت مرتفع وهو يمد الغطاء بيده. "سأقول: هذا صحنك العتيق الذي كنت تأكل منه. انظر يا أرشاك، هذه ملعقتك الخشبية. أتذكر يوم اشتريتها لك من مائاس نحاس الخشب؟ ثم أخذتها إلى الرسام الذي لونها من أجلك؟"

وبينما راح يحدث أرشاك على هذا النحو في فكره، مضى نحو النبع وجلب بعض الماء ورش الباحة والشرفة والأرض في الداخل. ثم بدأ يكتس.

ومن جديد أطل رأس جارته العجوز من فوق السياج.

"نافاسارد، هل تعرف أن أرشاك ذهب إلى منزل رئيس المجلس؟"

"كلا، ومتى مضى إلى هناك؟"

"قبل أن تعود مباشرة."

"لا بد أنه لاحظ أن لا أحد في البيت فذهب إلى هناك ليرتاح. سيأتي. لن يضيع الطريق." "طبعاً."

جلب نافاسارد بعض الحطب الجيد وكومه قرب الموقد خارج المنزل. ثم أخرج سكينه من حزامه ومضى نحو الحمل. في اللحظة الأخيرة غير رأيه. "سأنتظر حتى يصل أرشاك." هكذا قرر ونظر باتجاه منزل رئيس المجلس ذي الطابقتين.

"ما السذي يؤخره؟ سرعان ما سيحل الظلام. ثمار التين ستفسد، والقرايا ستفقد مذاقها."

أخرج الثمار من السلة ووضعها على حافة النافذة. ثم استعار مفروش طاولة جديداً من الجيران وغطى به الطاولة، ونفض السجادة وغطى الكنبه ووضع وسادة عليها.

كان كل شيء جاهزاً الآن. ومع ذلك، فإن أرشاك لم يصل بعد. "ما الحكاية؟ لماذا ذهب إلى منزل رئيس المجلس؟" تساءل نافاسارد بغضب وارتجفت يده. وعلى أي حال فإنه سارع إلى تعزية نفسه قائلاً:

"أرشاك شخص مهم. عليه أن يزور رئيس المجلس ويسأله عن أحوال القرية. ولماذا العجلة على أي حال؟"

سيكون لسي وحدي يومين اثنين. لن أدعه يغيب عن ناظري. سنعوض الزمن الضائع.

كانت الشمس تغرب، ولكن أرشاك لم يأت إلى البيت. بدأ قلق الرجل العجوز بالتصاعد. ومرت لحظة كاد فيها أن ينطلق نحو منزل رئيس المجلس، ثم غير رأيه. خرج إلى الباحة ونادى على حفيد جاره.

قال: "امض مسرعاً وانظر ما يفعله أرشاك. قل له إنني في البيت أنتظره."

عاد الولد بسرعة فائقة.
 "حسناً، هل رأيت أرشاك؟"
 "أجل".
 "ما الذي يفعله؟"
 "يشرب النبيذ".
 "هل قلت له إنني في البيت؟"
 "أجل".
 "وما الذي قاله؟"
 "قال: حسناً".

كرر نافاسارد الكلمات لنفسه. "حسناً إذن. هذا يعني أنه سرعان ما سيأتي إلى البيت. سأشعل النار لأجهز الشليك في هذه الأثناء".
 سرعان ما كانت نار جيدة قد انقادت في الموقد. ثم راح ينظف أسياخ اللحم. عاد إلى المنزل ومسح الغبار عن المصباح وجلس إلى الطاولة وراح ينتظر.
 راح الوقت يتجرجر دون نهاية. انطلقت الأنوار في القرية وبدت المنازل حميمة. كان ضجيج الشارع قد بدأ يتلاشى. وسرعان ما كان الصوت الوحيد هو صوت الكلاب التي تتبجج بحزن في البعيدة <http://Archive>
 كان أرشاك لم يصل بعد. خمدت النار وتركت كومة من الرماد في الموقد، بينما كان الحمل يتمدد على العشب وهو يلوك جرتة. كان نافارساد يصغي بكل جوارحه وهو يحدق إلى العتمة. تعبت عيناه وبدأتا تدمعان وشعر بتقل في رأسه. نهض ولكن قدميه رفضتا التحرك. "لم علي أن أرجوه ليأتي؟ أنا أكبر سناً منه. عليه هو أن يأتي إلي"، هكذا بدأ يغمغم، ثم عزى نفسه مرة أخرى قائلاً: حسناً، إنه شخص هام. ربما لديه عمل هام يناقشه مع رئيس المجلس. سيأتي إلى البيت حتماً في الصباح".

ومع ذلك، فقد راح ينتظر. انتظر حتى ساعات الصباح الأولى. كان ليل الخريف على وشك الانقضاء. كالت عينا الرجل العجوز من التحديق بتصميم في العتمة. ولكن النوم غلبه تدريجياً. نام نافاسارد وهو جالس إلى الطاولة.

• • •

■ الهمل اللبيف ■

لم يعرف كم طال نومه. أيقظه صوت الجارة وهي تناديه من الباحة. فتح عينيه ودهش إذ رأى أول شعاع من الشمس يدخل من النافذة.

"نافاسارد. هاي يا نافاسارد"، نادت الجارة.

اندفع خارجاً من المنزل. كانت جارتته تطل من خلف السياج. "كيف حدث أن نمت إلى هذا الوقت المتأخر اليوم؟".

"ما الأمر؟ هل أرشاك في طريقه إلى هنا؟"

قالت وهي تهز رأسها: "كلا. أرشاك ابنك يغادر القرية. انظر إلى الطريق".

أحس نافاسارد وكأن السقف قد وقع على رأسه. ركض نحو الكوخ الواطئ وتسلق إلى السقف. كانت سيارة أرشاك تسرع على امتداد الطريق؛ هي تلتمع تحت نور الشمس، وهامي تصبح بسرعة أصغر فأصغر.

كانت مشيته المضطربة مثنية رجل عجوز. كان نافاسارد يشق طريقه هابطاً الممر نحو البساتين.

بدت عيناه اللتان تحدقان إلى الأرض غائرتين، وبدأ ظهره أكثر انحناء مما كان قبل الآن. كان الحمل الأبيض يظفر مرحاً وراءه.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>



قصة حب

■ بقلم: أفينتيك إساهاكيان ■

■ ترجمة: هراج كل سماكيان ■

أنهكنسي الحب لكثرة ما أحببت وأصبحت قصص الحب تسبب لي نوعاً من السأم ولكن لا تزال هناك قصة حب قصيرة، غير مكتملة، تدوي في أذني.. لا أدري ألي منامي سمعتها أم في يقظتي؟... كانتا حكاية قديمة نسجت روحها الأصلية في عالم بعيد..

كان العازف جالسا تحت شجرة وارفة الظلال وقد أسند ربابته إلى صدره، يوقع ضربات موزونة على وترها وهو يشدو بقصة الحب هذه:
أقامت فتاة شابة في قلعة من القلاع وكانت بهيئة الطلعة رائعة الحسن، فاق جمالها جمال النجم المتبجح على صفحة البحيرة. وكان الشاب القادم من البلاد البعيدة يجثو على ركبتيه متوسلاً بعبارات الحب أمام الفتاة المظلة من شرفة القلعة:

"حملني حبك على نسيان أهلي ووطنك والعالم كله،

سعادتي منذ هذه اللحظة رهن إشارتك،

فامنحيني ولو نظرة واحدة"

ولكن الفتاة لم تكن لتصغي إلى هذا الكلام الجميل، إنما كانت مشغولة بحياكة ثوب، في الوقت الذي كانت فيه تعيد ذكرياتها حتى اليوم الذي مر فيه تحت شرفة قصرها، ممتطياً صهوة جواد أصيل، وبعد أن ألقى صوبها نظرة خاطفة تواري عن الأنظار مضرباً بنظرته اليتيمة تلك جذوة الحب في قلبها العذري..

بكست الفتاة بمرارة وهجرت القلعة حقتية أثر فارسها الغريب وجالت عوالم كثيرة وطرقت العديد من الأبواب ولكنها لم تجد أثراً له. كان قد اختفى..

أما الشاب القادم من البلاد البعيدة، فلا زال ينتهل ركاماً على ركبتيه، يشدو عبارات الحب ويلتمس الشفقة:

"مسأمتك أمام باب دارك وسأنتظرك حتى آخر عمري، لن يفرق بيننا سوى الموت، لأنك جبي وحياتي ومصيري معاً".

إلا أن الفتاة لم تكن لتستمع لأي من هذا الكلام. كانت تحيك الثوب بيديها وتحلم... هائدة وجذت أخيراً حبيبها وصارحته بحبها العميق ولكن للأسف..

فارسها الذي طالما حلمت به، لا يشاظرها المشاعر نفسها، إنه يتجاهل نداء قلبها وهاهو يرحل للبحث عن حبه هو.. ولن يعود أبداً.

تمضي الأيام ولا يزال الشاب القادم من البلاد البعيدة يلتمس الحب متضرعاً...

اضطرب وتر الرابابة وخفق باربعلث وانقطع بغتة وبقي الشادي جالساً تحت الشجرة، مستنداً الرابابة إلى صدره، بينما بقيت قصة الحب هذه غير مكتملة، وهي ما زالت تنتاهي إلى مسامعي ولا أدري ألي منامي سمعتها أم في يقظتي..؟ كأنها حكاية قديمة نسجت روحها الأصلية في عالم بعيد.



العزاء

■ بقلم: أفيتيك إسحاقيان ■

■ ترجمة: هاج كل سحاكيان ■

حدث ذات يوم أن قضى الابن الوحيد لأرملة نحيبه، تاركاً وراءه
الأم الشكلى فى حالة يرثى لها. ارتدت الأم المفجوعة ثياب الحداد
واستسلمت للدموع وانكفات عن ممارسة أي نشاط وجثمت فى الدار،
لا تتحرك من مكانها إلا لتحرك الحطب وتوقد النار، فكان الدخان
المنبعث ينتشر إلى كل أكواخ القرية حاملاً تأوهاتِها الممزقة لنياط
القلب. وكان أهالى القرية يرثون لحالها قائلين:

يا لها من امرأة مسكينة نعيسة، ما أشد مصابها.

اجتمع نفر من الحكماء المسنين من أصحاب الخبرة والتجربة وجازوا
إليها وجودها تنتحب على ضريح ابنها فلم يبخلوا عليها بالمشورة:

-كفى نحيباً يا أيتها المرأة البائسة، فالبكاء لا يعيد الفقيد والموت قدر لا
مفر منه، فكلنا سنؤول إلى الزوال عاجلاً أم آجلاً. هذه سنة الحياة وعلينا أن
نقبل قدرنا بكل قناعة ونتمتع بنعم الحياة قبل فوات الأولن. عودي إلى

بيتك، فأحفادك اليتامى بأمس الحاجة إلى حنانك وعطفك. عودي إليهم ودعي الفقيد يرقد بسلام، فطوبى له ولرحيله المبكر من هذا العالم الفاني..

هكذا وعظ حكماء القرية، أصحاب الحنكة والدراية وقد أرادوا بصراحتهم تلك أن يسترُوا علامات الشفقة التي ظهرت على وجوههم، لكن المرأة الحزينة لم تقبل مواساتهم ومضت تبكي بمرارة.

واجتمع أنشياء القرية من أصحاب الجاه والنفوذ، وقصدوا المقبرة ووجدوا المرأة المنكوبة وهي تجلس قرب ضريح ابنها تبكي بحرارة فتوجهوا إليها قائلين:

-كفى بكاءً يا امرأة، فمن كتب له أن يموت سيموت. إن أحفادك لا يتمنون لك الموت، فعودي إليهم وأشعلي موقد الدار واعتني بهم، فلن يطول الوقت حتى يكبروا ويتقلدوا دور الفقيد. لا تنسي أننا على استعداد لمساعدتك.

ولكن المرأة المفجوعة لم تتكلف عناء رفع رأسها واستمرت في النحيب وكأنها فقدت الأمل نهائياً من كل ما حولها.

حدث وقتها أن مرَّ عابر سبيل من القرية ذاتها وما أن سمع بكاء المرأة حتى تفتت قلبه واختلجت مشاعره فتقدم بخشوع واخترق الجمع المحتشد ليقترب من مصدر هذا العويل الذي أنساه عناء السفر. وما أن أصبح بجوارها حتى أحنى ظهره وقبل يدها بكل تواضع وذرْف دمعاً غزيراً.

حينئذ فقط رفعت الأم المنكوبة رأسها ومسحت دموعها وشعرت أخيراً
بأن الحمل الثقيل بدأ يخف على كتفها وانفرجت أسارير وجهها وشعشع
بريق الأمل في عينيها. وسرعان ما نهضت ومضت إلى بيتها بخطى وثقة
وأشعلت النار من جديد في الموقد الخامد.



أشعار أرمنية

للشاعر صياد نوبا

■ ترجمة: برجوهي أفتيان ■

صياد نوبا هو "أشوخ" أي شاعر وزجال ومؤلف وملحن ومغن وموسيقي متنقل يجوب البلدان. هذا اللون معروف في الشرق بالزجل أي القصيدة المحكية المغناة. ويترافق الغناء بالعزف على الآلة الوترية "الكمنجة".

ينظم "الأشوخ" الشعر ويلحنه ويغنيه ارتجالاً في المجالس. ولكمة "الأشوخ" تعني العاشق بالعربية بسبب ميل هذا اللون من الغناء والشعر إلى العشق، وحب الحياة، والجمال، والصفاء الروحي.

ولد صياد نوبا واسمه الحقيقي "هاروتيون" بين عامي (1720-1722) في عائلة متواضعة. نزح والده قره بيت* من مدينة حلب واقترن بأمه "ساره" التي جاءت مع عائلتها إلى عاصمة جورجيا تيفليس هرباً من المذابح في أرمينيا.

عاش صياد نوبا في كنف عائلته في تلك المدينة التي احتضنت أجناساً مختلفة من القوميات وكانت آنذاك مدينة للمرح والرقص والفنون، إذ شكلت الجالية الأرمنية فيها أغلبية السكان وشغل عدد كبير من أبنائها مناصب رفيعة في القصر الملكي وخدموا البلاد بإخلاص.

صياد نوبا كلمة فارسية الأصل وتعني "الأمير الموسيقي" وقد سمي باسم الدلع "أروتين" يقال إنه عمل مع والده في النسيج، ولكن عشق الفن والغناء طغى عليه وأصبح مغنياً مشهوراً. كان يملك صوتاً عذباً وخيالاً واسعاً ومهارة في العزف والإبداع. دوره كبير في إيصال الأغنية الشعبية إلى العالمية. زار بلدانا

عديدة حتّى وصل إلى الهند، وغنى وألف بلغات ثلاث: الأرمنية والجيورجية والأذرية وبالتالي شمل إبداعه الحضارات الثلاث.

أوصلته شهرته إلى القصر الملكي الجيورجي، فأصبح شاعر البلاط وأشوغ الحفلات والمجالس وساقه قدره لعشق الأميرة "أنا" ابنه الملك الجيورجي وخطيبة أمير من عائلة أوربيليان الأرستقراطية.

عثر عن حبه بأبيات رائعة وتعبير جميلة مشبهاً حبيبته بالأزهار والأحجار الكريمة والعطور والحريز والشمس والقمر.

إذ احتار في وصفها قائلاً:

إِنْ قُلْتُ إِنَّكَ بِنَفْسِجَةٍ قَالُوا إِنَّهَا مِنَ الْجِبِلِّ أَنْتِ

إِنْ قُلْتُ إِنَّكَ جَوْهَرَةٌ قَالُوا إِنَّهَا مَجْرَدُ حَجَرٍ

إِنْ قُلْتُ إِنَّكَ قَمَرٌ قَالُوا مِنَ الْعُلَيَاءِ أَنْتِ

أَنْتِ مَشْرِقَةٌ كَالشَّمْسِ الَّتِي تَبْهَرُ النَّظَرَ يَا رَانَعَتِي.

وانشد أيضاً:

أَعْجُوبَةٌ كَنُجُومِ الْمَمَاعِ أَنْتِ

بَاقَةٌ مِنْ أَزْهَارِ الرَّبِيعِ أَنْتِ

فِيثَارَتِي، لِحْنِي، أَغْنِيَتِي أَنْتِ

حُورِيَّةٌ مِنْ أَعْمَاقِ الْبَحْرِ أَنْتِ وَظَبِيَّةٌ رَانَعَةُ الْخِيَالِ.

وقال أيضاً:

أَغْنِيَةُ الْمَجَالِسِ أَنْتِ

وَتَرَاتِيلُ الْأَدِيرَةِ وَالرَّهْبَانِ

وَكِرْمَةُ الشَّاعِرِ أَنْتِ

زَادَتْسِي عَاقِبِيدَهَا هَيَاماً وَاشْتِيَاقاً.

يصف دلال حبيبته في مشيتها:

كَأَنَّكَ الْبَحْرَ فِي أَمَاجِهِ

حِينَ تَتَمَايَلِينَ فِي الْكُرُومِ

كان حبه في الغالب عذرياً، إذ وردت كلمة "القبلة" مرة واحدة في أشعاره:

قَبْلَةُ الْحَبِّ لَكَ

كَقَبْلَةِ الْمُتَعَبِّدِ لِلصَّلَاةِ

يقول أيضاً:

قَفَزْتُ مِنْ حُلْمِي حِينَ دَنَتْ أَنْفَاكَ مِنِّي حَبِيبَتِي.

ويمدحها حائراً:

بِمَاذَا أَصْفَاكَ أَلْأَحْرَبُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَهْتَرَى

أَلْأَشْجَرُ فَالْخَشَبُ لَا بُدَّ أَنْ يَنْشَرَّ

بِمَاذَا أَصْفَاكَ حَبِيبَتِي لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا لَمْ أَذْكُرْ.

ويسترسل قائلاً:

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

أَبَاحُورٍ أَشْبَهَكَ

وَالْحَوْرُ يَحْرِقُ.

ويستطرد قائلاً:

جَوْهَرَةٌ نَادِرَةٌ أَنْتِ طَوْبِي لِذِي يَحْطِي بِهَا

حَبِيبُكَ يَسْبَعُ الْآهَاتِ وَنَأْيُكَ يَأْتِي بِالْوِلَاةِ.

أشعاره عن الحبيبة والحب والعشق كثيرة وكان يسمى بـ"خادم الحب" فهو

مستعد للتضحية من أجلها حين يقول:

إِنْ طَلَبْتَ الْخُلُودَ فَدِينِكَ بِرُوحِي.

نلاحظ عند صياد نوحاً في البداية العاشق المقيم بجمال ومحاسن حبيبته ولكنه

يتحول تدريجياً إلى إنسان يائس إذ يقول:

عاشقُ فاقدُ اللبِ أنا تائه بين الدروبِ
همومي كالسيفِ ذي الحدينِ أني لعاشقُ تحملها
حبك أحرقَ قلبي جعلني كطائرٍ القطا أرقصُ ألماً يا مقلّة العينِ.
كذلك يقول:

أشهدُ أن لا حبيبةً في الدنيا إلا أنتِ.

وللحب مكانة قدسية لديه:

لا، لن أحبُ غيرك أنتِ الوحيدة في الدنيا.

ونجد ألمه وحيرته في أبيات جميلة:

جورِيّةُ حمراءُ أنتِ تنأجِرُ من البلبَلِ
مبهرة قمريةُ الوجهِ أنتِ إن اكتملتِ كنتِ البدر والقمر
ضفائرُ شعركِ تتجددُ إن لم تبتلي بالندى
من يمعنُ بالنظرِ إليك مسكينٌ يستوءُ دربه
أفسيرُ الحياةِ لذيلكِ فأنثى البذاءِ وأنتِ منبتُ الروح
في حضنك الورودُ والبنفسجُ والزنبقُ والياسمين صانعُ يدكِ
العالمُ بحرٌ وأنتِ قاربٌ فيه تلهينُ تمرحين مع الأمواجِ
أنتِ من أزهارِ البحرِ وبنفسجةٍ تفتحتِ تتمايلين مع الرياحِ
كيف لي أن اتحملَ هذا العشقَ فيا صياد نوفاً جررتك السيولُ
بلمحةٍ تسلبين ذا السببِ عقلهُ وتجعليه مسحوراً بعدد ذلك.

حبه العميق يحرقه فيقول لها:

نارُ أنتِ ونارُ خماركِ باي نارين أحترق.

ويتألم من تصرفاتها قائلاً:

ما الخطبُ يا عمري للتحيةِ لا تردين

أَبْدَا مَنْسِي شَيْءٍ يَزْعَجُكَ يَا مَقْلَةَ الْعَيْنِ؟
 إِنْ اكْتَفَيْتُ بِالْعَالَمِ عَشْقًا فَبِعَشْقِكَ ظِلْمَانُ أَنَا يَا مَقْلَةَ الْغَيْنِ
 لَا تَسْأَلِينَ عَنْ حَالِي وَأَنَا الْمَتِينُ بِالْهَوَى
 وَأَحَاطَهُ الْيَأْسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَهُوَ يَقُولُ:

جَفْتُ دُمَاءَ قَلْبِي مِنَ الْآهَاتِ
 لَوْعَةُ كِبْدِي كَادَتْ تَهْلِكُنِي

جَاحِظُ الْعَيْنَيْنِ ظِلْمَانُ مَسْحُورُ الْلِسَانِ
 فَفَدْتُ عَمْرِي كَالْحِلْمِ، حَرَمْتُ مِنَ الثَّمَرِ شَجَرَتِي.
 وَيَتَمَنَّى التَّوَقُّفَ عَنْ نَظْمِ الشَّعْرِ وَالْغِنَاءِ حِينَ يَقُولُ:

فِيَا لَيْتَ شَعْرِي لَقَدْ جَفَّ فِي حَلْقِي
 وَلَجِمْتُ فِيهِ مِنْ لَوْعَةِ الْكِبْدِ.

وَيَصِفُ حُبَّه الْكَبِيرَ وَالْمَجْنُونِ وَالْيَأْسَ:
 عَشْقُكَ جَعَلَنِي مَجْنُونًا مَجْرُوحَ الْفؤَادِ هَالِمًا عَلَى وَجْهِ
 عَشْقِكَ بَحْرًا أَنَا فِيهِ كَقَارِبٍ صَغِيرٍ يَا مَقْلَةَ الْعَيْنِ.

وَلَدَرَجَةً أَنَّهُ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ كَيْ تَأْتِيَ الْحَبِيبَةَ وَتَبْكِي عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ تَكْشِفُ عَنْ
 رَأْسِهَا (هَذَا تَقْلِيدٌ وَتَشْيٌ بِجَسَدِ الْحُزْنِ عِنْدَ النِّسَاءِ):

يَا لَيْتَنِي أَفْنَى فَتَبْكِينَ عَلَيَّ وَشَعْرُكَ كَالْأَشْعَةِ مَنْشُورًا يَا مَقْلَةَ الْعَيْنِ
 وَتُعْبِيرُ مِثْلَابَهُ آخِرَ حِينَ يَقُولُ:

لَنْ أَبْتَغِدَ عَنْكَ مَا لَمْ يَحْنِ أَوَّلُ الْمَوْتِ.
 حِينَهَا أَسْدَلْتُ عَلَى قَبْرِي جِدَائِلَ شَعْرِكَ الْحَرِيرِ.

وَكَانَ يَعْنِي الْفَارَقَ الطَّبَقِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَبِيبَتِهِ الْغَالِيَةِ، فَمَكَانَتُهُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ
 مُتَوَاضِعَةٌ، وَيَقُولُ:

أعلم يا حبيبتي أنك لست لي
 أنتِ ملكة وأنا درويش تائه.
 لكنه يملك الكرامة وعزة النفس لذلك يؤكد ويقول:
 لو تحوكت الصخورُ إلى جواهر فلا يهمني
 لو ابتعد الناسُ عني فلا يهمني
 قلبي بنار الحب ملتهبٌ فذاك يبعدكم عني
 أبعادوا الشمسَ عني فظهري عحملٌ بثلوجٍ من الهم
 فهو في حيرةٍ من أمره أيخضع لعواطفه أم يتحرر منها، فيقول:
 أيخدم خادمٌ صاحبين
 أم يستقي حقلين.
 ويضيف:



لوعة القلب لا تطفئها السيول
 يحاول اللجوءَ إلى طريقةٍ أخرى للتخلص من مأزقه:
 يا ليت مرشداً يهديني في الكونِ
 يحرر القلبَ من حبك يا جميلتي
 فنارُ حبه لا تُخمدها نصيحةٌ أو وعظٌ لذلك يختم قوله بالأبيات التالية:
 لو اجتمع سبعةُ حكماءٍ لنُصحك
 فيا صيادِ نوافٍ مصيرك محتوم
 فهو صريحٌ وحكيمٌ في أقواله:
 محترماً من حافظٍ على اعتباره.
 عزة النفسِ عندهُ كبيرة:
 ليت عمري يمضي دون أن أمنُ على أحدٍ
 ليت همومي تمضي دون أن أمنُ على أحدٍ

مهلاً لبيتني التقيتُ الخيرَ فللشرِّ لا أحد
أحافظُ على صورتي بالمرأة معززةً دون أن أمنُ على أحد.
لكنه يخاف من الحياة:
أنفخُ اللبنَ خائفاً من حرقة الحساء الساخن للساتي
كيوتُ كيوهُ الذئبِ العاجز عن الحراك المكسور الظهر.
اشتهر صياد نوما كشاعر للعشق والحياة وحملت إلينا أشعاره فلسفة "الحب"
ولكنها لا تنحصر ضمن مجال الوصف لمحاسن الحبيبة والحبِّ البائس والتذمر بل
له أبيات كثيرة يحل فيها الحياة بذكاء وحكمة ويملك نظرة ثاقبة.
ونجد ذلك في الأبيات التالية:

إن رغبتَ العيشَ كسيدنا إبراهيم
عليك المثابرة على إيمانك وأملك
قدرك هو الذي كتب على جبينك
من يستطيع الهروب من مشيئة الله
أصغِ إليها القلبُ المجنون لكن كالملاح والخيرُ هذه النصيحة
أبعدُ امرأتك عن الجلوس على مائدة الغريب
واحذر. فامرأته حرام عليك
أيها القلبُ إن الروحَ هي للعبادة في هذه الحياة
فلا تقترب من المالِ الحرام
أصغِ لك نصيحة أخرى
صياد نوما لا تهزل بعيداً عن الحياة.

يوجه هذه الأبيات للحبيبة وأيضاً لرفيقه، فيقول:
اجعل لكلماتك معنى فأتت صاف ونقي يا أخي

أنت ماء الحياة الذي يملأ الإبريق الذهبي يا أخي
أيشبع الذي ينهل من هذا الماء أنت نبع من الحليب يا أخي
العالم بحر أنت قارب فيه تلهو كفقاعة يا أخي
أخاف أن تحرقني فأنت نار لا تخمد يا أخي.
وتتمثل الحكمة في الأبيات التالية:
هناك من يرى الحياة في كأس النبيذ
والآخر في الحفلات والمجالس
أما لساتي فيعشق للكلمة الحرة.
وقال أيضاً:
الإنسان يُعرف من لساته حتى لو أصبح وزير الشاه
ولا يهاب أحداً حين يقول:
الحقيقة لا تفتى وإن حُرقت بالنار
ابتروا لساتي إن كذبت أفنوا بروحي
الله في السماء أنا على الأرض أعدكم بأن لا يمس الكذب لساتي.
ويدرك أنه ما هو مسموح له لا يسمح لعامة الشعب قاتلاً:
لساتي الأشوغ مثل البلبل يملك البركة
لا اللعنة
يعيره الشاه اتسبأها، والجلاد
لا يقدم على قتله
يتمنى مانحاً الخير والبركة للعالم:
أكشف عن حمل أوزع الحظ للقادمين
أمنح رأسي ضحية للراضين والرافضين.

ويقول مدافعاً عن مصالح الشعب:
أنا لا أهاب الموت لكني أبكي من أجل الناس جميعاً.
لقد استبعد صياد نوحاً عن القصر الملكي الجيورجي عام (1752) بسبب
الأقاويل والفتن.

كتب في هذه المناسبة أبياتاً كثيرة يرفع صوته إلى الملك "هيرقل" يلومه تارة
ويمدحه تارة أخرى، أملاً أن ينال العفو ورضى الملك.
يقول له في أغنيته المشهورة جداً:

أنتَ إنسانٌ حكيمٌ للأحمق

لا تصغ

عن منام رأيتَ
لا تحاسبني.

وبصراحة أكثر:
احتفظ بصفاء قلبك، بعيداً عن التصديق
أقوال القاصدين

ويضيف محافظاً على كرامته ومكانته كما يليق بشاعر:
لا يقدر أي واحد أن يشرب فمائي مـخـتـلف
لا يقدر أي واحد أن يقرأ فكتابي مـخـتـلف
لا تظنوا أن من الرمال بنيتي أنا من الحجر الصلب
كالسول لا يعرف الهدوء فلا تحاولوا هدمها

يبرز مدى أهميته عندما يوجه كلامه لهيرقل الملك:

إن مت لن تلتقي بمتلي

فتأ شاعر بلاطك ليتك تضمن بي.

كان إخلاصه للملك كبيراً ومع ذلك نلاحظ في قصيدته اللوم المبطن حين

يقول:

احتفظ بصياد نوفا ولا تبعده عن بيتك
طوال عمرك لن تلقى خلاً أميناً مثله.
كان الملك "الأب الروحي الكبير" بالنسبة له، ويقول متألماً:
لو استطعت الكشف عن قلبي
همومي كالبحر

إن أبعدتني عنك فمن هو البديل
ويستمر حول ذنبه من خلال أبيات كتبت في عام (1753) قائلاً:
همي كبير لا يمكن البوح به
كتبت رجائي وتركته لرحمة الحاكم
احكم بالحق واعدل في محاكمتي
وإن كنت مذنباً فليكن حبل المشقة من نصيبي.
في ربيع (1753) كتب القصيدة التالية وقد كان مطروداً من القصر متشائماً
لكنه قلبه كان يحن إلى الحبيبة:

هيا أصغ إلي يا قلبي المجنون
أحب الحياة، أحب الأدب، أحب الكرامة
إن كان العالم في ثبات فماذا تأخذ منك
أحب الله، أحب الروح، أحب الحبيب
لتكن أفعالك مرضية لله
هناك نصائح ثلاث هي عن الروح والجسد
أحب الكتابة، أحب القلم، أحب الدفتر
فيا قلب هيا اقبل لا تطمع

الخبز والملح الحلال لا ينكر
افعل خيراً لا يسخر منك أحد
أحبب النصيحة أحبب الصبر أحبب الخير
صياد نوما مرحى لك إن فعلت ذلك
من أجل روحك منحت نصف عمرك
إن رغبت بأن لا تحاسب في النهاية
أحبب الدير، أحبب الصحراء، أحبب الحجر
حكمته أيضاً للحبيبة بمغزى مشابه من خلال الأبيات:
أصغي إلي، أنا فذاك فتمهلي يا جميلتي
فلمن دامت الدنيا حتى تدوم لي ولك يا جميلتي
ويبدو أن محاولاتـه الكثيرة ورجاءه الحار عند الملك كانت غير مستجابة
لذلك يقول:
أنت الملك قمصوري بين يديك دام عزك
إن كنت مذنباً أرجعني بحجر دام عزك
أينما ذهبت خذني معك دام عزك
 نجد في الأبيات التالية وصفاً للسخرية وكلمات السخط التي تعرض لها
بعدئذ:
قال أحدهم: "ارحل" فخرقة بالية أنت
وقال آخر: "بئر كربه الرائحة أنت".
وقال كذلك:
لا خطيبة لي ولا زوجة
في المجلس كنت موضع السخرية
كائن أنا من عامة الشعب دفنت حياً.

وأيضاً:

حاملُ العود بيدي مهيناً
ذهبتُ إلى الملك مهينداً
منعني الحرس. مكسور الشوكة
تمنيتُ لو لم أقدر فهم لغتهم
قالوا: "أذهب يا ذا الوجه الأسود".

ويقف صياد نوحاً مهان الكرامة ومتألماً يخاطب الملك متمنياً أن يكون عقابه
من الملك مباشرة وليس على يدي مرافقيه حين يقول:

بإذن الله يجب أن يكون المرء رحيماً
من يعلم الجبل أن يلقى الجبل
ليتك بالضرب تصحنتني
وكان عزلي وإهانتني على يدك
كونك والدي الروحي الكبير أنت.
ونجد الإهانة واليأس في الأبيات التالية عندما يقول للملك:
لو حطموا قلبي ونصبوه على الخشب
لن أفارقك ما دامت أنفاسي على شفتي
أرمي نفسي في البحر ربّما أتقّذني نهر الكور⁽¹⁾

وفي عام (1758) نظم الأبيات التالية عندما أعيد إلى القصر فترة ثم أبعد
منه للمرة الأخيرة ومن المتوقع أن ذلك حصل في عام (1762).

⁽¹⁾ اسم نهر في جيورجيا.

يقول فاقداً الثقة والصدقة:

أصحابي تحولوا إلى أعداء لي فألن الأمان

قل الملح والخبز لم يبق الضمان

فقد الأمان الحقيقي لم يبق للحكمة مكان.

يقول أيضاً:

لا تصدقوا لا اعتبار للدنيا

لم يبق هناك شعراء ولا أصحاب عشق.

لكنه إنسان بعدنه ويتفوق على اللذين أهانوه. فيبادل الكره بالخير رغم أنهم

حاولوا تحطيم قلبه:

هيا اخدم محملاً بالهم يا خادم الشعب صياد نوحاً

فليس بإمكان أحد الحصول على الرقي

امنح الحل لمن يعطيك المر.

ونلاحظ هنا أنه يستعيد فكرة رجوعه إلى القصر الملكي ولم يعد يطلب من

الملك محكمة عادلة إنما حياة متواضعة: <http://Archive>

ارفع يديك، أنا الشرُّ لا أريد

ففي هذه الدنيا الفخامة لا أريد

فكرامتي غالية. الإساءة لا أريد

أنا من العامة. المكيدة لا أريد

أرغم صياد نوحاً على الاعتماد ليس فقط عن القصر الملكي بل حكم عليه

بقضاء بقية حياته كاهناً.

صياد نوحاً شاعر البلاط المشهور، المغني والملحن الكبير ارتدى لباس

الكهنوت مرغماً وسمي باسم جديد هو "الأب استيفانوس" ويعتقد أنه بعد وفاة

زوجته أصبح مطران دير "هاغباط" وسمي "الأب تافيت".

والسؤال الذي يخطر على البال:
ما الذنب الذي اقترفه والذي سبب طرده من القصر؟ نجد الجواب في الأبيات التالية:

يا صياد نوحاً بلسانك زدت من آلامك
فاستعد للتأخي مع الآلام والهموم.
إن دفتره الشعري أغلق عام (1759) أما الأبيات التالية فقد كتبت في عام (1768).

يا ترى ذنب من؟ من أين صدر؟
إنها ثمرة فؤادي كل الذي حصل.
تذكرنا هذه بأبيات أخرى يقول فيها:
الإنسان عديم التجارب يندم كثيراً.
ذهب صياد نوحاً ضحية مكيدة فظيمة إذ تحول من عاشق محب إلى ناسك متعبد. انتقل من القصر الملكي إلى دير في قرية متواضعة. فقد تنبأ الشاعر بهذا الحدث وهو يقول لحبيبته من خلال الأبيات التالية:

ماذا أعمل بمال الدنيا من دونك
أليس عبادة من الشعر، من الخام
أمضي تائهاً من دير إلى دير.

كذلك لم يخطر في بال صياد نوحاً أنه سيفقد آتاه الموسيقية الغالية.
من خلال قصيدته المشهورة التي كتبت عام (1759) يمدح فيها الكمنجة نجد:
أنت بين كل الآلات الموسيقية أكثر مدحاً يا كمنجة
من يستطيع سلبك مني أنت نغم الشاعر يا كمنجة
التمست الحضور قالوا يحيا عزفك
ما دام صياد نوحاً على قيد الحياة سترين العجائب يا كمنجة

■ أشعار أرمنية ■

لكنه عاش قرابة خمسة وثلاثين عاماً بعد كتابته لهذه الأبيات بدون الكمنجة الحبيبة فقد سلبت منه الكمنجة إلى الأبد.

له قصيدة مشهورة من المحتمل أنها كتبت بعد ثلاثة أشهر من قصيدته السابقة.

وقد توصل فيها صياد نوحا إلى ذروة اليأس وتنبأ بحسنة المرفف المصيبة القادمة قاتلاً:

الدنيا نافذة ضيقة	تعبت من القناطر
الناظر منها يتألم	تعبت من الجروح
أمسي أفضل من يومي	تعبت من القادم
مزاج المرء يتقلب	تعبت من الغناء
أرغب بالطيران كالنمل	تعبت من الحياة.

كان لكاثوليكوس الجيورجي "أندون" دور هام في عزل صياد نوحا والقضاء على حياته الاجتماعية.

وهنا يقول صياد نوحا للكاثوليكوس:

نيافة الكاثوليكوس

أقدم لك احترامي

يقولون أن جيوبك مليئة

فمن أين لك ذلك؟

يبدو أن الحوار كان حاداً بينهما واتهام الكاثوليكوس واضح في الأبيات:

وجهوا الأسلحة القاتلة إلى صدي

إتي ادعى بالصوفي

أنا الذي فقدت فؤادي

يا ترى كيف كان ذلك؟

يُقال بأنه كانت له تصرفات مشبوهة وإنه كان يتصلل إلى مدينته المحببة تيفليس ليلاً لإقامة حفلات فيها. وقد عوقب من قبل المطران آنذاك وعزل أيضاً عن الدير مدة سنتين ثم أعيد اعتباره. كانت الحياة تسري في دم صياد نوحا فلم يستطع الساقلم مع وضعه في الحياة الكهنوتية. وآخر أشعاره التي وصلت إلينا تقول:

أنا صياد نوحا كاهن دير هاغياط
ليس لدي زيت لإضاءة قنديلي.

هاجم آغا الفارسي مدينة تيفليس ودمرها في عشرين أيلول عام (1795). حسب الأسطورة كان صياد نوحا "الأب تافيت" هناك يدافع عن مدينته المحبوبة حاملاً السيف مع شعب تيفليس الباسل. ويعتقد أنه استشهد في المعركة وهدر دمه من أجل حرية شعبه ومدينته وقدم لنا صورة لا تنسى عن روح التضحية والإنسانية.

قال الشاعر الكبير هوفهانيس تومنيان عن صياد نوحا في ذكرى إعادة إعمار قبره الذي تم بجهوده ومشاركة الجالية الأرمنية في تيفليس بعد مئة عام من وفاته: جاء بالأشعار

ذهب بالآهات صياد نوحا

جاء بأغنية

ذهب بجرح صياد نوحا

جاء بالحب

ذهب بالسيف صياد نوحا

بقي بالحب

صياد نوحا



الشاعر نرسيس شنور هالي

■ بقلم: سربوهي هايرا بيديان

■ ترجمة: نزار خليلي

ترك الآلاف من الأرمن في القرن الحادي عشر وطنهم الأم أرمنية هرباً من المشاكل العديدة التي كانوا يعانون منها. ولجؤوا إلى مملكة كيليكيا المستقرة ليعيشوا بسلام في ظل الكرسي البابوي الذي انتقل إليها للسبب ذاته، طلباً للعيش الهنسي بعد ما دأقوه من العنف الطبقي والعصبية الدينية اللذين شلا الحركة الفكرية والاقتصادية.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ودأب اللاجئون حين انتقلوا إلى كيليكيا على بناء الكنائس والأديرة والمدارس في أهم المدن مثل: روم كلا - تراناركي - سكيغرا - لامبرون ودارسون استمراراً لحياة يشوا من أن تكون سعيدة.

ووجدوا في موطنهم الجديد بالفعل استقراراً وأماناً أطلق لقرايح مفكرهم العنان لتسيح في أجواء الطبيعة الخلابة، يستوحون منها مواضيع أعمالهم الأدبية والفنية، فأبدع فلاسفتهم وشعراهم وفنانوهم، وقدموا أروع ما جادت به نفوسهم.

في ظل ذلك الاستقرار، وإلى جانب كل الروائع الثقافية، انتعش الشعر الأرمني الغنائي، الذي طغت عليه اللغة الدينية في البداية، حين كانت المفاهيم الدينية مسيطرة على الفكر الإنساني، ترفض كل ما عدا ذلك من الفنون وتعتبره خارجاً عن الدين مهما كانت الأحاسيس فيه سامية.

في ظل هذه الظروف، برز شاعر شاب، تعرف على حضارتي الشرق والغرب وتغذى من بدائع الطبيعة وخرج عن المألوف وطلع على الناس بأبلغ الترائيل الكنسية وأجملها التي ما زال بعضها سارياً حتى يومنا هذا إنه نرسيس شنور هالي.

ولد نرسيس شنور هالي عام 1102 في حصن (دزوفك) في مقاطعة (دلوك) الواقعة شمال كيليكيا بين مدينتي خربوط وعنتاب في عائلة أبيراد بهلواني، من أسرة بهلواني النobile أصحاب الإمارة الحاكمة.

تيتم وهو في السنة الأولى من عمره مع أخيه الأكبر كريكوريس من الأبوين فكفلهما عمهما الكاثوليكيوس كريكور فكاياسير. وبعد موته، عاشا في كنف الكاثوليكيوس بارسينغ أنيتسي، الذي عهد بهما بدوره لتعليمهما وتربيتهما إلى الأسقف المشهور (ستيفان مانوك) في الدير الأحمر في كيليكيا.

في العام 1113، تولى أخوه كريكوريس، وهو في العشرين من العمر تقريباً كرسي الكاثوليكية خلفاً للكاثوليكيوس بارسينغ أنيتسي الذي توفي إثر نوبة قلبية مفاجئة.

على أن الظروف الميسية الطارئة لم تتركهما في نعيمهما بل أجبرتاهما على الانتقال من الدير الأحمر إلى (روم كلا) أي (قلعة الروم).

بعد إتمام دراسته، رسم نرسيس كاهناً على يد أخيه كريكوريس الذي لاحظ أن أخاه رجل الله، شاعر بالفطرة موهوب، لذا حمّله مسؤولية الإشراف على الكنيسة.

لم يخيب نرسيس نظرة أخيه إليه، بل راح يؤدي واجبه على أكمل وجه، فرتب مواعيد الطقوس الدينية وزودها من شعره بترائيل وصلوات ما زال بعضها كما ذكرنا أنفاً سارياً حتى اليوم.

في العام 1164 استقال أخوه كريكوريس من منصبه الكاثوليكيوسي بسبب كبر سنه ومرضه، بعدما رسم نرسيس خلفاً له. وبعد ثلاثة أشهر توفاه الله ليستريح إلى جانيه. وتولى نرسيس زمام أمور الأمة الأرمنية الممزقة المدمرة وراح يعمل بجد لإصلاح ما يمكن إصلاحه سياسياً واجتماعياً ودينياً. لكن انشغاله بأعباء

الكنيسة لم يمنعه من الاهتمام بالأدب شعراً ونثراً حتى وفاته عام 1173 عن 71 عاماً من العمر.

حصل نرسيس لقب شنور هالي (الوديع) لما عرف عنه من دماثة في الخلق والوقار. وفوق كل هذا كان متعدد المواهب: فهو خطيب وسياسي محنك، ومرب فاضل، وشاعر عبقري، ونائر مجيد وملحن موسيقي. إلى غير ذلك من الأمور التي جذبت الناس إليه وجعلته قبلة أنظارهم، فراحوا يطلقون عليه ألقاباً مشرفة مثل: (الحكيم) (المنور المثالي) (الكاهن العالمي) (النور المضيء) وغيرها. ولم يكن ليحظى بكل هذا التقدير لو لم تؤهله مواهبه الفطرية الشاملة المواكبة للثقافات العالمية التي صقلها له كل من العالمين الفاضلين هوانيس ساركافاك وكريكور ماكيسدروس مع أريسداكيس لاسديغيرتسي، ووضعوه على درب الأدب الأرمني الصحيح. مسار نرسيس في هذا الدرب حاملاً مشعل الشعر الأرمني الذي بدأ بتطويره في القرن العاشر ووصل القرن الثاني عشر بفضلته إلى موقعه العالمي.

على أن عبقرية شنور هالي في الشعر لم تقل من شأنه في النثر، فهو نائر في خطبه ومواعظه وبعض كتاباته التي اعتلت مكانة مرموقة من الأدب الأرمني.

نظم شنور هالي أشعاراً تتضمن أمثالاً ملفومة على شكل أحاج وحزازير، دخلت الأدب الأرمني كفرع جديد لم يكن معروفاً من قبل تحت عنوان (أمثال لتسلية الإنسان) صاغها بلغة شعبية دارجة أخذ مواضيعها من الحياة اليومية يهدف من ورائها إلى شحذ أذهان الناس وتسليةهم في آن واحد، ولقد ألف في هذا المضمار 300 مثل تتقسيم إلى قسمين: قسم ديني وقسم دنيوي. ولقد اقتبس مواضيع القسم الأول من العهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس، رمزية في تركيبها تجريدية في مضمونها. أما القسم الثاني فأخذ مواضيعه من الروايات الشعبية وعوالم الإنسان والحيوان والطبيعة. وهي شعبية لا بموضوع الأحاجي وحسب، بل بالصور والمفاهيم والأسلوب واللغة. علماً بأنه قدم أحاجي القسم الأول بلغة (الكرايار) بينما قدم الثانية باللغة العامية الدارجة.

نسرود على سبيل المثال أحجية تدور حول السماء تقول:

الكنيسة عالية واسعة،
قائمة لا عمد ولا سند،
قناديلها ليست معلقة بحسد،
وضاعة من دون زيت.

على هذا النمط من هذه الرباعيات نجد الكثير الذي يشمل كل المخلوقات،
معتبراً الإنسان وحده معجزة الطبيعة، وما الدنيا سوى مضافة تستضيف
المخلوقات ردىاً من الزمن، تكرمها خلال فترة الضيافة، ثم تلفظها وتتركها
عرضة للنفاء والتلف:

توجد على الأرض مضافة لعابري السبيل
ولكل من يؤمها من المخلوقات،
يؤمها الأغراب،
ويغادرها المعارف،
أما سدننها والقائمون عليها،
فيكرمونها الضيف إذا جاء،
ويسلبونه حاجته بين يروح،
هم لا يسرقون له بعض أشياءه،
بل ينهبونها كلها.

أما أحبيته عن الكتاب فمشوقة جداً:
هو دار مفتوحة كصفحة بيضاء
دخلته دجاجات سود
لتبيض بيضاً للأجيال
تتكلم بلسان الناطقين.

نظم شئور هالي معظم أحاجيه على وزن 4*4 وهو يطابق بحر الرجز
مسـ/نقـ/عـ/لن الذي يصلح للغناء، لذا لحن أحاجيه وصارت تغنى في
الاحتفالات والأعراس لإدخال البهجة إلى قلوب المحتفلين، وبذلك صار هذا النمط
من الشعر واحداً من الأنماط الجديدة في الأدب الأرمني.
كذلك، وبهدف التعليم، وبناء على طلب من الطبيب الأرمني الكبير مختار

هيراتسي عام 1162 نظم أرجوزة (السماء وزينتها) التي تتحدث عن الأجسام الفضائية وطبيعتها وحركاتها، لكن الأرجوزة لم تنجح في الوصول إلى هدفها ولم تحظ بقيمة تذكر.

من الأعمال التاريخية الروائية الشعرية، رواية (الرواية) التي تتحدث عن تاريخ الأمة الأرمنية اقتصسها من كتاب (تاريخ الأرمن) للمؤرخ العظيم موسيس خوريناتسي، ورواية (رثاء يتيسيا) كان فيهما الرائد في ميدان القصص التاريخي المنظوم. وقد نالنا إعجاب النقاد والمدققين لأنهما نظمنا بأسلوب جذاب على الرغم من فقر القافية وضعف التركيب.

تعد ملحمة (رثاء يتيسيا) من أبداع أعمال شنور هالي بل هي تشكل زينة الشعر الأرمني في القرون الوسطى لما ترويه من أحداث محزنة شملت تدمير يتيسيا في أرض الرافدين.

تتألف الملحمة من 2096 بيتاً من الشعر تنقسم إلى أربعة أقسام:

المقدمة - حصار المدينة - إبادة أهلها وتدميرها - استئزال اللعنات على الأعداء والتطلع إلى المستقبل.

استعمل المؤلف في ملحمة أسلوب التشخيص في الرواية، وهو أسلوب جديد على ذلك العصر، إذ شخص مدينة يتيسيا، بامرأة تكلت بنيتها وراحت تنوح عليهم. وما من مواس وما من معبر عن الأسى والأسف، وما في الميدان غير المرأة التكلت يتيسيا تبكي وتتوجه إلى شعوب العالم وإلى المسيحيين وإلى الكنائس والبلاد ذات النفوذ كالقدس والإسكندرية وروما والقسطنطينية وأنطاكية، تطلب الرحمة، من دون أن تسمع صدى صوتها:

ابكوا، ابكوا، بصوت عال
نوحوا على بحرقة
أنا يتيسيا، مدينة أورها
فقدت رجالها، وخلفت أيتاماً وأرامل
أناديكم بصوتي التمسائي
أعول وأسترحم

مسقطه وشاحي عن رأسي
كاشفة عن زينتي المقدسة
مقطعة شعري العزيز
معفرة رأسي المشعث
ضاربة صدري بالحجر
ملطخة وجهي بالوحل
أجلس مع حزني في ظلمة الليل
هاربة من ضوء النهار
وبدلاً من أقمطة الأطفال
أحمل بيدي منديلاً أسود، شغار الحزن
أنرف الدموع الغزيرة
مثل مياه نهر صاخبة جارفة
بعدما صرت زرية في البلاد
مفضوحة بين العباد.

لا عجب بعد هذا من أن نرى جذور هموم الأمة تنغرس في فكر شنور هالي
لتمتد من كياكيا إلى أرمينية الكبرى يرثي ضياع مجدها وزوال ملكها ويحزن
على معاناتها على مدى الدهور، وعلى وضعها الحالي المؤلم، فيتذكر الملك
فاغار شباد العظيم ويتذكر مدينة آني الموجوعة التي لا يختلف قدرها عن قدر
يتيسيا بعدما تمزقت على دروب التاريخ، وخسرت بهاءها ورونقها وصارت
أطلالاً خربة، فراح يسأل فاغار شباد عن يتيسيا وعن بلاد الأرمن عموماً:

إني أتساءل أيها الجليل
وأرجو أن ترد على تساؤلي
أين هو عرشك الآن؟
أين هو تاجك وسراجك؟
عروس ابن الملك.
ماذا حل باحتفال العرس؟
أين هو الكرسي البابوي المقدس؟
أين الأساقفة في المحفل المقدس؟

أين الكهنة الموابيون؟
الذين يستعدون للمناولة؟
أين هو عطر البخور الفواح؟
أين تواريت أيها الجليل؟
يوم عيد الرب.
لقد ضاع عرش
مدينتك فاغارشباد
وزال مجد الملك السابق.

وفيما هو يتأثر ويحزن لما أوقعه هذا الصراع بين المتحاربين لا يرى فرقاً
بينهم من القادمين للدفاع عنهم والقادمين للهجوم عليهم، لأن كل فريق يسعى إلى
تدمير ونهب ما تصل إليه يده غير عابئ بالمآسي التي يخلفها، ومن خلال هذا
الحزن يتذكر محاسن المدينة الطبيعية بإحساس شاعر مرهف ويقول:

منها، ينبع ماء الحياة،
لنبت غرس الزهر الوديح،
فيجري مثل نهر وديح،
يروى البساتين الجميلة،
فيفور في داخلي بحر عظيم،
يضحك للنسيم العليل،
ويغسل أدران الوحل،
ويزين الساحات الواسعة،
فينبت غرس مختلف الألوان،
كمثل ما في جنة عدن،
فتكتاف أوراق الشجر،
وتعطي ثماراً شهية،
وتتميل أغصانها تحت ثقلها بدلال،
لتفوح منها رائحة الخلود.

في نهاية الملحمة يستنزل اللعنة على رأس العدو ويطالب بالانتقام من الجلاذ
ومعاقبته على عمله، فيقول مخاطباً بتيما:

لقد أفلت شمسك بالسيف،
وتبيس زرعك التضير،
ونقطعت أوصال حياتك،
التي وضعت أملك فيها،
فضعت وضاع معك
الآلاف وتشردوا
تشردوا وراحوا يتسولون،
وأخرجوا من ديارهم مهجرين،
وبدلا من أن أتتعم،
وينعم أبنائي بثرواتهم
جاء الأعداء ونهبوها.

بعد هذا يخاطب أبناء يتيسيا على لسان يتيسيا نفسها، يؤنبهم ويعدهم بأكاليل
في السماء خالد:

أما أنتم يا أبنائي الأحياء،
فستم أمواتا وإلما أحياء،
لأنكم آمنتم بالأرض،
فكللتكم إلى السماء



من أعلام الشعر الأرمني الحديث

■ بقلم: كتاب أرمن ■

■ ترجمة: نبيل المجلي ■

هو هوفهانيس توماتيان *hovhannes Toumanian* شاعر ونثر أرمني. ولد في قرية تسينغ وتسمى حالياً "منطقة توماتيان" وتوفي في موسكو. استقر في تبليسي منذ عام 1883 حيث عمل في مجال الأدب. بدأ إبداعه بكتابة القصائد الوطنية إلى جانب الأغاني الشعبية.

اشتهر توماتيان الشعاع بعد أن ظهر ديوانه (*panasdeghtzutiunner*) "قصائد" (1890-1892) وخلال تلك الفترة كان يكتب أيضاً في عدد من الصحف الأدبية

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

لقد أضحت تصوير حياة الناس والرغبات الوطنية والاجتماعية من أولويات الأدب الأرمني في نهاية القرن. وقد جسد توماتيان ذلك بشكل جيد. فقد كان يرى أن الأدب الشعبي الحقيقي يجب أن يتضمن الروح الوطنية والألم والسعادة والعداوات والأحاسيس. كان توماتيان يصور في قصائده الصادرة في عام 1980 الصراع النفسي / الاجتماعي للريف الأرمني. في هذه الفترة، طور إبداعه على نهج الواقعية، إلا أننا نلمس تأثيرات الرومانسية في قصائد الشاعر الشاب ويبدو ذلك جلياً في قصائد (alek) أليك و (merjatz Orenk) "قانون الرفض" و (anoush) "أنوش" حيث يتسم أبطاله غالباً باستثناءات رومانسية. وصلت أعمال توماتيان إلى قمة النضج في الواقعية والشعبية في السنوات الأولى من القرن

العشرين . وفي أعوام 1901-1903 أعاد كتابة (loretsi sako) "ساكو اللوري" و (anoush) "أنوش" مصوراً الحياة الريفية الأرمنية بتفاصيلها وتناقضاتها الاجتماعية. وتعتبر "أنوش" من أهم القصائد التي تنبؤاً مكانه مرموقة في الأدب الأرمني ، ومنها استلهمت أوبرا أنوش عام 1912.

يبرز اسم تومانيان قبل كل شيء بوصفه شاعراً ملحمياً. ففي القصيدة الملحمية (poetn ou mousan) "الشاعر والملهم" يسخر من النظرة البرجوازية إلى الإبداع وعلاقة الشعر بالمجتمع . وفي العام 1902 نظم القصيدة الطويلة (sasountsi tavite) "دافيد الصاصوني" والتي تعتبر من أفضل القصائد البطولية للشعب الأرمني.

نقد أرمسى تومانيان مبدأ استعمال الحكاية الشعبية في الأدب الأرمني لأنها برأيه أساس الأدب، وبناء عليه كتب (AKHTAMAR) "أختامر" 1892 و (HSGAN) "العسل" 1908 و (MI GATIL MEGHR) "قطرة العسل" 1909. وألف أكثر من عشرين حكاية شعبية أرمنية من أهمها (DERN OU TZARAN) "السيد والخدام" عام 1908 و (KATSH NAZAR) "ناظار الشجاع" عام 1912. وتعتبر حكايات تومانيان من أفضل صفحات النشر في الأدب الأرمني الذي استقاه من الطبيعة والحياة الريفية ومن أبرزها (GIGOR) "كيكور" 1907 وهي حكاية ولد ريفي في مدينة برجوازية.

من أروع كتاباته في أدب الأطفال (CHOUNN OU GADOUN) "الكلب والقطعة" 1892 و (ANPAKHD VADJARANNER) "تجار غير محظوظين" 1899.

لفت تومانيان الأنظار إليه فكان أهم شخصية أدبية في السنوات العشرين الأولى من القرن العشرين . وغدا مؤسسا للعديد من الجمعيات الأدبية والاجتماعية، وترأس العديد من لجان مساعدة المهجرين والأيتام أثناء المجازر الأرمنية ، كما انتخب رئيساً لاتحاد الكتاب الأرمن من عام 1912 – وحتى عام 1921.

كتب تومانيان المقالات النقدية في الشعر الأرمني وترجم أعمالاً كثيرة من الأدب الروسي لبوشكين وسواه من عمالقة الأدب و تجدر الإشارة إلى أن شعوب الاتحاد السوفييتي ومنظمة اليونسكو احتفلت في عام 1969 بالذكرى المئوية لميلاده على نطاق عالمي.

بقي أن نقول إن قصائده ترجمت إلى كثير من اللغات الحية ومنها العربية، وأطلق اسمه على عدد من المدارس والشوارع في يريفان كما يوجد متحف خاص مكرس لأثاره . نختار من شعره ثلاث قصائد هي على التوالي:

رباعيات

رأيت كثيراً من الحزن ، وكثيراً من الشور ،

ورغم هذا فإن روحي ما تزال مشرقة .

أيه يا نور روحي ، أنت وحدك تنير

دربي الذي يمتد تحت قدمي

ARCHIVE .

<http://Archive.net/ekshrift.com>

من هناك وبأيدي كثير من الأعضاء

يلوح لي ، كي أعود سريعاً

أعرف: أنك تنادينني ،

يا غابات ويا غياض وطني !

• • •

جرحتُ طيراً ، فعلتُ شراً

ومع أنها مضت سنوات ليست بالقليلة منذ ذلك

فأنا لا أزال أحلم بهذا الطير

وجناحه الملطخ بالدم

• • •

أضحى العالم أكثر تقدماً :
أصبح قاتلاً فقط أكل لحوم البشر السابق ،
إنه — نصف حيوان ، ولكي يصير إنساناً
فإنه بحاجة إلى ما لا يقل عن مليون سنة أخرى

الدعاء القديم

هناك ، تحت شجرة جوز ، منتشرة الأوراق ،
جلس الشيوخ القرفصاء ، كل حسب قدره
في دائرة ملتزمين بالتقاليد ،
يضحكون ، ويشربون
ويمزحون ،

كان أهل القرية — أبائنا وأجدادنا
يطلقون الأحاديث الطويلة مع الكؤوس

<http://Archivebeta.Sakhrir.com> . .

وثلاثة من تلاميذ المدرسة ، كنا نقف إلى جانبهم ،
وقد نزعنا قبعاتنا ، وغضضنا من طرفنا ،
وواضعين أيدينا على صدورنا أدباً
وبأصوات جهورية
كنا نحن — ثلاثة أقران —
نسلمهم بأغانينا

. . .

وها قد انتهينا . عندها ،
وقف عريف الحفل قاتلاً شاربيه

وبعده كلّ الباقيين ،
راقعين الكؤوس المملأى .
قالوا لنا وهم يباركوننا:
"عيشوا يا أولادنا ، لكن ليس كما عشنا"

• • •

مرت سنون ن ورحل أولئك الناس...
أغانيّ القديمة حزينة ...
تذكرت ، ساقياً الحاضر بدموعي ،
لمّ يومها ، كانوا يدعون لنا ،
ويقولون : "عيشوا ، يا أولادنا، لكن ليس كما عشنا..."

• • •

آه يا أجدادنا ! بالكم من مساكين ! سلام عليكم!
كلّ مصائبكم حلت بنا ،
والآن ، في استقبال ساعة الأسى أو الفرح ،
ندعو لأولادنا في طريقهم ،
نقول كلماتكم:

"عيشوا ، يا أولادنا ، لكن ليس كما عشنا"

• • •

في الجبال الأرمنية

دربنا ما كان سهلاً ، دربنا كان ظلاماً
نحن كنا فيه نحيا
عبر المصاعب والظلام

نمضي إلى الذرا، كي نتنفس بحرية
في الجبال الأرمنية،
في الجبال القاسية.

• • •

منذ أمد بعيد ونحن نحمل كنزنا،
الذي ولد في الروح العميقة،
روح الشعب في درب البقاء،
في الجبال الأرمنية،
في الجبال العالية.

• • •

كأنت تنقض علينا من الصحاري الملتببة
<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

تفجع بالمصيبة،
قافلتنا الممزقة غير مرة
في الجبال الأرمنية،
في الجبال المضخمة بالدم.

• • •

كانت قافلتنا منهوبة ومحطمة
وخاوية الوفاض بين الصخور
تبحث عن الطريق،
تحسب ندوب الجراح التي لا تعد ولا تحصى،

في الجبال الأرمينية،

في الجبال الحزينة.

• • •

وعيوننا تنتظر بحزن

على الأرض في الظلام

إلى النجوم البعيدة :

أه قريباً يحل الصباح ويبرق الفجر

في الجبال الأرمينية،

في الجبال الخضراء

• • •

أفيتيك إسهاكيان (1875-1957)

وهو شاعر ونائب أرميني ولد في لينينغراد ، وعمل في عدد من المجالات والصحف الأدبية . تابع دراساته العليا في جامعات زيوريخ بألمانيا . عاش فترة طويلة من حياته موزعة بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا.

كان موضوع الحب من المواضيع الأساسية التي شغلت إسهاكيان وبات من أهم المواضيع في شعره

عاش الشاعر مشاكل الحياة اليومية وعان تقلبات الأزمان في حقبة تاريخية/ اجتماعية صعبة. وكتب في بداياته: "كل ليلة في حديقتي" و"أعطيك روحي ، أعطني روحك" وتعتبر قصيدة "أبو العلاء المعري" 1909-1911 من أكبر إنجازاته في مجال الشعر.

استمد مواضيع ملاحمه من تراث الشعوب في الشرق والغرب: "الحب الأبدي" 1919، "قلب الأم" 1919 و"ليلت" 1921..

■ من أعلام الشعر الأرمني الحديث ■

كتب إسهاككيان قصائد ذات طابع سياسي تعظم الشعوب السوفيتية مثل "أغنية الشعب" 1943 و"يوم الانتصار الكبير" 1945 حيث مجد انتصار الشعوب السوفيتية وشهداءها.

تعد مذكراته ومقالاته الأدبية والنقدية مرجعاً أدبياً ذا أهمية كبيرة لدى الأدب الأرمني الحديث.

توفي أفيتيك إسهاككيان في يريفان. من قصائده:

أسمع في حديقتي ليلاً

تبكي لدي في البستان

ليلاً شجرة الصفصاف

وهي بلا مواساة،

صفصافتي الصغيرة، صفصافتي الحزينة.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

سينبلج الصباح الباكر—

وستمسح الفتاة الحنونة التي هي الفجر

دموع الصفصافة التي تبكي بكاءً مريراً،

بغداثر شعرها.

• • •

مؤرخونا وشعراؤنا الجوالون

1

في الصوامع المعتمدة المنعزلة، وجدران المعبد الصماء،

ينحني المؤرخون كمداً، أمام مصابيحهم

بلا نوم ، في الليالي ، يزدردون الخبز العفن بالماء ،
ويكتبون سير الأحداث على لفافة الورق الأصفر الجاف:
هجوم العصابات المدمى ، مصائب الحرب
وانتقام الأعداء القاسي ، انهيار وطننا الغالي .
كانوا ييكون " هاياسدان " وحظها القاسي
وكانوا يؤمنون بلا كلل ، بأن الله سيستجيب لدعائهم.

2

وفي أكواخ القرى الصغيرة ، لدى المواقف أمام النار ،
كان شعراؤنا يغنون أغاني يزدردونها بالخمير
وبالأغاني يمجدون الانتصارات ن وينشدون أناشيد الأبطال ،
ويتنبؤون للأعداء بالمصائب والهزيمة والعار .
في حكاياتهم عن القتال المدمر كان الشعب الذي لا يموت ،
كانوا يوصوننا بأن ننقل المجد من جيل إلى جيل : <http://www.yeghishe.net>
ولقد استطاعوا أن يصونوا الروح الحرة من أجل سعادة حياتنا
وباستعداد كانوا يحملون السيف البراق كرمي للوطن.

تشارينتس يغيشة (1897.1937)

اسمه الحقيقي يغيشة صوغو مونيان تشارينتس YEGHISHE TSHARENTS
SOGHOMONIAN شاعر وناقد ونائر ومترجم أرمني بارز . ولد في مدينة
قارص في أرمينيا الغربية وتلقى تعليمه الابتدائي فيها وفيها كانت محاولاته
الشعرية الأولى. سافر عام 1916 إلى موسكو حيث غدت أجواء موسكو الثورية
تكوينه الثوري ، فالتحق بالجيش الروسي ثم عاد إلى أرمينيا أواخر عام 1919.

بدأ منهجه في الشعر متأثر بالرمزية المتأصلة لدى الأرمن . كتب مجموعته الشعرية " DESILAJAMER " (ساعات رؤية) 1915 و (TZIATZAN) قوس قزح" 1917 ، حيث تطرق إلى موضوع معاناة الإنسان باحثاً عن المثالية في الحياة . كان الشعراء الأرمن في فترة 1910 وما بعدها يلجؤون إلى الأساطير والرؤى ليجدوا فيها حلاً لمعضلة الوجود الأرمني ، وكتعبير عن ذلك ظهرت القصيدة الغنائية المسماة (GABOUDATSHYA HAYRENİK) "وطن ذو عيون زرق " 1915 في تبليسي TIFLIS، حيث نسج فيها تشارينتس حلم أرمينيا المستقبل إلى جانب صورة الوطن المدمر ومصيره التاريخي وحياة الفرد الإبداعية.

لم يكن بإمكان تشارينتس الوقوف في إطار الإبداع فقط أمام اللحظة المصرية في تاريخ الأرمن ، بل شارك فعلياً في فرق التطوع على الجبهة 1915 ، فكان شاهد عيان على تجهيز ألوف الأرمن ومأسيتهم وقد تسربت إلى شعره صور معاناة ومجازر الشعب الأرمني وتجسدت في قصائد (VAHAKN) "فاماكن" 1916 و (MAHVAN DESIL) رؤيا الموت 1922 و (Dantea gan arasbel) "أسطورة دانتيه" 1916 التي نشرت في تبليسي . ومن الملاحظ أن شعره كان مفعماً بالشكوك والحسرة والألم.

برع شاعر الثورة تشارينتس في كتابة الشعر الملحمي وشعر البطولات ، فكتب ملحمة AMPOKHNERE KHELAKARVATZ "الجماهير المجنونة " 1919 والتي يمجّد من خلالها الإرادة الثورية لدى الجماهير المناضلة والثائرة وسمو أهدافها.

أسس تشارينتس مدرسة شعرية في الأدب الأرمني خاصة والسوفيتي عامة بمضمون ثوري جديد.

وصدرت عام 1926 رواية (YERGIR NAYIRI) "بلاد نايري " والمؤلفة من ثلاثة أجزاء . وتعد هذه الرواية الحجر الأساس لفن الكتابة الأرمنية.

■ من أعلام الشعر الأرمني الحديث ■

وتعتبر من أكثر الروايات الأرمنية تعقيداً حيث يتناول تشارينتس أحداث احتلال قارص عام 1919 ، وقد استخدم مصير المدينة الأليم ليصف للعالم معاناة الشعب الأرمني.

وتعتبر قصيدة (YES IM ANOUSH HAYASDANI) "أحب في حلوتي أرمينيا". في مجموعته (DAGHRAN) "كتاب الأغاني " 1922 ، والتي تقدمها اليوم لقراء الآداب الأجنبية ، قمة الشعر الوطني عند تشارينتس ، وهي مهداة إلى القيم الروحية لأرمينيا . إنها بمثابة وصية شعرية للحفاظ على مقدسات الوطن ، وما تزال تحظى بمكانة خاصة في الأدب الأرمني.

من الملاحظ أن مساحة من التشاؤم تغطي على قصائد تشارينتس . ومعلوم أنه أدخل أنواعاً جديدة من الشعر في الأدب الأرمني مثل الأنشودة والنصائح والنشيد. كما استخدم عدداً من المقاييس الفنية الشعرية الشرقية مثل الرباعيات والمخمصات والبيت . وترجم الكثير من الآداب الأجنبية لأمثال غوته وبوشكين وسواهما.

أطلق اسم تشارينتس على عدد كبير من الشوارع والمدارس في أرمينيا وسميت مدينة باسمه (TSHARENTSAVAN) "تشارينتس أفان " تخليداً لذكراه. وثمة أيضاً متحف خاص بأغراضه وأوراقه موجود في يريفان YEREVAN. وقد ترجمت مختارات من أعماله الشعرية إلى كثير من لغات العالم كالروسية والعربية وغيرها.

أحب في حلوتي أرمينيا

أحب لسان أرمينيا ، الذي غذي بالشمس ،

أحب تنهدات قيثاراتها القديمة ونغماتها الشجية وشكايتها المريرة ،

أحب زهورها الملتهبة وشذاها المسكر ،

أحب رقصات الغانيات ، وسحرهن ورشاقتهن،

أحب سماءها الزرقاء الغامقة ن وبحيراتها الرقراقة ، وصفاء مياهها
شمس صيفها ، عواصفها الشتائية الجبلية المرعدة،
أكوأخها المظلمة الكئيبة ، وجدراتها التي سخمها الدخان،
أحب مدنها الحجرية المعمرة مدنها الدائمة الشباب.

أينما كنت ، فلن أنسى أغانيها الحزينة،
ولا كتبها المزينة بالذهب والتي توقظ القلب للصلاة.
هي تنزف ، وأنا أنزف أيضاً ، جراحها جراحي،
لكل معاناتها ، أرضي اليتيمة ، أحبها .

ليس لقلبي المفعم بالحزن في الحياة سوى أمنية.
وليس ثمة في العالم من هو أسطع ذكاء من كوتشاك، وناريكاتسي
طف العالم ، فلن تجد كالقزم التي وخطها الشيب من أرارات.
كم أحب طريق المجد الصعب، جبل "ماسيس" !



هوامش:

- 1 — هاياسدان: أرمنيا
- 2 — كوتشاك وناريكاتسي : شاعران أرمنيان معروفان من شعراء القرون الوسطى.
- 3 — ماسيس : اسم موضع مرتفع في جبال أرمنيا .

من الأدب الأرمني الساخر

هاكوب بارونيان (1843-1891)

■ ترجمة: نورا أوبيسيان ■

لو لم يملك هاكوب بارونيان ذلك الأرق للنفاذ إلى أعماق الظواهر الصارخة
فسي القسيم الاجتماعية والسياسية والدينية لما أبدع كل تلك السخرية. وأفضل
وصف للفترة التي عاشها الكاتب الساخر الكبير في القرن التاسع عشر هو الذي
جاء بعبارة (الفترة حيث وُضعت الحقيقة في القبر).

يعتبر هاكوب بارونيان (1843-1891) رائد الأدب الأرمني الساخر، وأحد
وجوه الأدب الكلاسيكي في السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر.

لقد أسس النثر والمسرح الواقعي في الأدب الأرمني الغربي، ونشير إلى
وجود أدب أرمني شرقي في أرمينيا وأدب أرمني غربي لدى الأرمن في المهجر.

دخل بارونيان عالم الأدب مسرحي وتطورت موهبته في المجال الصحفي،
وأخذ ينشر مقالات ذات طابع ساخر كأصداء للحياة الاجتماعية والوطنية ويفضح
سياسة المصلحة.

لم يعط هاكوب بارونيان بكتابه وإداعاته دفعا للحركة الأدبية في تلك الفترة
فقط بل لتطور الفكر أيضاً كأحد ممثلي تيار الفكر الديمقراطي. لقد أبدع بارونيان
كشابات على مستوى رفيع في النثر الساخر والمسرح، إلى حد أنها أثرت على
تطور الفكر الفني لدى الشعب الأرمني.

يتميز المستوى الفني في الإبداع لديه في الدرجة الأولى بأنه يرصد بصنق وعمق أحداثاً تنصف بها الحياة الأرمنية اجتماعياً وسياسياً في فترة 1870-1880. وهكذا استطاع باروتيان أن ينفذ وبشكل مذهش إلى صميم ظواهر الحياة الاجتماعية والسياسية سواء لدى الأرمن أو غيرهم في العالم، ويبين الجوانب الساخرة والهزلية من الحقيقة في صور معينة، فذلك هو أساس سخريته.

ولد باروتيان في القسم الأوروبي من تركيا في مدينة أدرنة عام 1843. كان يتقن عدا عن الأرمنية اللغة الفرنسية واليونانية ممّا أتاح له الفرصة للتعرف على المسرح الفرنسي واليوناني.

انتقل إلى القسطنطينية عام 1863 وعمل في مجالات مختلفة كموظف بريد وأستاذ وممثل، واحتك بالمتقنين وأصحاب القلم في جريدة (النحلة). ثم بدأ حياته الأدبية بالمسرحيات، إذ كتب مسرحية (خادم واحد لمعلمين) لكنها لم تنتشر، وفي عام 1868 أصدر المسرحية الساخرة (طبيب الأسنان الشرقي) حيث وضع بها أساس المسرح الأرمني الواقعي. وبعدها وضع باروتيان جل جهده في الأدب والصحافة فاستلم تحرير جريدة (النحلة).

أصدر دوريات للآخرة مثل (المسرح) و(السفطائي) بعدما أفلتت (النحلة) حيث بدأ ينشر كتاباته فيها مثل (أعيان وطنيون) و(دفتر الأبله). وبعد إقبال جريدة (السفطائي) الساخرة سادت أحوال باروتيان وأصيب بداء السل وتوفي عام 1891. لقد طرق باروتيان أنواعاً عديدة من الأجناس الأدبية. كانت غالبية كتاباته نثرية ولكن يمكننا القول أنه في طبيعته الإبداعية كاتب مسرحي بامتياز.

من الجدير ذكره أن كتاباته كانت غنية بالحدث والحوار النشيط المفاجئ حتى وإن كانت مشاهد بسيطة أو قصصاً قصيرة. وبذلك، يتحول أغلب نثره إلى مسرحيات يمكن أن تقدم على المسرح، والجدير ذكره أنه تمّ عرض أغلب أعماله على خشبة المسارح في أرمينيا وخارجها.

الهجاء السياسي عند بارونيان

النوع الأساسي للسخرية لدى بارونيان هو الهجاء حيث يشكل مضمونه كافة الظواهر وخبايا الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع الأرمني في ذلك الوقت. وقد توجه هجاءه إلى الظلم الذي يقع على الجماهير المقهورة وإلى طغيان البورجوازية ونظام السلطان الوحشي وضد السياسة المخادعة للدول الغربية.

لقد لفت بارونيان الأنظار في السبعينات بشعبيته ووطنيته، فقد ظهر بوعي عال لقوة السخرية. وقد كتب في مقدمة عمله الشهير (دفتر الأبله): (أنا أيها السادة سأسخر ولست بحاجة إلى لحن أو بيانو كي أسخر...). هذه الأسطر موجهة ضد الرومانتيكية الوطنية وتبين أن الساخر الكبير مستعد لإرافقة الدماء من أجل خير المجتمع، وأن سخريته لها طابع أصيل ومقاتل. كان بارونيان يرغب من صميم روحه بتحرير الشعب من استبداد السلطان. ويجب أن نعتبر أن الخدمة الكبيرة التي أسداها في هذه الفترة هي أن سخريته قدمت للشعب الحقائق والأحداث بواقعية عميقة، وكان يعمل من أجل التنبيه وتوعية الأفكار لكي لا تعقد آمال التحرر على وعود كاذبة من السلطان والأعيان الوطنيين.

حقاً، لقد كانت إحدى جوانب الهجاء الأساسية لدى بارونيان النقد اللاذع للأعيان الوطنيين أي ممثلي التيارات المحافظة الأرمنية.

إن الملاحظات الساخرة التي كان يسديها بارونيان تحافظ على معناها ومصدقيتها حتى يومنا هذا وتبين عباراته اللاذعة القيمة للهجاء السياسي لديه.

الهجاء الاجتماعي

يعتبر إطار الحياة الاجتماعية الواسع أحد أبرز القيم للسخرية لدى بارونيان. لقد طرح إلى جانب المسائل السياسية العديد من المسائل المتعلقة بظواهر الحياة الاجتماعية وقد نجح برسم الوجوه الفنية لكافة الفئات الاجتماعية في تلك الفترة.

من العبارات المعروفة في عمله (نزهة في أحياء استنبول) الذي يصف فيه حسي الأغنياء: (بحذاء من الشرق الولع بالقمار ومن الغرب حب التبرج ومن الجنوب الإسراف ومن الشمال الخداع).

لقد احتل موضوع الجوانب السلبية من الحياة الأخلاقية في المجتمع آنذاك حيزاً كبيراً في إبداعات بارونيان. إنه ينتقد بشدة الطبائع المتجذرة في حياة الأغنياء والطبقة الوسطى مثل الآداب المزورة الباطلة والولع بالموضة والتبرج التي بدأت تنفث وتسيء إلى سلوكيات طبقة الفقراء. كان الكاتب الساخر يرى في التعابير السلبية للحياة مصيبة اجتماعية كبيرة لأنه ونتيجة لذلك يصبح العالم النفسي للنساء فقيراً وينقطع عن الحياة الاجتماعية ليفكرن فقط بجمالهن والتبرج والزينة.

الهجاء لدى بارونيان غني بنقد رجال الدين، فهو لا يرى أي نفع من عملهم ويقول إنهم كانوا ينفعون مجتمعهم بكلامهم أمّا الآن فيبطونهم.

تعتبر (المسولون الثرفاء) والمسرحية الساخرة (الأخ باغداسار) من أبرز أعمال بارونيان في الهجاء الاجتماعي أو بشكل أعم الساخر.

الإحساس بالأنية قوي لدى بارونيان. فهو أول من يلاحظ الظواهر الجديدة في الحياة ويكتب عن صدامها في أعماله. فتعتبر أعماله المسرحية التعبير الواضح عن بصيرته. أتى هذا الكاتب الناقد النطر بنفس جديد إلى المسرح. إن مسرحية (الأخ باغداسار) تعتبر جوهرة ليس فقط بالنسبة للأدب الأرمني إذ أنها نوع فريد في الجنس الأدبي في الأدب العالمي.

يحمل بارونيان في داخله حكمة الشعب وروحه النبيلة. وبقناعته (أنه لا يوجد في العالم شيء ساخر أكثر من السخرية التي تنقصها العدالة). كان ينتقد الكتاب الذين يسعون إلى تغطية فقر المضمون بجمالية الشكل الخارجي ويقول: (إن البساطة والصدق ثملان جمالاً نبحت عنهما قبل كل شيء). لقد خرجت أعمال بارونيان من الإطار القومي ودخلت إطار كنوز القيم في الأدب العالمي.

إن بارونيان كاتب خالد ومبدع. وقد أدرك عظمتة فقال مرة: (إنها الموت أنت لم تستطع دحري وإماتتي. هامو اسمي خالد في البلاد. هامم يتحدثون عني... ويحكون...)

أعماله وعالم أفكاره

كان قلمه غزيراً فقد كتب العديد من المسرحيات نذكر منها: (طبيب الأسنان الشرقي) (1868) حيث ينتقد الزواج المبني على المصالح، فيتزوج طبيب الأسنان الشاب من سيدة عمرها 60 سنة طمعا بمالها، والمسرحية الهزلية (خادم واحد لمعلمين) حيث يسخر من تاجرين غنيين يشغلان معا خادما واحدا.

وفي مسرحية (المستلق) يسخر من الطبائع والأخلاق العائلية للطبقة السبرجوازية في استنبول. وتعتبر (الأخ باغdasar) من أقوى أعماله حيث يتناول صورة من عدم الوفاء العائلي، وباغdasar رجل ساذج وهو ضحية زوجته وعشيقها ودسائس أعضاء مجلس القضاء.

أما (ضريبة الباقية) التي كتبها عام 1886 في استنبول، فهي عبارة عن قصص مسرحية ساخرة، شخصياتها ضحايا الغش، وهم محكومون بالقواعد الزائفة للأدب والسباق. وقد تناول برؤية ساخرة نماذج مختلفة من المجتمع كالثرثار والساذج والوطني والدخيل والإنسان السوي، فتارة يسخر من العلاقات الزوجية وتسلط الزوجة وتارة أخرى يفضح العلاقة بين التاجر والزبون وطرق الغش التي يتبعها التجار.

تولد من صفحات بارونيان الأفكار القالية التي كان يطرحها في أعماله وبقيت قريبة من روح الكاتب الساخر:

- الحرية: كان بارونيان يناضل من أجل الحرية وضد وسائل التقييد.
- موقفه من الطبقات الاجتماعية: بارونيان دائماً مع الطبقة المتواضعة والمقهورة بشكل صريح، ويندد بأخلاقيات الأغنياء الفاسدة. على الرغم من أنه كان يوضح سلبيات الناس فقد كان يقدر صدقهم وروحهم البسيطة.
- العائلة والزوجة: كان بارونيان حريصاً على قدسية الحياة العائلية. فالحب الطاهر والزواج المبني على أساس جيد هما كنزان لا يمكن تعويضهما، فهو يدافع عن الاحترام المتبادل بين الزوجين.
- الدين ورجال الدين: تناول بارونيان في مواضيعه نقائص رجال الدين والتفكير الضيق. إلا أنه ثمن رجال الدين الذين يكرسون أنفسهم من أجل العالم.

— الوطن: يظهر بارونيان خلف سخريته حساً عالياً بالوطنية ويقف إلى جانب الأرمني الذي همض حقه.

الخصائص الأدبية

تمحورت مواضيع بارونيان حول الطبقات الاجتماعية للأرمن في استنبول والمواضيع الاجتماعية والوطنية وحتى السياسية. إنه يسخر من المياليين إلى الغرب والأجانب. فنجد لدى بارونيان قيم الإنسان الصادق والجريء، فقد ناضل دائماً من أجل المثل العليا الجميلة.

فيكتب في مقدمة (أضحوكة) التي تدور أحداثها حول الحياة الوطنية والفكرية والعلاقات الدولية من خلال شخصياتها وهي ليست أناساً بل حيوانات، كالقطعة والضفدع والنمب والنمل: "أنا أصنع كل هذا ومرشدي هو الصدق، الذي تبعته حتى الآن والذي يتبعني حتى اليوم...".

إنه للكاتب الساخر الذي يسيطر على الحياة الأدبية الأرمنية حتى اليوم. فهو أول من عبّر عن السخرية بأجناس أدبية مختلفة، كالقصة واليوميات والمسرحية وغيرها.

من أعماله الضخمة: (المسؤولون الشرفاء) 1882، و(نزهة في أحياء استنبول) 1880، و(دفتر الأبله) 1880، و(أعيان وطنيون) 1874، ومسرحية (طبيب الأسنان الشرقي) 1868، و(خادم ومعلمان) 1865، و(التملق) و(الأخ باغداسار) 1886.

نشر بارونيان (دفتر الأبله) عام 1880 في القسطنطينية. وهو عبارة عن قصص قصيرة جداً وحوادث يومية قصيرة يرويها بارونيان على شكل يوميات، وتتضمن مقابلاته وأحاديثه مع الناس ووصفه لكل ما يدور حوله من حياة سياسية واجتماعية، لكن على طريقته الخاصة. وهو إذ يسخر وينتقد الحكومة والدبلوماسية الأوروبية. فقد كان هدفه كما كتب في المقدمة، أن يصحح السلبيات والنقائص بالسخرية منها. لقد دافع عن قضايا الضعفاء وتمرد على الظواهر البالية والفاصلة إذ قال: "هناك أموات يجب قتلهم".

دفترى النومي

"أيها السادة، لا تظنونا وأنتم تقرؤون هذا العنوان أنني تاجر مغلس أقدم حساباتي للعامة. يشرفني أن أعلن أنني لم أكن تاجراً في حياتي ولا أرغب في ذلك، لأنّ ضميري لا يسمح لي ببيع البضاعة بقيمة ليرة ونصف لشخص غيري وقد اشتريتها بليرة واحدة.

قررت أن يكون لي دفترى اليومى دون أن أكون تاجراً، لكي أسجل فيه الأحداث اليومية، وأحياناً وانطلاقاً من الأحداث أسخر من الجرائد المعرّضة للموت.

لنتشكل أنهر من دموع ذرفتها عيون هرقل، وليقدم الشعراء الوطنيون الفرات ودجلة كعيني أرمنيا ويشرعون بالبكاء، وليقم السيد شوخادجيان بتأليف ألحان تبكيهم. أمّا أنا أيها السادة فأسألكم، ولست بحاجة إلى ألحان أو بيانو كي أسخر.

إن البكاء على النقصات قمة النقص. وإن ذرف الدمع على البؤس هو برهان على أننا لا نملك إهراق الدماء. فالدمع من اختصاص الأطفال والنساء، أرجوكم لا تقتربوا من اختصاصهم.

لا يمكن أن تقتصروا لكم سائتم بالبهجة والمرور عندما أنجح وأجعلكم تضحكون من الأحداث والأشخاص التي سائتموها في دفترى اليومى.

عندما نسخر من المياليين إلى الرذائل يفترض أن نكون على طريق الفضيلة. وبهذا، بقدر ما أحصد من الضحكات يقل عدد الناس المياليين إلى الرذائل.

ويجب أن لا ننسى تلك الفئة من الناس التي أقسمت ألا تضحك أبداً. فأنا لا أتعاطى معهم، ذلك لأنّ اغتصاب ابتسامة من شفاههم أصعب من الحصول على الإصلاحات من الحكومة. وخاصة أنني لا أملك أية إعلانات ولا مشاورات ولا أسطول كي أمارس الضغط. ولكي نتقوا بالحياد الذي أتمتع به، أبين أنني في موقف لا يفرض علي التحيز.

المجد للعناية الإلهية فأنا لا أملك أصدقاء كي أحتجّز. لكي لا تظنوا أنني سأحدث بغرائزية، معاذ الله... المجد للشيطان، ولا أملك حتى أعداء. لا تدهشوا، أيها السادة، فأنا أعيش في هذا العالم كما تعيشون أنتم أحياناً على المسرح، أصبح

فقط متفرجاً على العرض دون التدخل في شؤون الممثلين. بشكل عام، أنا أعيش بعيداً عن المجتمعات، وهذا هو سبب سعادتي.
ويدرج بارونيان تحت تواريخ مختلفة اليوميات التالية لتكون الكلمة الساخرة القوية والطبعة في آن واحد.

1.

عندما كانوا يأخذون سيدة أرمنية لدفنها، جلست فجأة في التابوت وطلبت ماء لتشرب. فأشارت جريدة (ماسيس) إلى الحادث بقولها: "هل يعقل أن يظن الإنسان الحي ميتاً في القرن التاسع عشر". وأنا أقول: "ولماذا إذاً وفي القرن التاسع عشر، يعتقد أن جريدة (ماسيس) حية وهي ميتة".

2.

— كنت تقول يا أبي إن الاحمرار دليل على الخجل.
— نعم، عندما يخجل الإنسان من فعلته ويحمر وجهه فهذا يدل على أنه فاضل.

— إذاً أمي فاضلة جداً.

— لماذا.

— لأنها تجعل وجهها أحمر كل صباح.

آه، أيتها الألوان، وهل أنت تغيرين من معنك إلى هذا الحد.

3.

يتزايد عدد الأطباء في مدينتي يوماً بعد يوم. حتى أن لكل شخص طبيبين.
والحق أن كثيراً من الفقراء يموتون دون طبيب، ولكن كم من الأطباء يموتون دون مرضى.

4

- ألم تقدم الفحص يا بني
- نعم قدمته يا أبي.
- ألم يهد إليك أستاذك كتاباً يوم توزيع الشهادات
- كلا يا أبي.
- ولماذا.
- لأنني أنا أيضاً لم أعط أستاذي شيئاً في عيد رأس السنة يا أبي.

. 5 .

- عقد اليوم أيضاً اجتماع للنواب. وتغيّب اليوم أيضاً العديد من النواب بسبب
صحي. وحضر فقط من أصابه رشح خفيف. فالوصول إلى منصب في مجلس
النواب له أساليبه، كشرب القهوة أو الشاي في البيوت.
- تفضلوا الشاي.
 - شكراً، أنا لا أريد.
 - أرجو أن تقبل.
 - تفضل أنت.
 - وأنا أيضاً سأشرب.
 - إذا شربت أنت، أقبل أنا أيضاً.
 - وأخيراً، يشرب الشاي.

. 6 .

اليوم افتتحت أن المسرح مدرسة للأشخاص الكبار. لكن ماذا يدرس الكبار
في تلك المدرسة. هنا تكمن المشكلة. فليصر الآخرون على أنهم يدرسون الأخلاق
هناك، وأنا أصر على أنه بالرغم من وجود درس الأخلاق لكن الطلاب يأخذون

درس تكوين الجسد حيث أن المشاهدين يركزون انتباههم أكثر على ذراعي الممثلة ورقبتها ومساقيها أكثر من الكلمات التي ستلقيها، وعندما يجدون ذراعي الممثلة جميلتين يقولون:

— كان عرضاً رائعاً جداً...

مساكين هؤلاء المؤلفون... يظنون أن الجمهور يصفق لأعمالهم... بينما في أغلب الأحيان يصفق لمؤلف الممثلة...

.7.

أرى اليوم أن الغذاء له تأثير كبير على أفكار الإنسان. فأنا أعرف شخصياً كان يقضي حياته قبل سنة على الخبز والجبنة، وكل يوم كان يتكلم عن المواضيع الوطنية ولكن الآن بالرغم من أنه يتغذى على اللحم فإنه بلوم من يتحدث عن المسائل الوطنية.

ARCHIVE

.8.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ليست النساء فقط من يرغبن في تجديد ملابسهن، فهناك على الساحة نقاد يرغبون بالتحدث بشكل جديد.

أقدم إليكم السيد كاتب أدوم الذي يشغل منصب ناقد لمنتشورات (ماسيس) القديمة والحديثة. ذوقه رفيع، ويملك رأس المال المفروض على النقاد، ولكن في الكثير من الأحيان يسمعون أحزانه أثناء نقده لكتاب ما.

وأحياناً عندما يتحدث، يقفز فيكتور هيغو في حديثه. وقبل إنهاء حديثه يدخل فولتير ولامارتين ومئات الكتاب غيرهم في الحديث، فيضطرب المستمع إلى أن يقول:

— إما أن تصمتوا جميعاً أو تتحدثوا واحداً واحداً كي نفهم.

فعلى سبيل المثال إن قلت: "استيقظت في الصباح، ووضعت ثيابي وأكلت الخبز".

أعط هذا السطر لأدوم وسترى أنه يقول لك السطر الآتي:
 "استيقظت في الصباح، ووضعت ثيابي حيث تستعمل لتغطية عيوبي فقط،
 كما يقول جان جاك روسو، وأكلت الخبز، على الرغم من أن الكتاب المقدس يقول
 أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله".
 لماذا تقاوم عكس اتجاه الفكرة، ولماذا تعذب القارئ يا أدوم، اذهب بطريقك
 الصحيح، ما الداعي كي تقوم مع كل خطوة بطرق باب الكتاب الواحد تلو الآخر.

9.

عندما يكون الشيء جميلاً بطبيعته، يليق به كل ما تضيف عليه من زينة.
 فعلى سبيل المثال، لغة الصحفي (شاهنور) في جريدة (صحافة الشرق)،
 جميلة ومزخرفة.
 وأنا أيضاً حاولت يوماً ما أن أزخرف لغتي، لكن فيما بعد انتابني اليأس
 عندما رأيت امرأة بشعة ازدادت بشاعتها عندما تبرجت وزادت من زينتها.
 لماذا نترك بعض الأسنة البشعة البسطة ونذهب نحو الزخرفة وتصبح أقيح.
 متى سنتوقف عن قراءة مقالات فارغة من الكلام وملينة بالزخرفة.
 ألقت انتباه رؤساء التحرير لهذه النقطة.
 قاموس صغير
 الجسم: ملك الأطباء.
 اللباس: صفة تدل على حال الإنسان.
 التبرع: تسول نبيل.
 السوق: معمل الكذب.
 الأمل: فن خداع الذات.
 الثمالة: حماقة مؤقتة.
 قصر القامة: اختصار للإنسان.
 الخير: والده نكران الجميل.

القبيلة: فواصل منقوطة في قواعد الحب.
القرار: مرقاً يرمي فيه الفكر مرساته.
الرقص: احتضان رسمي.
الاحتضان: كلمة معقدة.
المسار: حروف عطف للأبنية.
التاريخ: انظر خلفك كي ترى أمامك.
القبر: محطة لنفق يأخذك إلى العالم الآخر.
الحلم: سفرة للفكر دون بوصلة أو دفة.
الشئمة: جذب للبراهين.
الصورة: ممتلق، يقول أنت جميل حتى للأكثر بشاعة.

الخاتمة

سخر هاكوب بارونيان من الأغنياء أصحاب السيادة والتجار والأطباء الماديين والمفكرين المزورين ورجال الدين. إنه يكتب بلغة بسيطة، لغة الناس المحكية. وهو يعدّ علماً من أعلام الأدب الأرمني الساخر. ومع أن أعماله لم تأخذ فرصتها في الوسط الثقافي العربي، إلا أن سخرية بارونيان الخالدة جعلت أعماله لا منافس لها في السخرية السياسية والاجتماعية في المسرح.

تحمل أعماله الساخرة بصمة العبقرية. إنه ليس فقط أحد الوجوه السائدة في الأدب الساخر الأرمني بل والعالمي. ومن أكبر خصائص هاكوب بارونيان قدرته الاستثنائية على رؤية الحياة وتقديمها، فهو يشاهد ويصف. ولأنه يعتبر البكاء على سلبيات ونقائص الحياة ضعفاً، لذلك يفضل الضحك مقدماً للجوانب الساخرة. وكما يقول هو "فالحياة مسرح وهو المتفرج".



الأديب والمسرحي ليون شانت من الفلسفي والنفسي إلى التاريخي وبالعكس

■ بقلم: خاتشيك أرسلايان ■

قبل مائة عام على وجه التقريب، باستقبال منقطع النظير وبإنجاح استثنائي وبتصفيق عاصف دخلت إلى الأدب الأرمني مسرحية "الآلهة القديمة" التي لفتت الانتباه في كل مكان من يريفان إلى تقليس حتى باكو وصولاً إلى استنبول وحتى الولايات الأرمنية البعيدة وقد فوجئت المجتمعات الأرمنية والمبدعون والمثقفون الأرمن بهذه الظاهرة التي كانت بمثابة معجزة في تلك الظروف فوجهوا أنظارهم إلى الأدب الأرمني عموماً والفن المسرحي خصوصاً.

فقد نظمت أمسيات أدبية خاصة وتجمعات للجدل والنقاش والنقد والتقييم ومحاضرات وحوارات، وظهرت في الصحف والمجلات مقالات تسلط الضوء على المسرحية بجوانبها الأخلاقية والنفسية والفلسفية والاجتماعية والقومية. فالطبقات المثقفة والمستزمنة كانت تشعر بالعجز إزاء التخلف الفكري والثقافي والأحداث والتطورات السياسية والاجتماعية التي كانت تعصف بمعظم الطبقات الاجتماعية للشعب، وقد رأت في هذه المسرحية نقطة البداية لمرحلة سياسة واجتماعية وفكرية وثقافية جديدة والتي يمكن من خلالها التخلص من اليأس والإحباط والذل والتشاؤم فمسرحية "الآلهة القديمة" جاءت بهذه الرؤية إلى الحياة.

وهكذا وبعد المسرحيات الواقعية للأديبين "شيرفانزادة" و"سوندوكيان" تظهر على الخشبة مسرحية كانت مختلفة اختلافاً تاماً بالموضوع وبالعناصر والبناء والشخصيات وبالعوالم الخارجية والداخلية للشخصيات.

فالكاتب وبعبقرية مذهلة اخترق العوالم النفسية للناس حتى البسطاء منهم بتخيلات إبداعية، وبنى مشاهد موضوعية كانت نابغة من خصائص وشكل تلقى الإنسان للواقع وهكذا أبدع المسرحية ذات النزوع الفلسفي.

"الآلهة القديمة" مسرحية مشاعر وأحاسيس نفسية ذات ظلال مرضية وغالباً ما تعيش شخصياتها في أزمان وسلوك مغرق في الأحلام والشاعرية والمثاليات الطوباوية "إنها صفحة جديدة في المسرح الأرمني.

وبهذه المسرحية تبدأ قصة حياة ليون شانت الأدبية، حيث لم يكن له أن يسجل اسمه الذهبي في سجلات الأدياء لولا راعته تلك.

بهذه المسرحية وبكل مسرحياته عموماً يتبين أن شانت يستخدم المسرحية كوسيلة خارقة للتقريب والإفصاح عن التكوين الداخلي للإنسان، عن القدر المأساوي في أهد الأوقات نأزماً وتحولاً في حياة الإنسان وباحتواء كامل وتام لخفايا النفس وبتكسرات في الزمان والمكان المتكسبين للوصول إلى الحقائق الإنسانية.

فالمسرحية تذكرنا بالمسرحيات التراجيدية لـ "اسخيليوس" و"سوفوكليس" التي تقدم الإنسان بنشأة إنسانية يسعى إلى أن يكون إلهاً، وتقدمه بتكوين رباني يسعى إلى أن يكون إنساناً وبسؤالات عديدة محتملة وبرؤى شاملة وبشمس الوعي والمنطق وبسرياح خفيفة من الغريزة والإلهام وبمعرفة عميقة للواقع المر، أنشأ شانت أسلوباً ومضموناً جديداً وفلسفة جديدة للمسرح.

أقام الكاتب مسرحياته على ثلاثة أعمدة (التمركز – الحركة – التبسيط) يقول شانت: (المرغوب والمؤثر بدون شك على الخشبة هو تمركز كل الأشعة في نقطة واحدة).

الرغبة الأولى (التمركز) في مسرحية "الآلهة القديمة" قائمة بالفكرة التي تعطى أسباب لأحداث تجري قبل ألف عام. فالبطل في هذه المسرحية يتوق إلى

الربانية وعلى هذا الطريق الشاق يتعب من مواجهة القوانين والضغطات النفسية والقيود العديدة فيحلم ويتمنى الوصول إلى الحرية البدائية بدون قيود أو شروط، يعني الوصول إلى الآلية القديمة.

هذه المسرحية تعالج الانفصام والازدواجية والتناقض في نفس هذا الإنسان وشانط يميز نوعين من الحركة في المسرح: داخلي وخارجي، هذا النوعان مرتبطان بشدة ببروز هذا أو ذاك على الآخر مع طغيان للداخلي أحياناً كما في "الآلهة القديمة".

ومن الغوص في النفس البشرية ينتقل شانط إلى دراما الحياة غير العادية حيث مسرحية القيصر تعبر بنا إلى الأحداث والحركة المتدفقة لتتمركز بمهارة داخل النص وعلى الخشبة.

القيصر مسرحية من العصور البيزنطية، كتبت عام 1914، بعد موت القيصر رومان يتولى فوكاس الحكم في الإمبراطورية البيزنطية بتشجيع من قائد الجيوش الشرقية الأرمني الأصل أوهان كوركين. يتزوج القيصر فوكاس الملكة الأميرة تيوفاني بنت الخمار، أي أنها آتية من أصول مقواضة متدنية منحلة، فهي فقيرة الروح ولكن مطامحها كبيرة إلى المال والشهرة والمجد وتريد أن تكون هي الحاكمة المطلقة مهما تعدد القياصرة على عرش بيزنطة.

ويتولى الحكم بفقد القيصر فوكاس الاستقرار النفسي والإيمان بالذات ويعتريه الخوف والشك حتى في أقرب المقربين منه وفي النهاية يذهب ضحية ضعفه النفسي فيبعد عن الحكم بالقتل ويتولى مقاليد الحكم أوهان كوركين قائد الجيش الذي كان مرغوباً ومحبوياً من كل الناس ولكن أوهان يحب فقط امرأة واحدة هي أنا وهنا تتمركز الحركات الداخلية والخارجية للدراما المسرحية.

يترقى أوهان المنتصر إلى المنصب بمجد عارم ولكن يفقد حبه وولعه بالحياة ويتحول إلى إنسان مرتبك وبائس.

يقول القائد: (الكل يتعاونني بإعجاب منقطع النظير وبياركونني لانتصاراتي الجريئة، أنا واقف فوق صخرة شاهقة وصخرة في داخلي. كل الأبطال تحت قدمي وكل شيء أيضاً، ولكن فجأة شاهدت أن انتصاراتي كانت وحشية وهزيلة وفارغة).

يسقط القائد ببعده عن الحب العفيف والطاهر لأننا إلى أسفل الدنيا، إلى العالم الأرضي، ويتذكر كلام فاسيل ليكابي: (الذين يعيشون برغبة في التسلط والهيمنة هم فقط الأناس السفليون الذين يعيشون في قاع الحياة). يسقط أوهان إلى الهاوية بفقدانه إلى الأبد الحب الحقيقي والرغبة في الوصول إلى القمم الحقيقية ويصل إلى قناعة كل شيء فارغ وبدون معنى.

في عام 1921 يبدع ليون شانت عملاً فنياً كلاسيكياً آخر كتب له العيش إلى الأبد. وزّين بأكاسيل المجد الأدب والفن المسرحي الأرمني وهو (أميرة القلعة المهدمة). فهذه المسرحية استثنائية بحركاتها الداخلية والخارجية وبقدرتها على التأسيس لفضاء مسرحي وأيضاً الرغبة الثالثة في المسرح وهي التيسيط.

فوجود الأعمدة الثلاثة في المسرحية ووصولها إلى حد الكمال تجعل من هذه المسرحية استثنائية وترفعها إلى مستوى كلاسيكي كمسرحيات شكسبير المأساوية. فمحور التمرکز هنا هو ثار الأميرة أنا وتغير شخصيتها الترامية تحت تأثير الحقد الجنوني.

فالتغير الجهنري لشخصية الأمير فرض عليها النذل والخنوع والعذاب مما قادها في النهاية إلى التعويض عن خسائرها عبر رغبة جامحة بالانتقام.

سبب هذه المأساة هو الأمير فاسيل المعروف بفاسيل اللص والمشهور بميله الشديد للسلطة والمال والشهوات والذي يغزو بأعوانه قلعة الأميرة حيث يقتلون زوجها ولديها الاثنين ثم يأخذونها خليعة للأمير. هذا هو أصل الشر والوجه الحقيقي لفاسيل اللص والذي طبعاً له مبرراته الزائفة والمصطنعة لتبرير أفعاله التشنيعية والبربرية عندما يقول: إن الأرمن والمسيحيين المنطوين في هذه الجبال يدينون لي بحياتهم ووجودهم.

هاجسان متطرفان الأول ظاهرة نفسية دائمة، أما الثاني فمؤقت ومفروض. فالأميرة أنا تصل إلى مبتغاها ولكن لا تصل إلى التعويض العادل.

يقتل فاسيل الأب ولديه بوحشية بدون أدنى ألم. بتأثير بسيط وضعيف يقول: (أمراتي سيسامحنني عن هذا الحادث غير المنتظر والثقيل... غداً صباحاً سوف يتحرك الجيش... الموت بطريقه... والحياة بطريقها).

■ الأدب والمسرح لليون شانت ■

الأبرياء يقتلون، الأميرة أنا أيضاً، أما الشرير فيبقى دون عقاب ويصل التوتر المتفاقم بالحركة الداخلية والخارجية للمسرحية إلى فك العقدة ولكن لا تتوازن كفتا الميزان: الفأر والتعويض مثلما يحدث في مآسي شكسبير.

مسرحية (أوشين بايل) المكتوبة عام 1929 مسرحية مأساوية ودرامية بشكل معمق وكامل، لعلها ليست مليئة بالهواجس والتوترات النفسية ولكن أحداثها التاريخية معطاة بشكل واضح وجلي وبحقائق ملهمة.

تشع الحكمة والنضج الفكري والنفسى للأديب من خلال الخيوط الناعمة لنسيج هذه المسرحية والتي فكرتها الأساسية الصراع القومي للبقاء والوجود والنضال المرير للشعب الأرمني على مر العصور للحفاظ على وحدته وخصوصيته. هذه المسرحية مزينة بالرغبات الثلاث للأديب: التمرکز، الحركة والتسيط.

يقبل الأمير أوشين نزولاً عند رغبات الأمراء الأرمن ويغير رغبة رثية (البابل) في مملكة كيليكيا الأرمنية وأن يكون وصياً على الملك ليفون حتى سن الرشد.

أما ربنا المرتبطة بأوشين بحب عميق فتوافقه وفي رأيها أن ذلك سيفتح الطريق نحو العرش ولكن الأحداث تجري بما لا تشتهي المنطق. يمسير أوشين بايل بطريقة المليء بالأشواك والعقبات بتنازلات كبيرة فيزوج ابنته للملك ليفون الذي يجلب لابنته الألم والعذاب، هاهي الضحية الأولى.

التنازل الثاني: يتزوج أوشين من الملكة والددة ولي العهد ويفقد حبيبته ربنا. أما القوى النافرة واللا مركزية الموالية للآتين فتعمل ضده، فمبادرته لإنشاء جيش موحد قوي لا يتلقاها الأمراء حتى المقربون منه برحابة صدر. يهزم أوشين بايل، أما حلم تقوية وتعظيم الدولة الأرمنية في كيليكيا فيتحطم. تحاول ربنا التي تضحي بنفسها من أجل هذا الحلم محاولة يائسة لإنقاذ الحلم الذي تلقى حكماً بالموت.

يرد أوشين على اقتراح ربنا بالهروب معه لإحياء الحلم من جديد بقوله: (يا إلهي، إن الإنسان قصير الرؤية وبائس، ناديت وحاولت أن أربط كل الناس بسى وبأفكارى ولبعدت عني الإنسانية الوحيدة، تلك الروح القريية التي كانت لي).

وهكذا فإن مسرحية أوشين بابل بأحداثها النفسية الغنية والتاريخية ليس لها مثيل في الفن والأدب المسرحي الأرمني.

وبمسرحية أشوين بابل يضع المسرحي والأديب ليون شانت نقطة النهاية لإبداعاته الخلاقة الباهرة والاستثنائية بإعطائه الأدب والفن المسرحي الأرمني كنزاً لا يفنى ومنبعاً فكرياً ونفسياً لا ينضب تنبض فيه القضايا الدائمة للإنسانية جمعاء وتحلم الإنسان المكافح للوصول إلى الحياة الفاضلة والعيش الكريم.

فالمسرحي العظيم باسمه المضيء وبأدبه العريق سيبقى خالداً في الأدب والفن المسرحي الأرمني وسيبقى سنداً للخير والفضيلة وأحلام الإنسان وأمانيه في العدالة والحرية والكرامة.



رعاة ماسيس⁽¹⁾

أو

فارت⁽²⁾ وشوشان⁽³⁾

(1867م)

للشاعر والمسرحي
"بيدروس توريان"

■ ترجمة: هدي انتيباوارطان درمنجيان ■



ARCHIVE

مسرحية غنائية تتألف من أربعة فصول تتخللها موسيقا فولكلورية من
القرن التاسع عشر ترافق الأحداث <http://Archivebeta.Sa>

لمحة عن حياة

بيدروس توريان

(1851 – 1872)

ولد بيدروس زمبايان بن أبراهام (المعروف بـ "توريان") في "اسكودار"
تركيا حالياً (أرمينية الغربية سابقاً) عام 1851 وتوفي شاباً في القسطنطينية
(استنبول) عام 1872م.

⁽¹⁾ ماسيس: لقب آخر لجهل آراءات.

⁽²⁾ فارت: ورد.

⁽³⁾ شوشان: زهرة الموسن.

وهو شاعر وكاتب مسرحي درامي أرمني.

أنهى دراسته في ثانوية "اسكيودار" عام 1867م.

عمل في مجالات مختلفة منها: في صيدلية ثم كاتب ومدرس خاص وممثل. كتب الشعر، والدراما وعمل كمراسل صحفي حتى أصبح معاون رئيس تحرير جريدة يومية "برعم آقاراي". كذلك اشتغل بترجمة أعمال كبار الأدباء العالميين منهم "فيكتور هوغو" و"توكسبير" إلى اللغة الأرمنية، معظم أعماله المترجمة مفقودة.

أما أعماله المسرحية، فساهمت في تطوير الدراما المسرحية الأرمنية بشكل كبير. كان "توريان" أول كاتب أرمني من القرن التاسع عشر، يتطرق إلى التاريخ القديم من منظور عامة الناس، حيث كان يظهر غضبهم وامتصاصهم من الممارسات الخاطئة للسياسات التي تنتهج من قبل الحكام والملوك.

من أعماله المسرحية "فارت وشوشان" أو "رعاة ماسيس" (1867م)، و"الملك أراشيس" (1869م)، وغيرها.

دشن "توريان" منهجاً جديداً للدراما الرومانسية الأرمنية، متجاوزاً القيود الكلاسيكية المتعارف عليها.

<http://Archivebeta.Sakhrnec.com>

وصلنا من أعماله الشعرية تسعة وثلاثون عملاً منها ستة وعشرون كتبت عام 1871م. ولأعماله الشعرية قيمة إنسانية وشعبية كبيرة. يتحول إلى بطل لقصائده العاطفية. وبخاصة عندما يتعاطى مع الطبيعة التي يراها عزاء نضرة، وكان دائم الاهتمام بمضمون الأشياء وليس بشكلها الخارجي.

من أعماله: "يجب الموت"، "أحببتك"، "البفسج" وغيرها.

كان دائم البحث عن إنسانية الإنسان وكيفية الحفاظ عليها وتطويرها، وكان يناهض مشاعر ومواقف اللامبالاة واللاإنسانية...

رعاة ماسيس...

الشخصيات:

- ☐ باريد: صاحب المزرعة ومالكها.
- ☐ فارت: نجل "باريد".
- ☐ شوشان: ابنة "باريد" بالتبني.
- ☐ مريم: المرأة المتسولة.
- ☐ سورماك: اللص.
- ☐ كيغام: ابن سورماك.
- ☐ كوركين: فلاح من القرية.
- ☐ ديران: صديق سورماك.
- ☐ أحد الرعاة.

الفصل الأول

الزمن منتصف الليل... صدى خرير مياه قبع في الجانب الأيمن من المشهد
يضئ المكان قمر شاحب... هناك حفرة على الجانب الأيسر من المكان

المشهد الأول:

يظهر "سورماك" بمفرده (مونولوج)

يا لها من ليلة ساحرة... لا بل رائعة.. وأوقات هادئة بالنسبة
لمجرم من طينتي... القمر، كالأحلام تغفو على هديه الضمائر...
قمر يخطب وذ ليلة حبلى باستراحة الأبرياء... حتى لتبدو أية
حورية جميلة تنزل من السماء جلادة في أعين جزار من ثوبي قتل
أبيه... علماً أن تلك الحورية ترمز لآلهة الحب في نظر إنسان
بريء. أين حلفت يا طفولتي؟! رحلت بعيداً عني... حملتك طاقية
الإخفاء... زرعت التعاسة في دروب حياتي!!!...

عندما كنت طفلاً عرفت ملاكين: الحياة والموت... جناحاهما النور
ابتما لي وجلبا معيما الحظ... عندما اجتزت مرحلة الشباب، لبس
الموت قناعه الرهيب... كرهته... وأحببت الحياة لتنفجر في قلبي
بنابيع مفعمة بالمسي، يا له من وشاح أسود يحجب ضميري!!...
أحياناً تعذبني مخيلتي... أرى تحت أقدامي امرأة بريئة...
مقبورة... وأسمع أحياناً لعنات أصوات تنتم يائسة... لكن ماذا
تعني الخطة السهلة؟ نسمة تنساب كالبرق فتتلعج القلب وتنتثر خلفها
دعماً لا يدوم لحظات معدودة... مهما يكن، أتوق لتلك النسمات...
أنا أحب.. دعوني أشعر أن هناك من يحبني... آه... أسمع وقع
أقدام... إن القادم حتماً مسافر... لأتشجع...
...فاصل موسيقي...

المشهد الثاني

"سورماك" و"كيغام"

كيغام: (يدخل من جهة اليمين) ... آه نعم... إنها مرارة الحب...

سورماك: (يقترّب ويده خنجر) حياتك أو مالك!!
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كيغام: أي مال تطلبه مني أيها اللص البائس؟! أنا لا أملك سوى قلب
حزين!!.

سورماك: أنا لن أصغي إلى تلك الكلمات.. مالك أو حياتك؟.

كيغام: إذن اقتلني.. لكن اعلم أنني لا أملك شيئاً.. إذا كنت متعطشاً لدم
شاب مسكين ومشرد تخلص مني وابسط عند أقدامك تلك التي أحب
جسداً يقطر دماً...

سورماك: (على الفراد) يا للفتى المسكين... أقواله هزت كياني وحركت
مشاعري... لا أجرؤ على رفع قبضتي في وجهه، كأن يداً خفية
تمنعني وتلجم حركتي...

كيغام: ماذا قررت أيها اللص؟.

- سورماك: انطلق... ترأفت بك.
- كيغام: ترأفت؟! آه شكراً... إذن مازلت أملك بصيصاً من الأمل في صفحة سمائي المظلمة.. أمل يقودني من جبل إلى جبل... بالله عليك... إذا رأيت امرأة تدعى "مريم" تبحث عن ابنها "كيغام"... قل لها: إنه يائس... سيقضي نحبه قريباً لا عنأ والده كما أوصته أمه...
- سورماك: (بهلع وعلى انفراد) يا للسماء هذا ولدي... قبل قليل كنت سأقدم على سفك دم ابني أيضاً... (بصوت مرتفع) اذهب، اذهب أيها الفتى المسكين لكن لا تلعن والدك أي درس؟!... (يتمتم بصوت منخفض) فيو رجل يائس وملعون أيضاً...
- كيغام: شوشان... شوشان: من أجلك أريد أن أموت!
- سورماك: قلت "شوشان"؟!...
- كيغام: إنه اسم تلك الراعية التي أحب!
- سورماك: (على انفراد) إن ولدي هو عريمي... (وبصوت مرتفع) ارحل بسرعة من هنا قبل أن يحصل لك مكروه... (يبعد كيغام حزناً)... آه!! حسن أنا في هذه الدنيا!! غاية اللعنات... الجميع يلعنني... لكن مع ذلك لا يرتجف قلبي عندما أقدم على عمل إجرامي... هناك أصوات وقع أقدام تقترب... إنه بالتأكيد مسافر آخر أختبئ هذه المرة!...

المشهد الثالث

سورماك (في المخبأ) وديران (في العن)

- ديران: يظهر "ديران" في الجانب الأيسر للخشبة "تلتفت ويعاين الجهات الأربع" لا يرى "سورماك"
- ديران: إنه لم يأت بعد... سألني به... منذ فترة وهم يبحثون عن هذا المجرم: قاتل الوزير، ولا يعلمون أنه هو نجل ذلك الوزير... لقد خصن الملك مكافأة كبيرة لمن ينجح في إلقاء القبض عليه... ها...

- من يرفض اليوم هذا المبلغ الجاهز بدون تعب؟
 (يخرج إليه)... يا طاعن القسم ونكاث اليمين.. أيها الرجل
 السيء... كنت أعتقد أنك الصديق المخلص الأمين والوفي...
 ديران: ... (يهرب منزوياً لشدة ذعره)... لقد افترض أمرى...
 سورماك: ديران؟! أمن أجل حفنة من الدراهم... تشي بصديق عمرك؟...
 تذكر كيف أقسمت اليمين بحرمة ألف كنيسة وكنيسة في مدينة
 "أنسي"؟!... ألمت أنت أيضاً شريكى في الجريمة؟! لاسيما أنك أنت
 من حرصني على القتل العمدة؟. إذا كنت تريد أن ترح في السجن
 برفقتي أو أن يحكم عليك بالموت فقم بالوشاية بي للملك!!...
 ديران: (القلب مازحاً) بالفعل أنت صديق حقيقي... كنت أمتحنك بهذه
 المناسبة ليس إلا... فانا أتشوق لأشاهد وأعرف إن كان بإمكانك
 خيانة صديقك لمجرد التطرق إلى هذا الموضوع!!
 سورماك: (يتكلم على الفراد) افتضح أمورك أيها الغبي "ديران" (ثم بصوت
 مرتفع) يا صديقي أنت السبب في شقائي.. لو لم تكن يا ديران
 موجوداً لكسبت أنام الآن قريبي العين... لقد جعلتني مجرماً... في
 سبيل راحتك تحولت أنا إلى قاتل أبيه... دفعتني إلى السرقة من
 أجل السرقة والتي لا طائل أجنه منها لتصبح حياتي في نهاية
 المطاف شبيهة بحياتك الآن... تبدو لي السماء وكأنها جلاذ يترصد
 بي... في كل مبادرة أخطوها أرى بوابات الجحيم تنقش علي تريد
 ابتلاعي حتى بدأت أجد الورود تنفث السموم... أيها الجاحد
 الوضيع... دفعتني لقتل والدي... بددت الأموال التي ورثتها عنه
 مذ صحبتك في ملاهي الميسر والمجون حيث المأكول والمشرب
 و... ديران!... ديران! يا ناكز الجميل... من أجلك استبدلت دعاء
 والدي بلعناته.. أنا شقي الآن وسأبقى كذلك... لأنني من
 أجل إرضاء نزوات جاحد مثلك قضيت على والدي... كنت ذات
 يوم نجل الوزير، أصبحت اليوم لصاً طريداً...

- ديران: دعك من هذا الكلام الفارغ وكن صلب الشكيمة قاسي القلب لا تكن رعيدياً كالأطفال... واعلم أن العيش سيان للمجرم الشقي والمستقيم البريء... السعادة تفرغ القلوب دون استئذان... أكانت حقلاً شائكا أو مزهراً... يشهد على ذلك ندى الصباح تنيره شمس الحياة. قد تذبل أزهاره عند المساء لتنتعش صباح اليوم التالي... هكذا هي حياة الإنسان: يؤسّ اليوم وسعادة في الغد... الحياة في نهاية المطاف أشبه بنهر تارة تتساب مياهه بين الحقول والزهور وطوراً بين الصخور... والآن لنهتّم بعملنا! ما الهدف من لقاء اليوم؟
- سورماك: سنعمل على خطف "شوشان" ابنة "باريد" بالتبني... مع العلم أن نجل هذا "الباريد" يحبها... وفي الليالي المقمرة يخرج الثنائي للتجوال في الحقول... يبدو لي أن هناك صعوبة في تحقيق هذا المشروع... لكنني مستعد للموت في سبيل احتضان "شوشان" بين ذراعي لمرة واحدة ليس إلا....
- ديران: لا تقلق كثيراً... لا أتوقع مواجهة أي خطر... سأنهي هذا الموضوع دون إثارة أية ضجة وبهدوء... أنت تعلم مقدار مهارتي في هذه الأمور... تشجع... رايتهما وأنا في طريقي إليك يتجولان بين أشجار الكرمة... كنا على بعد من منزلهما...
- سورماك: هذا خبر سار... أخيراً أصبحت "يا شوشان" في قبضتي... سأحول نظراتك المتعالية تلك إلى ابتسامة.. سوف أجعل قلبك يخفق رغماً عنك على وقع دقات قلبي....
- ديران: تمهل قليلاً... هل سألتقاضى أجره مقابل هذا العمل؟
- سورماك: بالتأكيد... (ثم على انفراد: أجرتك هي الموت الليلة إذا نجحت في مساعي!!)
- ديران: فلنذهب إذن... لا تتردد بقلب شجاع وضربة لا تخيب...
- سورماك: لنذهب على الفور... أنت تنفذ عملية القتل وأنا أقوم بالحراسة والمراقبة.. أحسنت يا ديران.. إذا نجحت الخطة...

ديران: ألا تزال الشكوك تساورك بالنسبة لهذا الأمر؟ (يتمتم على انفراد:
 "بددت شكوكه" قبل أن يتابع بصوت مرتفع) لننتج من هنا...
 انتبه.. القمر هذه الليلة متخف يساندنا.. إن كنت تريد سماع
 الحقيقة: القمر أيضاً يشاركنا في جرمنا.
 سورماك: (يقف بمفرده) يعتقد هذا الغبي أن تصريحه السابق عن الوشاية بي
 طوي إلى غير رجعة... فليعتقد ذلك... (يبعد الرجلان من الجانب
 الأيسر للمسرح)...

المشهد الرابع

يدخل "فارت" و"شوشان" متشابكي الأيدي.

فارت: حبيبتي شوشان، لقد تعبت!! استمحيك عذراً!! هل تجلس بعض
 الوقت عند تلك الساقية؟.

شوشان: أنت تعلم أنني لا أشعر بالتعب طالما أنا بقربك يا فارتي...

فارت: "شوشان" ما أن داعيت أصابع الحب الناعمة قيثارة قلبي، ولأول
 مرة في حياتي حتى رجت أتصور حضنك الدافئ ويديك الرقيقتين.
 وقلت لنفسني: متى ستأتي لحظات السعادة المرتقبة فتهمسي يا
 حبيبتي في أذني وببساطة كلمة: "احملني يا فارت"... ها أنذا بين
 أحضانك يا شوشان... كم هي سعيدة تلك الزهرة المرسومة فوق
 شففتيك وتلك للنسمة التي تداعب وجنتيك!!.. وكم هي سعيدة تلك
 الأشعة المتغلغلة بين صفائر شعرك والأكثر سعادة هو ذاك الذي
 يحبك من كل قلبه!..

شوشان: حقاً ما أحلى الحب؟! "فارت".. الحب ربيع أزلي يغار عليه قلب كل
 منا.. انظر يا فارت الطبيعة كلها معبأة بمشاعر الحب... القمر يشع
 حباً... والزهرة تنوح حباً... آه كل شيء غارق في الحب...

فارت: شوشان... كم أنت جميلة... ثانياً قلبك طاهرة كأوراق السوسن...
 نظراتك حلوة كبريق أول شعاع للفجر... روحك عذبة كنسمة

الصباح... آه لو لم تكوني في هذا الوجود لأصبحت كبير عم وردة تغلفها الأشواك يذبل قبل تفتحته.

شوشان:

يعلم الباري أننا لا نستطيع العيش منفصلين لذلك دفعنا إلى حضن واحد... لنلتقط أنفاسنا من الحب... أليس كذلك؟... "فارت" سنظل عاشقين كما تحب الزهرة التسيم... آه... أنظر كيف يذق قلبي بشدة كأنه يريد الخروج من صدري والتحليق على مقربة من قلبك!! اقترّب مني حبيبي "فارت" وضممني هكذا على الدوام بين ذراعيك... هل ترى كيف يبتسم لنا القمر وكأنه يريد هو أيضاً التقرب من هالسته المزينة بالنجوم لينضم إلينا... إنه مولع بنا... ويسهر على حراستنا ويتبعنا حيثما نذهب... أيها القمر! سوف تنير دروبنا ليس فقط خلال حياتنا وإنما كذلك عندما نموت... سوف تظل ثرانا.. يومها سينهمر الدمع فوق هذا الثرى عوضاً عن الحب... لأنه الآن يبتسم عندما نمر من هنا بالطبع سيحزن لموتنا... أيها القمر المسكين... مثواك عبارة عن غيمة كثيفة...

فارت:

لا نقولي هذا شوشان! لماذا تذكرين الموت؟! من الأفضل أن نستمر في العيش معاً بمحبة وسعادة أبدية... ألا تعرفين ما أكنه لك من مكانة، حياتي أنت، أولى ابتساماتك لي تحولت إلى شمس مشرقة في حياتي...

شوشان:

هذا القلب النابض الذي اقترب من جسدي هو قيثارة محبة، فأنا كذلك لم أكن أفقه الحياة قبل تعارفنا، فأثر حرماني من أسرتي كنت أعيش بهذا القليل الذي ورثته عنهما... اعتقدت أنني سأظل بائسة إلى الأبد... لكنني كنت مخطئة... فظراتك الأولى أزعجت وشاح الحزن الذي أحاط بقلبي... قبل التعرف عليك كنت أمضي النهار بين السهول والغابات حزينة أنتظر حلول الظلام... وما أن يطل الغروب وتصبح خيوط الأفق ذهبية حتى أشعر بالبهجة لأنني اعتقدت يومئذ أن حياتي ستنتهي... اعذرنني يا حبيبي لم أكن أعرفك آنذاك... ولم أقاسِ آنذاك من ليهب الحب، أما الآن فقد اكتشفت أنني كنت عقيمة التفكير.

فارت: ماذا تعتقدين يا شوشان؟... لو أن سائر الناس أحبوا على طريقتنا
لامتعت الأزهار عن الذبول من شدة غيبتها... يا شوشان يا هدية
الحب الصافي... هل ستوقف الطيور عن التغريد لشدة غيبتها منا؟
ومن سيوقفنا لتبادل القبل مع إطلالة أول شعاع كل صباح؟ ما أذ
تلك اللحظات...

شوشان: يبدو الوقت قد أدركنا لنعد إلى المنزل... "فارت" غداً في الصباح
الباكر نأخذ الماشية ونصعد على سفح جبل "ماسيس"... أليس كذلك
يا فارت؟

فارت: حسناً شوشان... ولكن ما هذه الأصوات؟ أنصتي!
(تتردد كلمات مرثية غنائية تنبعث عن بعد تنشد):

أيها الليل الساجي المضاء
امتنحي ما يكفي من الوقت
لأدرك الدمع السخي بأسى
أنت فقط من يواسي الأمي
وأنت يا سماء الرحمة والعظمة،
أطلب منك أن تتمم شفأتي،
اللجنة، لأطلقها على ذلك الذي أدمعني
وخدعني وأفرغ حياتي من الأمل...
بأنسة أنا، بؤسي لا يعرف النهاية،
إذا فلتسقط اللجنة على "سورماك"،
ولتسحق روعي لأني خائنة للحب،
الرحمة أيها السماء ولتذكرني دموعي.

شوشان: ما هذه المرثية التي تستجدي الشفقة... لمن تكون يا ترى؟

- فارت: لامرأة بائسة بالتأكيد... من يدري أية مصيبة ألمت بها؟
- شوشان: هل تبكي يا "فارت"؟ لكن لماذا؟ أتوسل إليك أن تخبرني!.
- فارت: هذا الصوت "هذا الرثاء أثر في وجدائي... لا أعلم كيف سالت دموعي بشكل لا إرادي..."
- شوشان: آه... يا لها من امرأة مسكينة!... أي حزن أصابها يا ترى؟
- "فارت"... هل نستطيع مساعدتها؟.
- فارت: ربما... ما أثقل حزنها!! إنها تحاول التخفيف عن ألمها... يبدو أنها تعتقد لمن تبث إليه شكواها... فاضطرت لاتخاذ حجة الليل سلواها... عليها تبحث عن يواسيها... يا لها من امرأة بائسة!!.
- شوشان: ما هذا القلب الذي تملكه المذبح بالمشاعر الجياشة يا فارت؟! كيف ذرفت عينك الجميلتان الدمع هكذا بسرعة؟ (تضع شوشان يدها فوق قلبه)... كيف يخفق قلبك بهذه القوة؟! أهدأ يا حبيبي!!... بالطبع يمكننا مساعدتها قدر المستطاع... هيا بنا لنذهب بهذا الاتجاه!.
- فارت: توقفني... ها هي أصوات أقدام صمماء تقترب... يبدو أنها هي... فلننتظرها!!!.
- شوشان: لكن أهدأ أرجوك...
<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

المشهد الخامس

"مريم" بالإضافة إلى الشخصيات السابقة

- مريم: (تدخل من الجهة اليسرى للخشبة). ندبي ذهب أدراج الرياح... ليس هناك من يسمعي... حتى رب العالمين أدار وجهه عني... أنا بائسة... امرأة مجنونة لا تعلم أين طريقها... تبحث باستمرار عن قبر تحت أقدامها... يا موت لماذا أبطأت المجيء؟ فقدت الأمل... لا حدود لشقائي... "سورماك" لتطاردك اللعنات إلى الأبد وتظل لعنتي حياتك بوشاح من الحزن!!....

- شوشان: ماذا أصابك يا امرأة؟ وأية كوارث ألمت بك؟ هل أنت من كانت تترنم بمرثية الرحمة؟...
- مريم: لكن من أنت أيتها الشابة الحساء؟ وماذا تفعلين في هذا الوقت من الليل؟.
- شوشان: أنا راعية القرية اليتيمة الأيوين... تبنايني فلاح طيب القلب... خرجت مع هذا الشاب نضرب في الحقول الغافية... نحن عاشقان...
- مريم: شابان سحابان؟ إذن أتمنى لكما السعادة.. ودعاني أرثي حالتي البائسة... أنتما لا تعلمان ما هو الشقاء؟
- فارت: تشجعي أيتها المرأة البائسة... قللي لنا ما المصيبة التي تعانين منها وسترين أننا سنساعدك قدر المستطاع.
- شوشان: اعلمي أنني كنت على غرارك مسكينة ووحيدة في الحياة... وعندما استضافني هذا الشاب النبيل في منزله أتعمت عليّ محبته منتهى السعادة
- مريم: عندما أروي لكما مصيبتني ستعلمان أن الحب يكمن وراءها...
- الشابان: الحب!!
- فارت: هل يمكن لهذا الإحساس النبيل أن يؤدي إلى الشقاء؟!
- شوشان: لكن أخبريني، كيف وقعت في شباكه وأصبحت بائسة؟!
- فارت: نعم أخبريني أتوصل إليك!.
- مريم: إن رويت لكما قصتي لن تلوامني؟.
- الشابان: لا إطلاقاً!!
- مريم: قبل تسعة عشر عاماً من الآن تزوجت فلاحاً أحببته كثيراً وهام بي عشقاً. رزقنا الله بعد فترة طفلاً وحيداً ونشيطاً... لننعم بالسعادة لبعض الوقت.. وفي أحد الأيام (ذاك المشؤوم) بينما كنت هائمة على وجهي في الحقول عند غروب الشمس وقلبي فرح غارق

بالحب...مرت دقائق معدودة إختفت على أثرها أشعة الشمس
ليتربع قمر ذهبي في صحن السماء متسلقاً الأفق... وأنا في طريق
عودتي إلى المنزل أجمع الأزهار... سمعت فجأة صوتاً يتلفظ
اسمي.. أصابني ارتعاش خفيف... استدرت نحو مصدر الصوت
لكنني لم أجد أحدا.. راح قلبي يخفق بشدة.. تابعت طريقي ليصل
إلى مسامعي الصوت ذاته من جديد، التفت إلى الوراء لأشاهد شاباً
جائئياً على ركبتيه يناديني...

من كان صاحب ذاك الصوت؟

شوشان:

عرفته منذ الوهلة الأولى.. إنه شاب أقسمت له ذات يوم أن أبادله
حبا بحب عندما كنت مراهقة.. أصابني القشعريرة ساعته... ولم
أتمكن من متابعة سيرى، استوقفتني الحب... سرت إليه خطوات
معدودات.. وأنا في حالة فقدان الشعور... لأجده خلال ثوان بين
ذراعي.. حبا مساوياً كان.. انفصلنا أخيراً.. لتمر عدة أيام
أخرى... ثم هربت برفقته واختبأنا في الجبال المجاورة...

هناك عرفت معنى الحزن وذرف الدموع... وأنجبت طفلاً أسميته
"كسيغم"... والده ذاك المجرم الخسيس... حملت رضيعي ذات يوم
وابتعدت عن ذلك المكان لأعيش بصحبة طفلي... حتى أضاعته قبل
شهر، وبعدها فقدت حملاني وشاتي التي أفتات من حليبيها... وها
أنا أعيش شقية منذئذ... وفيما بعد اضطررت للتسول بين هذه
القرية وتلك، وبين ذاك الجبل وجاره.. انتقل بين تلك الأماكن
كالمشردين... إنني مذنب، استمحيكما عذراً. لقد دفعتماني للبوح
بأسراري...

سامحناك أيها المرأة المسكينة!!!

فارت:

ونتضرع إلى الله تعالى، عله يغفر لك.

شوشان:

لكن من هو زوجك الشرعي؟! بالطبع لا بد أن نكون قد سمعنا عنه،
إن كان من سكان قريتنا...

فارت:

- مريم: إنه الفلاح الملقب "باريد" .. لو شاهدته الآن لما عرفته ... لأنه مضى سبعة عشر عاماً على انفصالي عنه...
- فارت: قلت الفلاح "باريد" أينها السماء!!
- شوشان: هل أنجب أولاداً؟
- مريم: لكن لماذا ظهر الحزن على وجهيكما؟! نعم عنده ولد وحيد يدعى "فارت" وهو ابني أنا!!
- فارت: يا إلهي ماذا أسمع؟ إذن أنت والدتي التي فقدتها منذ طفولتي؟
- مريم: أمك أنت .. آه!!
- فارت: نعم أمي!! أنا "فارت" ولدك ولازلت أحبك!!
- مريم: وتسامح أمك .. أليس كذلك؟! (يتعلق الاثنان) ...
- شوشان: يا لمحاسن تلك الصدفة السعيدة!!
- فارت: أمي أنت سعيدة الآن لأن ابنك بين ذراعيك؟!
- مريم: نعم أنا سعيدة يا بني ..
- فارت: لو أخذتك إلى والدي .. لن تحزني أليس كذلك؟!
- مريم: إلى والدك!! أه لا ... لا ... لست أهلاً لمحبه واحترامه ... ربما يكن لي اليوم الكراهية والبغضاء، وإن طرقت بابه قد يطردني!!
- فارت: أنت مخطئة يا والدتي ... فوالدي لا يزال يحبك ... وهو لا يعلم تفاصيل القصة التي رويتها قبل قليل ... ويعتقد أنك ضائعة ليس إلا ... ولو أخذتك إليه سيستقبلك بالأحضان.
- مريم: لكن إذا علم بقصتي تلك ... سوف ...
- فارت: (مقاطعاً): يصفح عنك ... شوشان! أحضني أمي أيضاً ... بعد أيام يا والدتي سوف تكوني شاهدة على حفل زفافنا ... أنت أيضاً ستباركين هذا الزواج السعيد...

- (تسمع عندئذ صوت يصرخ من بعيد: ساعدوني، ساعدوني...
اتجدوني...)
- فارت: آه... هذا صوت صبي.. لأذهب وأتبين الأمر!.. (يخرج فارت)
- مريم: (تسعى وراء فارت): توقف... توقف... قَدْ يتربص بك الخطر!
(تغلغل الخشبة في أعقابه)...
- شوشان: ما معنى هذه الكلمات التي خرجت من فم "فارت"؟ العرس... آه...
بعد وقت قصير سأزف إلى "فارت"! سيصبح زوجي!... هكذا
سأدعوه بعد قليل... يا لسعادة هذا القران.

المشهد السادس

شوشان وكيغام

- كيغام: (يسير حزينا... يلتقي شوشان...) هذه شوشان! (يركع على الأرض)...
- شوشان: شاب أمامي جائشاً على ركبته! قف على قدميك! ماذا تريد؟
(تساعده على الوقوف) <http://Archivebe>
- كيغام: نظرة... ابتسامة... كلمة...
- شوشان: لم أفهم ما تقول... أفصح!! ماذا دهالك؟
- كيغام: إن نطقت قَدْ يعجز لساني عن البوح... آه... أحبك يا شوشان!
- شوشان: فارت... فارت... تعال....
- كيغام: ها.... اصمتي... اصمتي... أرجوك ارحمني!
- شوشان: لكن كلامك يخيفني.. اعلم أن...
- كيغام: اسمعيني... إنك تمرغين قلباً تحت قدميك.. ينزف في كل خطوة
دماً... أملك هذا القلب لكنني أهديه لك وأنت ترفضينه.. إن أظنني
فسي للصميم لأنه يخفق كل لحظة من أجلك... أزيل بالخنجر ذاك
الاسم الذي حفره الحب عميقاً في قلبي... لتدب هذه الشفاة لأنها

تسقط اسمك كل لحظة... إن كنت لست أهلاً لحبك.. اقتنيني أرجوك قبل أن تقول لي "لا أحبك"... أنت لا تعرفين الرحمة يا شوشان... اعتقدت أنك ستأفين لحالي... لكنني كنت مخدوعاً... أحبييني بكلمة "نعم" أو "لا"!! أنت تبكين! إذن هل أصدق أنك تحبينني؟ أديري وجهك باتجاهي! تكلمي!! لا ترهقي قلبي!!

شوشان: (على انفراد) نعم أبكي "فارت"... يا لهذا الشاب المسكين!! لأنني أعلم ماذا يعني أن يقع الإنسان في الحب وألا يبادل له الطرف الآخر مشاعره تلك...

كيغام: بماذا تفكرين؟ ماذا يحول في خاطرك؟ ستحبينني أليس كذلك؟ ضميني إلى صدرك لنكون سعدين!! قل لي كلمات تعبر عن حبك لي ليحذف التشاؤم عن نفسي كي يغرد البلبل في الصباح الباكر ليحمي كابة الليل عن الغابة.

شوشان: لكنني لا أستطيع أن أبادل لك الحب... أيها الشاب المسكين.. تعهدت للسماح ألا أمتحج جني سوى لك "فارت"... فكيف أنكث عهدي؟ لا... لا... لا أستطيع التخلي عن "فارت" من أجل شخص غريب، لا أعرفه وبإمكانه الارتباط بفتاة أخرى.

كيغام: إذن حكمت عليّ بالموت... اعلمي أنني لن أنعم بالسعادة بعد اليوم، حياتي ستكون حزينة... سيجلد الحب قلبي بسوطه... ذكرك ستظل تطاردني حتى القبر... وعندما سألفظ اسمك شوشان شوشان... ستدق الأثواب في قلبي كالصامير... وعند أية تهيدة سيتوارى جثمانني أكثر فأكثر... وفي نهاية الأمر ولدت مجبولاً بالألام وسأحملها معي إلى القبر... لأن طريقي شائك من المهد إلى اللحد... إذن هكذا تريد الموت للذي أحبك أكثر من روحه... شوشان... ترغيبين موتي!!

شوشان: لا أستطيع أن أحبك (تبتعد عنه).

المشهد السابع

ينضم فارت إلى الشخصيات المذكورة سابقاً

- فارت: (يدخل ويتكلم مع حبيبته) لنذهب يا شوشان.. والدتي تنتظرنا...
- شوشان: من أصدر صوت الاستغاثه؟...
- فارت: إنه صبي وقع في البحيرة عندما كان يلعب على ضفافها!..
- شوشان: هل تمكنت من إنقاذه؟
- فارت: نعم... وحملته إلى منزل والديه القريب من المكان.
- شوشان: فارت... أنت ملاك حارس... (يتسحب الاثنان من المنصة إلى خلفيتها).
- كيغام: آه... آه... (يبعد يائساً)...

المشهد الثامن

يطل "سورماك" و"ديران" من الجانب الأيسر

- سورماك: كيف اقتنينا أثرهما ولم نجدتهما؟... ديران... ربما أقدمت على خداعي!!..
- ديران: وكبم أخدعك؟! كان المسكينان يتجولان عندما جئت للقائك.. وإن وجدتتهما الآن وأنا على هذه الحالة من الغضب الشديد سينال الشاب ضربة تشطره إلى نصفين.
- سورماك: اخرس أيها المنافق!... يجب أن نعثر عليهما لأن منتصف الليل شارف على الاقتراب... ربما وليا بوجهيهما شطر المنزل...
- ديران: إذن لنؤجل تنفيذ العملية إلى الغد... بالتأكيد سننجزها غداً وسننجح.
- سورماك: هل أنتظر حتى الغد؟!... قرن من القلق والليفة؟ لا... لا أستطيع مقاومة هذا الشوق... ألا تعلم كيف يشتعل قلبي هيماً؟.

ديران: إذن... لأذهب هذه المرة للبحث بالقرب من منزليهما.. أبق أنت هنا... وفي حال احتجت لمساعدتك أطلق إشارة لتوافيني على جناح السرعة.

سورماك: إذن... اذهب يا ديران ولا تعد خالي الوفاض. (يبعد ديران من الجهة اليمين للمسرح).

المشهد التاسع

سورماك (لوحده)

سورماك: أيتها الشهوة الأثمة!! أئن تخمدي؟ هل سيظل لبيب نارك الجهنمية ينهش قلبي؟ كم أرقّت من الدموع وسفكت من الدماء البريئة بهاتين اليدين اللتين لا تعرفان الشفقة فوق هذا اللبيب الذي لم ينطفئ بعد؟! أيها القلب! ألم تسمع صوتها قبل قليل؟ أئتت أنت من علمها تلك المرثية المأساوية؟ كيف تتقن لحن البراءة ليس إلا... أنت لفتتها كيف يكون الحزن؟! وكيف تكون الخطيئة؟ لا يزال أنين صوتها يتردد في أعماق قلبي.

لا يزال منظرها يزرع الحزن في روحي... حين أخرج أحياناً في وضوح النهار تتتابني المخاوف من أن أجد مبررات لجرائمي التي تفرسني كما يفعل النمر مع طريدته... اتخذت من الليل سترًا كثيفًا لإخفاء جرائمي... تخيفني إشرقة الشمس التي تبعث البهجة في نفوس الأبرياء أهرب منها لأختبئ في أعماق الغابة... تؤرقني جرائمي.. ماذا أسمع؟ وقع أقدام... هناك من يركض في هذا الاتجاه! (يلتفت إلى جهة اليمين)... هذا ديران لقد نجح.. هامي "شوشان" بين ذراعيه.. (على انفراد) تشجع يا سورماك!! ويا ساعدي لا ترتجفا... يجب أن يموت "ديران"... هذه الحفرة ستصبح قبره... لن يستطيع النجاة والخروج منها... كي لا يبقى كاشف أسراري وشريك أقداري على قيد الحياة.

المشهد العاشر

سورماك، ديران، شوشان (مغمى عليها).

- سورماك: أحسنت ديران... أنت شجاع...
- ديران: (حاملاً شوشان بين ذراعيه)... انقطعت أنفاسي... أنا منك من التعب....
- سورماك: خل أغمي عليها؟!
- ديران: نعم...
- سورماك: كيف نجحت؟
- ديران: ما أن ابتعدت عن هذا المكان حتى شاهدتهما يسيران أمامي: وضعت المعطف على رأسي كي لا يتعرفا علي... واقتربت قليلاً فشاهدت "مريم" - خليلتك - تتحدث إليهما....
- سورماك: خليلتي "مريم"؟ (بصوت خافت) عن أي موضوع كانوا يتحدثون؟!
- ديران: لم أصغ! هجمت بغتة على "قارت" وطرحته أرضاً بضربة من خنجرِي.
- سورماك: هل كانت الضربة قاضية؟
- ديران: لا... لكنها عميقة الأثر... عندما هممت بحمل "شوشان" بين ذراعي ومغادرة المكان... شعرت بيد تمسك بي، وبصوت يتوسل ويقول "ولدي" استدرت لأجد "مريم" أمامي.. ركلتها بشدة ورميتها أرضاً دون حراك... وهكذا جئت إليك دون إزعاجات أخرى.. إذن ماذا سنفعل الآن؟ قل بسرعة كي لا يداهمنا أي خطر.
- سورماك: هاتهما (يتناول "شوشان" بإحدى ذراعيه ويضعها بالأخرى ديران)، مت أنت كي أستطيع التفكير جيداً.
- ديران: آه... يا لك من ناكر لتجميل... مجرم
- سورماك: الآن بإمكانك أن تشي بي! فلتنعم بالراحة يا قلبي، لم يعد هناك واش يعرف أسرارِي.

- ديران: (بصرخ بصوت منقطع) هذا الرجل قتل أباه الوزير قاهرام...
 سورماك: ديران المسكين... النيل فقط يستطيع سماع صوتك...
 ديران: لا... الله يسمعني... (يقضي نحبه ويستعد "سورماك" للرحيل حاملاً "شوشان" بين ذراعيه).
 مريم: (تأتي من الخارج وهي تردد): من قتل ولدي؟؟
 سورماك: يا للسماء... هذه هي... يا ركبتي... لا تضعفا... هيا إلى الأمام!!
 وأنست أيها القلب الذئبي، لماذا تخاف من امرأة وأنت صاحب هذا الكرم من الجرائم... لماذا أصابك الذعر؟... اهدأ.

المشهد الحادي عشر

الشخصيات المذكورة في المشهد العاشر

- مريم: (تهرع إليه): أيها المجرم!! ماذا فعلت بولدي؟
 سورماك: مريم... كفى... اتركيني... ولا تقفي في طريقي وإلا قتلتك أنت أيضاً!!
 مريم: هذا الصوت... ليس غريباً... أعرف صاحبه... من أنت؟
 سورماك: لا تسألني عن اسمي... فقد طاردتني ذكراك مراراً... لم ينقطع صوتك عن مسامي صباحاً مساءً... تكفي اللعنات...
 مريم: (تقترب من "سورماك" وتحقق فيه) "سورماك"... (ثم تصرخ) أ... أيها المجرم... أنت مرة أخرى!! لتلعنك السماء إلى الأبد... (تجتو على ركبتيها بيأس) يبتعد "سورماك" عنها حاملاً "شوشان" بين ذراعيه ويسدل الستار.

نهاية الفصل الأول

الفصل الثاني

المشهد الأول

يدخل "باريد" و"كوركين"

باريد: ما هي طلباتك أيها العجوز "كوركين" تكلم؟ أنت تعلم أنني لم أرفض لك طلباً إطلاقاً!!!.

كوركين: أتعلم كم هو عزيز الابن على قلب أبيه؟.

باريد: دون أدنى شك... الابن هو مستقبل والده...

كوركين: ودموع فلذة الكبد، ماذا تعني؟.

باريد: كأنها تحفر قبر هذا الوالد، هكذا حدثت الأمور معي... منذ ذلك

المساء يوم وجدت ابني جريحاً على قارعة الطريق حملته وجئت به

إلى المنزل، وهو لا يتوقف عن البكاء على فراق حبيبته

"شوشان"... وقد عثرت عليها يوم كانت طفلة يتيمة الأيوين...

فتبنيته لتقاسمنا الحياة... في هذا المنزل... وإن كنت تريد الحقيقة

أنا كذلك أذرف الدموع على فراق تلك الفتاة البريئة لأنني أحببتها

كما أحب ابني... وكنت أزمع تزويجهما بعد أسابيع قليلة.. لكن

للأسف...

كوركين: بما أنك عانيت من مرارة الحزن... إذن اسمعني، عندما عدت ليلة

البارحة إلى المنزل... ارتمت ابنتي بين ذراعي... لم أنتبه لمقلتيها

الدامعتين.. لكن بعد برهة شعرت برطوبة تنساب إلى صدري،

فخاطبتها بلهجة تأنيب: ماذا أصابك يا فتاتي؟ فأجابت: "أنا بائسة يا

والدي"... أحرزني كلامها... ضمنت وجهها الجميل إلى صدري

بقوة وسألتها: ما بك تكلمي! أجابتنني: "أحبه"! ودموعها تنهمر فوق

وجنتيها... أخيراً استطعت انتزاع سر حزنها... إنها مغرمة بابنك

"فارت"!!!...

باريد: ابني أنا؟!

كوركين: نعم.. ثم قالت لي: "إن لم أتزوجه سأعيش بآنسة طوال حياتي"...
 آه... حاولت إقناعها بغير ذلك لكنني فشلت ولست أدري ماذا أفعل؟
 وأفكر الآن كيف سأتصرف وماذا أصنع عندما تصبح غالييتي
 بآنسة؟... وضعت أمني فيك يا "باريد" أنت فقط من يستطيع إنقاذ
 ابنتي من الشقاء الذي سيصيبها... أيها النبيل "باريد"... أنا على
 استعداد للموت فداء لابنتي... إنني أحيا من أجلها، حياتي كلها
 مروهنة بابتسامتها... شعر رأسي هذا الذي زحف إليه الشيب أنثره
 شعرة شعرة عند قدميها إن كان هذا الأمر يسعدها... أصبحت
 منكم التفكير بها حتى رحت أخشى أن تشعر شفتاي يوماً ببرودة
 الموت تسري إلى جسد ابنتي...

باريد: تشجع أيها العجوز "كوركين"... لا تسلم لليلس هكذا بالتأكيد
 تشفق السماء على أب معتك فتحول دون رؤيته لابنته تنرف
 الدموع... انظر كيف أتجند أنا أمام تهديدات ولدي التي تمزق القلب
 وهو يذرف الدمع وجيداً ليل نهار... وقد ابتعد عني. اللعنة على
 ذلك الذي جعل ابني فتى بآنساً... هذه حالة كل منا... لكنني
 سأعرض عليه ابنتك التي تحبه... فإن استحسن الفكرة أصبحنا كلنا
 سعداء...

كوركين: ليباركك الرب... كم أنت نبيل يا "باريد" وطيب القلب... تأخر
 الوقت الآن... سأذهب إلى الحقل وقد نلتقي عند المساء. إلى
 اللقاء... (يبعد من الجانب الأيسر للمسرح).

باريد: لنذهب بسلام (ينصرف إلى الداخل).

المشهد الثاني

مونولوج "فارت" بمفرده

فارت:

ما أن يطل الفجر حتى تساورني تخيلات أن "شوشان" في أحضاني... لكني أجد نفسي باستمرار... انتظر وكلني أمل وبكل جوارحي... رسول الحب: نسمة الصباح... ربما تأتي بسلام... حاملة قبلة من "شوشانتي"... لكنها تنساب بهدوء وتمر بصمت وكأنها تسير إثر جنازة... إذن "شوشان" توفيت أجيبيني أينها الغابات والسهول!! هل ذبلت تلك الزهرة الناعمة؟ كيف تصمتين ولا تجيبينني؟ أه... فهمت إلى ما ترمين؟ تباً لتلك الليلة... يوم اكتمل البدر الحديث الولادة... ربما هي الآن في السماء... تنتظرنني كي أتبعها وأحضرها وأقبل تلك الشفاة التي ما برحت تنطق بالحب الأبدي... لم أعد أستطيع تحمل هذا الشوق... تمر أيامي المتبقية مخلفة حزناً كبيراً في قلبي... ندى الصباح تحول إلى دموع تنهمر من عيني نقطة نقطة... أما الأثر هار فليست سوى ذكريات حزينة... ذكرى حبيبي ما برحت تعذبني... الثرى فقط يستطيع أن يضع حداً لأحزاني (يخرج ختجراً من جعبته) فليخترق هذا الخنجر قلبي... ولأمت!!... (يهم بطعن نفسه عندما يدركه "باريد" فيمسك بيده)...

المشهد الثالث

فارت وباريد

باريد:

توقف! ماذا تفعل يا بني؟ هل نسيت أبك المسكين، ألا تعلم مدى الضرر الذي تلحقه به؟.

فارت:

أه دعني أموت يا أبت!!... دعني أغادر فأدرك تلك التي رحلت قلبي!.

باريد:

إن أنت تحبها أكثر من أهلك العجوز؟.

- فارت: لا يا أبت! لكن من دونها لن أشعر بطعم الحياة...
- باريد: موتك سيجلب لك السعادة؟! ماذا سيفعل عندها والدك وقد أصبح وحيداً في هذه الحياة؟ من سيضم إلى صدره ليعزيه؟! وهو لا ولد له سواك، أنت وحيد! عندما سيمرض من يريحه من آلامه؟ تجلد يا بني!! ربما لا تزال "شوشان" علي قيد الحياة؟! ربما عادت يوماً تبحث عنك!! فإذا ما وجدتك قد فارقت الحياة ستغدو بائسة... تجلد!! ربما ستستجيب السماء لتضرعاتنا... لكن يا بني إن كنت تحب والذك... أبعد ذكرى "شوشان" عن مخيلتك وعندها ستجد السعادة مع أية فتاة أخرى...
- فارت: كيف ذلك؟.
- باريد: ابنة "كوركين" تحبك وهي تتحب ليل نهار من أجلك.. وأنت تعلم كم هي فتاة جميلة و...
- فارت: هل رحت تهذي يا والدي؟ أنا أمحي ذكرى "شوشان" من قلبي وأعشق سواها؟ عندها ستصمني الغابات والسهول بالمحب الخائن وستقرش الأرض بالأشواك تحت أقدامي أينما توجهت احتقاراً لفعلتي تلك... هذا القمر الفضي الشاهد على حبنا سيكن لي كراهية لا حدود لها وهو مختبئ خلف الغيوم... أه لا أستطيع أن أنساها وأنسى حبها... لماذا وقفت يا والدي بيني وبين الموت؟ ربما كانت أرواحنا في هذه اللحظات تتعانق هناك في السماء؟ ربما كنت الآن في أحضان "شوشان"!!.
- باريد: ووالذك!!... عندها سيقف والدك الحزين أمام حجر قبرك الجامد يرتعش من شدة الصقيع... أه الآن فقط اكتشفت أنك لم تعد تحبني يا فارت!!.
- فارت: أه لا... إني أحبك يا أبت... اطلب دمي... أمنحك حياتي... لكن لا تطلب مني قلبي... دع هذا القلب يذوب ويتلاشى في حب "شوشان"... لا أستطيع أن أغرم بفتاة سواها.. صوت "شوشان"

الحزين لا يفارق مسامي وهي تهمس: "أحبك على الدوام"، لا أستطيع... إذا كانت "شوشان" على قيد الحياة فأستيقظ كزوس "أشاف" وإن كانت ميتة سأحمل حزني عليها إلى القبر... إن أحببت سواها ستصل تهدياتها إلى أذني خلال رقادي وأتنبذ دموعها سيصم مسامي... ستغزو كل قطرة من دمها عذاباً وندماً ينهش قلبي... شفاه "شوشان" التي كانت نبع القبلات ستصطبغ باللعنات... يوماً يا أبت ستضئ بروق الكراهية سمائي... أه كيف أستطيع أن أغرم بسواها؟...

باريد: إن كنت لا تحب سواها توقف عن النحيب كي يتوقف والدك عن الحزن... لا أرغمك على التعلق بامرأة أخرى يا بني... لكني لا أرغب رؤيتك فاقد الأمل وحزيناً!! منذ اليوم إن شاهدت بارقة دمعة حزن في عينيك أو سعدت من بين شفقتك أتنبذ خافت فاعلم أن والدك العجوز سيبدأ عدّ درج السلم المؤدية إلى قبره...

فارت: (دامع العينين) أه... مستحيل يا والدي... إن حدث هذا الأمر عندها إن سأتارك هذه الدار وأتسود من جبل إلى آخر كي لا تراني فاقد الأمل... سأظل أنوح وحيداً في أعماق القبور حتى تنقطع دموعي وتغطي رأسي أتربة سوداء...
<http://www.ireland.com>

باريد: أه... لا... يا حبيبي... ابق بين أحضاني... وانزف الدموع وسأبكي أنا بجانبك... بدموعك سأروي جبهتي المعذبة... وبقبلاتي الممزوجة بالدمع سوف أغمر وجهك الجميل... لا تبعد عني أه... أبداً أبداً يا ولدي...

فارت: لا... لا... يا أبت... سأظل إلى جانبك على الدوام...
باريد: بوركت يا ولدي الجميل... لكن أقسم لي أنك لن تنزف الدموع عندما أكون بجانبك...

فارت: أعدك يا أبت كن على ثقة!...
باريد: حسناً جداً... يا ولدي! هكذا تسعد والدك، (يدخل إلى المنزل) مسكين كوركين...

المشهد الرابع

فارت بمفرده

فارت: والدي المسكين!... كم أحزنته!... شوشان... انظري من أجل حبك أدمعت عيني والدي العجوزتين... أعلم أنك في ناظري أجمل من والدي عندما تخلدين للنوم بهدوء في أحضائي وعندما ترددين علي مسامعي "أنا أحبك"... أنت جميلة جداً... أه... وحلوة جداً... (يجلس على مقعد ويغطي وجهه بيديه).

المشهد الخامس

فارت وسورماك (يدخل هذا الأخير من الجانب الأيسر وهو يتظاهر بالتسول)...

سورماك: لمتهمن هذه المرة التسول... احترام هذه المهنة أسهل من اللصوصية وأكثر أمناً من الإجرام.. رغم هيامي بـ "شوشان" إلا أنني لا أستطيع الابتعاد عن الذهب... منذ عدة أيام تتابني هواجس بخيل غريبة (يشاهد فارت) أعتقد أن هذا الشاب هو "فارت"... كم هو رائع!... هيا بنا... لنقم بواجبنا "فارت" غني بما فيه الكفاية... والآن لأخترق قصة مأساوية... عندها لن أحرك مشاعر الجالس أمامي فقط وإنما سأعمل على إفراغ جيوبه كذلك. هذه مهنة تجلب السعادة، يصبح المرء صاحب ثروة بدون تعب... (يقترّب من فارت)...

فارت: لماذا أنت هنا، أيها الرجل الطيب، ماذا تريد؟.

سورماك: (يستظاهر بالهكاه)... إذا نظرت إليّ بإمعان ستعرف سبب مجيئي إلى هنا!!!.

فارت: أعتقد أنك فقير وجئت تطلب حسة....

سورماك: أنظر كيف يعطف إنسان محب للشفقة، على رجل بانس مثلي. ولدي الحبيب... أولادي ثلاثة لا أم لهم.. كسرت يدي اليمنى قبل

ثلاثة أيام... ولم يعد بإمكانني تأمين الطعام لهم. أنا جائع منذ يومين... تعانني أسرتي من الفقر والجوع... تجمع الصغار المساكين حولي وهم يرددون: "أبي نحن جياع"... كم مرة حاولت الانتحار بعد أن فقدت الأمل لكنني تراجعت خوفاً على مستقبل أطفالي... ورحلت أئسول من منزل إلى آخر طالباً الشفقة والإحسان... طردني الكثيرون... وما أن حصلت على قليل من النقود حتى سرقتني اللصوص خلال العودة إلى المنزل... آه... أنت فقط أيها الفتى النبيل تعرف معنى الرحمة... امنحني قليلاً من المال إرضاءً لحبيبتك... انقذ هذه العائلة البائسة...

فارت: أيها الرجل المسكين.. خذ هذا المبلغ وانصرف بسرعة لتعتني بأطفالك... هذا المبلغ الذي أعطيتك إياه هو كل ما أملك... (يعطيه النقود...)

سورماك: (بأخذها) شكراً لك أيها الفتى النبيل... أرجو من الله ألا يحرمك ممن تحب إلى اللقاء (يمفرده وهو ينصرف) فارت المسكين... بعدما سرقت حبيبته، ما أنا أسرق ماله. بدأ عملنا يثمر بشكل جيد... لتتابع... (عند انصرافه تظل أماله "مريم" وجهاً لوجه فيسرع الخطي... تصرخ "مريم" بغزع ويغمى عليها)...

المشهد السادس

فارت ومريم

فارت: ماذا جرى لهذه المرأة؟ لابد أنني أعرفها... أمي؟... نعم هذه أمي!... يا له من مشهد يهز المشاعر!! من كان يا ترى هذا العابر؟! (يحمل مريم ويستأج) أمي... أمي... ماذا حدث لك فجأة؟!... تماسكي... كلميني!!

مريم: (تعود لوعيتها وتنظر إلى فارت) يا إلهي ماذا أرى!!

فارت: لا تتعاجني أمي... أنا "فارت" ابنك بين يديك!!

- مريم: أنت تكذب! ألم يفارق "فارت" الحياة في تلك الليلة اللعينة؟!
- فارت: لا... لا... استطاع "فارت" النجاة من طعنة ذلك اللئيم... ويا ليتني لقي حقيقته يومئذ... لكن أخبريني يا أمي من هو هذا المتسول؟ ولماذا حزنت عندما رأيته؟
- مريم: (بمفردها) أيها الفتى المسكين! إنه لا يعرف غريمه!! (ثم بصوت مرتفع) إنه وحش اتخذ شكل ذلك الإنسان الذي يثير الشفقة...
- فارت: وحش... هل تقولين الحقيقة؟!
- مريم: ولماذا جاء إلى هنا؟
- فارت: جاء يتسول طالباً الحسنة... أخذ مالي ورحل...
- مريم: (تلعن سوروماك) أيها الخارج عن القانون، ألم يصبك اليلع من أن تطأ قدمك هذا المكان حيث تنتظر الكلبة؟ آه!!! ألم تحطم لعنات هؤلاء الأبرياء رأسك عندما خطفت الحبيبة من حضن حبيبها؟ بت منكبوذاً ومحتقراً حتى من قبرك! تنقف قدمك فوق جثث الأبرياء والأخرى تتطلع إلى أقدام الجحيم... لم يعد برق السماء يخيفك! لا تزال تدمي هذه الحياة بما تقتطفه يداك دون شعور بالندم!!!
- فارت: آه... خطف "نوشان" (يهرع إلى الجانب الأيسر من الخشبة)...
- مريم: توقف، توقف... آه لقد ذهب (تعود لرشدها)... هل يا ترى هذا ولدي الذي رأيته؟! حتماً إنه هو... وربما... يكون شبحاً لم يعرف الراحة فهرب من قبره للبحث عن حبيبته؟.

المشهد السابع

باريد ومريم

- مريم: فارت... إياك أن تقتله... ماذا أفعل؟.
- باريد: (يدخل) ماذا تقولين أيتها المرأة؟ ولدي يقدم على القتل...!
- مريم: إن ولدي يهرع للوقوع في أيدي مجرم... أنقذوه!!

باريد: ماذا حصل يا إلهي؟ لكن من أنت؟
 مريم: (دامعة العينين) أمه
 باريد: (بدهشة) مريم!!
 مريم، تجثو على ركبتيها أمام زوجها...
 (يسدل الستار)...

نهاية الفصل الثاني

الفصل الثالث

في المشهد: حقل زاهر... وتلة في الجانب الأيمن خلفها جبال مرتفعة... يتهاوى شلال فوق سفحها

المشهد الأول

فارت (بمفرده)

فارت: حتى متى سأنتشر في البراري أبحت عنك وقد تقطعت أنفاسي بعيداً عن دار أهلي. "شوشان" أطارد اللص الذي اختطفك؟ آه... لو صعدت إلى السماء دعيني أرّ وجهك لو مرة واحدة من وراء الغيوم... لأنظر إليك... لأتطلع إليه ثم أموت... لأصعد إليك وأضمك، آه يا حب... ليتني لم أذق يوماً طعم حلاوتك وحزنك؟! لكن بماذا أتفوه الآن؟... وقعت في غرام "شوشان" وفي سبيل هذا الحب كانت أول قبلة وبسمة وتهيدة ودمعة... عندما ترأودني ذكريات تلك الأيام كيف نمضيها متعانقين نلنقط أنفاسنا معاً... تبدو لي الآن الليالي التي أمضيها بعيداً عنها كأنها عاصفة لا تعرف شروق الشمس!... يا ملاك الرحمة انزل من أهاليل السماء واجمع دموعي بين راحتك لتقدمها إلى العلي القدير... وأخبره أنني لن أنساها ما حييت...

المشهد الثاني

فارت وكىغام (يبدو الأخير نحيلًا، شاحبًا ومرهقًا)

فارت: (يرى كىغام يسير بخطوات بطيئة مثقلًا بالهم)... هاهو شاب آخر فاقد الأمل... أعتقد أنه هو أيضاً أضاع حبيبته، ويشعر بالشقاء مثلي... ولشدة معاناته يبدو شبيهاً بالأشباح..

كىغام: اعتقنسي أيتها الذكرى الظالمة ولو لفترة قصيرة!! ألا يكفي وقوع القلب أسير حبك؟... لكنك لا تصغي إلي!... أنت لن تهجريني حتى يغشى الظلام عيني.. أياها الحب إلى متى ستعلق دماء فؤادي كما تفعل الأفعى؟ "شوشان"! يا ليت عيني لم تراك قط...

فارت: (على اتفراد): شوشان! يا للسماء! ما هذا الاسم الذي انطلق من فم هذا الغريب؟ (يتقرب من كىغام)... الفتاة التي تلفظت باسمها قبل برهة... هل تعرفها؟ هل رأيته؟ تكلم بسرعة تكلم!!

كىغام: تلك الفتاة... آه... إنني أحبها...

فارت: تحبها؟! لكن هي، هل تبادلتك مشاعرك؟!

كىغام: رفضت حبي... <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فارت: لكن متى؟ وأين رأيته؟

كىغام: منذ أكثر من شهر، خلال إحدى الأمسيات عند أطراف الغابة... هناك صارحتها بحبي... لكنها أنبت أن تبادلني مشاعري... لأنها تحب شاباً آخر يدعى "فارت"... كانت لا تتقطع عن ترديد اسمه...

فارت: آه يا "شوشان"... كنت أعلم أنك تحبينني بكل جورحك...

كىغام: ماذا؟ تحبك؟ إذن أنت هو "فارت"! لكن أين هي الآن؟ اعمل معي معروفاً... دعني أشاهدها للمرة الأخيرة، كما ترى سأفارق الحياة قريباً!!

فارت: وأنت، ألا ترى دموعي؟.

كىغام: آه... لقيت حنقها؟.

- فارت: كلا... تم اختطافها.
 كيغام: اختطافها؟
 فارت: الآن أنا أيضاً أريد رؤية وجهها حتى لو للحظة... لكنها غير موجودة هنا...
 كيغام: إذن ساموت دون أن أشاهدها ثانية؟
 فارت: وستلن "شوشان" لأنها رفضت حبك.
 كيغام: آه... كلا... سأباركها قبل أن ألقط أنفاسي الأخيرة... فأنا لا أزال أحبها... سألن ذلك اليوم الذي رأيتها فيه في الحقل جالسة قرب ضفة النهر تتظر إلى مياهه... لم أدر يوماً من هو الأكثر نقاء، هي أم الجدول؟
 فارت: آه... يا "شوشان"! أنت أنقى من الجدول؟
 كيغام: نعم... كانت تتقضي هذه اللطمة الأخيرة.. هل سأقضي نحبي؟ (يتوارى وراء التلة).

ARCHIVE
 http://Archivebeta.Sakhril.com

المشهد الثالث

فارت (بمفرده)

- فارت: منذ الصباح يتقل علي النعاس... مرت ثلاثة أيام ولم يغمض لي جفن... آه لأغفو هنا قليلاً... ربما نترأى لي "شوشان" في الأحلام فيزول شوقي إليها... شوشان لا تتسني أبداً... (يهم بالرقاد مستنداً إلى شجرة تسمع الأغنية التالية، فينصت إليها بقلق ودهشة...)
 أغنية حب
 1 - آه أيها الفجر الشهي اللذيذ
 انثر فوق الأرض الندى والشذرات
 وظلال الغابة الحاملة،

لتسمع زغاريد الطيور الجميلة.

2- هيا استيقظ بسرعة يا فارت،

مع حقول وغابات آراارات،

هناك لنذرف الدموع حتى السماء،

قلباً لقلب ويداً بيد.

3 - قبلة، مقابل ألف مصيبة،

هناك ننعى الحب،

نذراً للمحبة الأبدية،

بالشفاء، بالقلب وبالروح.

فارت:

هذه الأغنية؟! وهذا الصوت؟ يجب أن أتذكرهما.. إنني أرتجف
وقلبي يخفق بشدة... نعم... هذا صوت "شوشان"... لكن أين أنا؟
في السماء، على الأرض؟! نعم، نعم تلك الأغنية التي كنت أسمعها
يوم كنت تجلس قرب سريرى... أينها السماء، أينها الأرض
أحبائى؟ أين شوشان؟ من أين جاء صوتها؟ "شوشان" أنا هنا،
هنا... لكن أين أنت؟... لأحملك وأضم يديك إلى قلبي؟! (يرحل
مسرعاً من الجهة اليسرى)...

المشهد الرابع

يطل باريد وبرفته "مريم" (من الجهة اليمنى)

باريد:

آه كم أنا تعب... نعم... سرنا مسافات طويلة!! متى سنجده؟ هل
غادرنا "قارت"؟ ولدي الحبيب وأملى الوحيد... كان السند
لشيخوختي...

تحل بالصبر يا زوجي العزيز!!

مريم:

أصبر؟!.. نعم سأتجدد... لكن ها قد مرت أيام عدة على مغادرته
المسزل، ابتعد وترك والده العجوز يائساً... فراق "قارت" عاصفة

باريد:

القتلت كياني... هبت ولن تهدأ إلا يوم رحيلي عن هذا العالم... لا يذرف الولد إلا دمعة عند وفاة والده... أما الأب فيذرف كل لحظة دموعاً ليظل ابنه على قيد الحياة... آه لا يعلم الأبناء ما معنى الأبوة... فارت، فارت... كم أنت قليل الوفاء لوالدك؟ والدك الدائم التفكير في كيفية إسعادك... أنت نسيت من أجل حبيبك!!

زوجي العزيز... أنت لا تعلم كيف يتغلغل تأثير الحب في قلب شاب يافع لم يتجاوز السبعة عشر عاماً من عمره... عندما تزهر بذور الحب في فؤاده ينطفئ وهج عاطفته نحو أبويه... ورغم ذلك فإن دمعة واحدة من عين أب تكفي لإخماد مشاعر ذلك اليتيم... تجلس سنجده حتماً ونعود إلى منزلنا لننعم بحياة سعيدة هادئة... (على أفراد) لكن ماذا بالنسبة لولدي "كيغام"؟ لا أستطيع أن أكون سعيدة بدونك.

مريم:

نعم سأتحلى بالصبر... لكن إن لم نجده، ماذا سأفعل؟... آه هل أقدم على إزهاق روحه في لحظة يأس؟ يا لهذه الشكوك التي تملأوني!! أي كبر ابتلع جسده؟ فأسكنه مياحه، أي مكان اصطبع بدمه الأحمر اللاني؟؟ فارت! فارت! هل أذبلك الموت، كما تذبل عاصفة الشتاء السورود؟ آه، هل يبشر أحدهم الوالد التاكل أنه قد يجد وحيداً على قيد الحياة؟؟ كأن الطبيعة حزينة على بني (يلتفت إلى الجهة اليسرى) ماذا أرى؟! هاهو أحدهم يطوف في الغابة؟ هل هو فارت؟... يا لسعادتي إن كان هو (ينصرف)!!

باريد:

أذهب لملاقاته قد يكون "فارت".

مريم:

المشهد الخامس

مريم (بمفردها)

لكن من سيعيد إليّ ولدي "كيغام"؟! بالرغم من أنه ثمة جريمة خيانة العهد لمن أحبه... لقد فقدت ولدي... عندما أجد أياً منهم ربما سأتمكن من نسيان الآخر... زوجي المسكين، كم هو باتس؟!

مريم:

ربما وجد "فارت" (تنصرف من جهة اليسار).

المشهد السادس

كيغام (يفتش عن أحدهم)

كيغام: لقد رحلت... سأموت.. هاهي المنية تنشب مخالبيها تنتظر أن أضمها.... ليدفن حبي وأملتي تحت تلك الأزهار.. ما أنا؟ وكيف أصبحت؟ تحولت إلى خيط وصوت مرثي... يد خفية تدفعني إلى قبر حفره الحب بسواعده المدماة... سأنزل إلى هذا الرمس "شوشان"... أحبك كثيراً!! ليكن قاعك عميقاً أيها القبر كي لا تتسلل أصوات وكلمات وقبيلات الحب من سطح الأرض... أيها الحب، جلال الشبيبة!! أنت من يشد سكينه باستمرار! إلى اللقاء أيها الغابات والحقول... وبرايع الطفولة... وداعاً يا أمي... نتجمع الدموع التي تترفيها فوق قبري... انهارت قواي... قدماي لم تعودا تحملاني (يسقط أرضاً) شوشان!! أمي!!...

المشهد السابع

<http://Archiv.khrit.com> "كيغام" و"مريم"

مريم: ما هذا الصوت الذي سمعته؟ كان أحدهم يناديني "أمي"! (تشاهد "كيغام" فتقترب وتمعن النظر إليه ثم تصرخ)... كيغام!!

كيغام: أمي! أهذه أنت؟!

مريم: قف على قدميك، قم انتصب.. ضم أمك يا ولدي!

كيغام: آه لا أستطيع!

مريم: ماذا جرى لك يا بني؟ يا لوجهك النحيل والشاحب... يا لهاتين الركبتين الضعيفتين!

كيغام: أحببت فتاة، لكنها رفضت أن تبادلني مشاعري!!

مريم: الحب، مرة أخرى؟

كيغام: فرميت نفسي صوب الجبال... لم أكن راغباً في الطعام والشراب

ولا حتى في تنفس الهواء... عينا حاولت أن أنساها... نسينك ولم
أتمكن من نسياتها... طيفها كان يطاردني كما يطارد الجراد
ضحيتها... كان يدفعني لإطلاق الزفرات والتنهيدات... لمي كانت
تضعف قواي بحيث لم أعد قادرا على وداعك للمرة الأخيرة
اليوم...

مريم: بنسي... سأحرم من وجودك بقربي... لن أتمكن من تحطيم أبواب
ستقطني عنك اعتباراً من اليوم... تلك التي تحول دون الابن وأمه
وقد اغرورقت مقلتها بالدموع...

كيغام: أمي لا تغرق قلبي المحترق بالدموع لأنها عوضاً عن أن تطفئه
ستذكي لهيبه... دعيني أنرف الدموع الأخيرة في الدقائق المتبقية
لسي من عمري... لأنها ليست كالدموع التي ذرفت خلال
طفولتي... إنها اليوم قطرات من دماء فؤادي تخرج من مقلتي بعد
أن نضبت دموعي...

مريم: أه ثم أه... أهكذا هي الحياة؟ وهكذا يكون الإيجاب؟ لتتمتع الأم بولد
يجب أن تنعم بقلب لا يكل ولا يتعب!!..

كيغام: إذن لمن سأذا تجلسني بي إلى هذه الدنيا؟ إن كنا سنبقى أنت وأنا هكذا
يانسين؟.

مريم: ألا ترى أنه الحب!!..

كيغام: كملاك جميل تراءى الحب لأول وهلة.. استقبلته لشدة روعته لكن
فيما بعد وجدت أنه يفقد لتلك الروعة... وجدت الحب جليداً
يتعقبني بدون هودة والهرولة بين يديه... وأخيراً أمسك بي
وأصابني في مقتل... لكن لتتبارك السماء، إنها لم تحرم شاباً مثلي
من رؤية والدته... ضمني إلى صدرك للمرة الأخيرة يا أمي!...

مريم: أه هل ستترك أمك هكذا يا ولدي؟

كيغام: أسدل الظلام أمام ناظري... هاهو شيخ الموت أمامي يقف
منتظراً... وداعاً يا أمي... (يلفظ أنفاسه الأخيرة ويموت)...

مريم: ساعدوني... ساعدوني... ابني يقضي نحيبه... آه لقد مات... أصبح جثة هامدة... لم يعد "كيغام" حياً... سأقضي بقية حياتي أنتحب فوق قبره...

المشهد الثامن

"مريم" و"باريد"

باريد: (يبدو فاقد الأمل) عيثاً... ليس هو...

مريم: (ترى باريد) آه...

باريد: من هذا؟... إنه ليس "فارت" (يقترّب من الجثة)

مريم: هذا ولدي... (يسدل الستار)...

نهاية الفصل الثالث.

الفصل الرابع

توزيع الديكور: كهف مظلم، أقواس، حفرة في جداره، قنديل يتدلى من القوس....

<http://Archiv.khrit.com> المشهد الأول

"سورماك" (يغبط فوق المقعد ويسمع شخير) و"شوشان" (نائمة داخل الحفيرة)

سورماك: (بهيب منتفضاً عكر المزاج يتلفت حوله... ينظر باتجاه الحفيرة، فيهدأ)... لازلت طليقاً وسعيداً... ولا تزال شوشان في قبضتي... آه! ما هذا الحلم المزعج الذي رأيته؟... لا يزال قلبي يخفق من شدة الخوف... هالنا أرتجف كلما تذكرت ما حصل... لماذا لا أستطيع أن أنعم بحب هادي؟! أينها السماء الظالمة، لماذا سلبتني راحة الفؤاد؟ ما أن يحل المساء حتى أستشعر جلادين يحومون حول رأسي... يتريصون بي... لباسهم أسود، يرمقونني بنظرات مدججة بالتهديد والوعيد... تمر ذكريات الماضي أمام ناظري، أما

خلال النهار فأشعر أنني لست على ما يرام... خيال والدي المسكين لا يسرح مخيلتي وقد وضع يده الباردة فوق صدري وراح يضغط لحيمة قلبي!! أتذكر ذاك المساء الرهيب حين قفزت من فراشي وأنا أرتعد خوفاً... انتفتحت حولي فزعا... رفعت عيني إلى السماء لأشاهد القمر يرمقني بوجه عابس... تسمرت في مكاني كنتال جامد... ثم تقدمت بتردد... تراءت لي حبيبتي آنذاك فتشجعت... لأنني كنت أمني انفس بالعيش إلى جانبها طليقا، وصلت ساعتها أمام غرفة والدي... دخلت... وجثوت أمام فراشه... رغما عني انطلقت زفرات حسرة من أعناق قلبي، رحت أتصيب عرقا بارداً... عندها، انتهى كل شيء... فقد أقدمت بيدي هاتين على إزهاق روح أب كان يقف حجر عثرة أمام مشاريعي المربية... لا تزال نظراته الأخيرة ترافقني...

(تحاول خداعه) كم أحبك!!

شوشان:

عندما أسمع هذا الصوت الرقيق أشعر بالسعادة. وعندما أحضن "شوشان" تمكن نفسي وتبدأ... كنت قلباً معها مراراً... وما أن استعانت حتى ركنت تلك القساوة جانباً كي لا يخرج والدي من قبره وينضم إلى صفها... كانت نائمة كما هي عليه الآن في حالة إغماء... اجتاحتني رغبة همجية... كرهتني على إثرها وراحت تيكى... لكنها بدأت تحبني وتعطف علي... كم هي جميلة؟... كأنها ملاك يخط من السماء وحط على الأرض من أجل الحب...!

سورماك:

(تعيد ترديد الكلمات اللاحقة) أنا أحب "سوماك"؟! هذا الخارج على القانون؟! مستحيل، أنا أكرهه!!... أنظاها أنني أكن له الحب كي يتق بي ويخرجني من هذا الكيف المظلم...

شوشان:

أيتها الشقية! افتضح أمرك... ابتساماتك إذن كانت كاذبة؟! ستدفعين غالباً ثمن تلك الاعترافات...!

سورماك:

(تصحو حزينة وتقترب من سورماك) هل لا يزال الظلام يخيم على السهار؟ سورماك... أشرق الفجر كما اعتقد... لأنني أسمع

شوشان:

زقزقة العصافير عن بعد قلت لي: أنك سوف تدعني أشاهد شروق الشمس اليوم وقد حرمت منها منذ زمن... كم أنت طيب القلب؟!...
وكم أحبك يا سورماك؟

سورماك: اتركيني أيتها المنافقة اللعينة! أنت تخدعيني... أعرف ماذا وراء بارقة البسمة في عينيك؟ إنها تخفي كرهك لي يا ناكرة الجميل... أنا أحبك وأنت تعملين على ابتزازي بابشامتك غير المبالية!!

شوشان: ماذا تقول سورماك؟ هل جننت أم أنك تمزح؟! (على انفراد) يا إلهي لم أعد لأقيم؟ يا ترى ما الذي جرى له؟!

سورماك: لا... لا... أدرك جيداً ما أقوله!! كنت أستمع لتتهذاتك خلال نومك وأتلمس الدموع المنهمرة في الظلام فوق وجنتيك... وأرى قلبك محزوناً تتعكس فوق صفحات وجيك الصفراء أمواجه المتلاطمة كأنها في المرأة!! لا تعدي الأمل على حبك المخادع لأنه ليس له أي تأثير على قراراتي القادمة!...

شوشان: أخطأت سورماك بشكوكك تلك أخطأت بحق مشاعري... هل تعلم أن كلامك كالسهم تصيبني في قلبي؟!...

سورماك: إن كان الأمر هكذا فأقسم أن قلبك يحمل الحب الصادق... ها أنت صامسة لا تريدن التفوه بكلمة! هل جعلك هذا الكلام تصابين بالبلع؟... إذن استشقي عبق ظلمات هذا الكيف! وبلي هذه الحجارة بدموعك! أو فجرني هذه الأقواس بتتهذاتك، لا أحد سيسمعك ويعطف عليك... ليس في الجوار سوى سورماك!

شوشان: أوه... إنك تعذبني بقسوة... سورماك! من عهد إليك أمر طعن قلب نذر بهذه الطريقة؟ كنت بدأت للتو أقطف الزهور من بستان الحب وأصنع منها باقة؟ لتعمل علي خطف تلك الباقة من يدي فتضع مكانها باقة من الشوك... كنت قد بدأت أشعر للتو بالحب والحيرة فسي ظل بساط السماء الأزرق المطرز بالنجوم... لكنك فتحت أمام أقدامي هاوية دفعتني إليها قسراً... أنتحب الآن تحت ظلال أقواس

مظلّمة... نعم... أكرهك "سورماك"! فلتذرف دموعي تحت جناح
هذا الظلام بسكينة... هنا لن يرأف بحالي أحد؟!

سورماك:

لا تتكلمي هكذا يا "شوشان"! بادليني الحب لتعرفي السعادة!
واعلمي ما أن ترسم وجنتاك ابتسامة الحب الصادق حتى يفيض هذا
الكيف المظلم بالنور... وتتحوّل تلك الابتسامة إلى شمس تنير قلبي
وقلبك... ما أن تبسّمي حتى تلبس تلك الأقوال السوداء اللون
الذهبي... سيتوارى كل منا كالزهرة في هذا المكان الموحش أما
عندما ستمنحني شفتاك قبلة الرضا فستجول تمنّاتها كموسيقا قيثارة
طرية في تلك الأرجاء... ماذا تريدان أكثر من هذا؟!

شوشان:

أمراً واحداً فقط! لا تعرفه أنت!...

سورماك:

لكن عندما ستحبيني بصدق سأدعك تريه شخصياً دون قبرة.

شوشان:

هل "قارت" حي يرزق؟... لا... من غير المعقول! ألم تقض عليه؟
يا ظالم إنك تعذبني باستمرار... توقف في مخيلتي ذكريات حزينة
دفنت في أعماق قلبي... أنت تخدعني... تخبرني أنه حي يرزق
كي أعتقد أنك لست قتله!!

سورماك:

أقسم: إن بادلتني الحب ستريه! <http://Arch>

شوشان:

لست أثق بقسمك، حتى وإن رأيته بأعين عيني سأصرخ أنني في حلم
كاذب ليس إلا... وإن رؤيته محض خيال (ببأس تغطي وجهها
بيديها ثم تتجه لتجلس جانباً)...

سورماك:

(على انفراد) يجب أن أدعها وحيدة لتعاني مزيداً من اليأس... ثم
أعود فتضمّني إليها... لأذهب وأحضر قليلاً من الطعام).

المشهد الثاني

"شوشان" (وحيدة)

شوشان:

لقد خرج... أنا وحيدة مع الظلام والصمت مرة أخرى! حاولت
مراراً الهروب من هذا المكان الرهيب لكنني لم أعثر على أي

مخرج! عبثاً توجهت من هنا إلى هناك.. ارتطم رأسي بالأقواس...
لكنني لن أستمز في هذا البحث بسبب مخاوفي ويأسي... آه كم أنا
شقية! لو تعلم يا فارت، كيف تتهمز دموع قيثارة حبي قطرة،
قطرة... قيثارة كانت تعزف ألحان الحب السعيدة... لماذا أنا على
قيد الحياة؟ إنني أقبع وسط هذا الظلام لا أرى بصيص أمل؟! سوف
يمنحني الموت جناحين قويين أحلق بهما في طريقي إلى السماء...
هناك سأبحث عن "فارت"... سوف أجده في الجنة جالساً بين
الزهور يبكي من أجلي... سأمسح دموعه وسنتبادل الحب إلى ما لا
نهاية.. فهناك لا وجود للأعداء... سأبتعد عن هذا المكان الجهنمي
لا مبالية بهذه الحجارة التي امتصت دموعي... لا مبالية بأقواس
تسخر أصدائها مني كلما تنهدت بألسنة (تصطدم قدمها بخنجر)...
ما هذا؟ (تلتقطه) آه! لقد وجدت سلاحي!! ابتعدي عن دربي يا
ذكرياتي السعيدة!!! ابتعدي عن ناظري يا ظلال الطبيعة
المعجانية! عبثاً تسخرينني! الأرض ليست سوى وردة ملينة
بالأشواك... أما السماء فهي وردة دون أشواك... هناك وقع
أقدامنا هنا وأقدامنا لا أريد رؤية وجهه الشيطاني مرة
أخرى (تطعن صدرها بالخنجر).

المشهد الثالث

"فارت" و"شوشان"

فارت: (يأتي متلماً طريقه) يا لربة هذا الظلام والصمت... "شوشان"،
"شوشان"؟ أين أنت؟...
شوشان: يا إلهي... هذا الصوت... هل هي الهلوسات؟ هل يا ترى كنت
أحلم؟
فارت: "شوشان"! أصدري صوتاً! أنا "فارت"!...

- شوشان: يا للسماء!! سوف أجن الآن... لكن هل هذه خدعة أخرى؟ لقد توفي...
- فارت: "شوشان"... (يقترّب) أين أنت؟ آه (يحملها بين ذراعيه).
- شوشان: (تتألمه) آه! هل أنت هو حقاً؟
- فارت: ألا تعرفيني؟ هل نسيّتي؟ "شوشان"؟
- شوشان: لا... لا... نسيّت لون السماء والورد ولم أتس وجهك... لكنه ليس سوى حلم... سراب!!... لأن فارت قتل...
- فارت: اهدائي "شوشان"! لم أزل على قيد الحياة!!!... نجوت من ضربة "سورماك"... لكن لنذهب لنبتعد عن هذا المكان المخيف.
- شوشان: لكن، كيف وصلت إلى هنا؟ كيف علمت أنني حبيسة هذا المكان!!؟
- فارت: قبل بضعة أيام... عندما كنت أنتقل مشرداً حزناً بين هذه الجبال الوعرة سمعت فجأة صوت غناء... عرفت أن الصوت كان صوتك... فالسرعت كالمجنون أتتبع مصدره... أفتش عنك هنا وهناك... لكن عبثاً بحثت!! تضاعفت أوجاع قلبي... لكن بفضل العناية الإلهية ومساعدتها عثرت البارحة على مدخل هذا الكهف... ورحبت أنتصت للأصوات الصادرة من داخله!!... لأسمع صوت "سورماك"، ثم صوتك... فاخترت بعيداً بين الأدغال من شدة فرحي منتظراً خروج "سورماك" لأدخل... لكنه لم يخرج... قضيت ليلتي هناك ثم نهضت عند الفجر ورحت أراقب المكان... رأيت "سورماك" يهيم بالخروج، أردت الهجوم عليه، لكنني عرفت أنه يحمل سلاحاً فلم أجرؤ على ذلك... خفت أن يقضي عليّ هذه المرة... فلا أتمكن من إنقاذك... تركته يبتعد ويصعوبة بالغة تسلقت إلى هنا... وهائناً إلى جانبك... لكن لماذا لا تسرعين؟ لنذهب!!... لكن ما هذه اللزوجة التي بين يدي؟... ما هذا؟ خنجر!! (يصرخ مرتعداً) يا إلهي! "شوشان" بكأوك يخيفني... كذلك صراخك!!... آه قلبي لي، ماذا هنالك؟ ماذا يجري لك؟ سوف

- أصاب بالجنون؟ إنني أرتجف رعباً... أه.. الدماء تسيل من قلبك!!
ماذا فعلت "شوشان"؟! ساعدوني!... ساعدوني!...
- شوشان: حاولت... "فارت"... الطعنة في قلبي (كلماتها متقطعة)...
- فارت: أه! أعطني الخنجر على الأكل كي أموت معك!!...
- شوشان: لا... لا... سوف تعيش...
- فارت: لماذا؟
- شوشان: لنثأر لي!
- فارت: ربما "سورماك"... ذاك الوحش.
- شوشان: بخبثه، انتزع مني كنزاً كنت قد خبأته لك!
- فارت: ماذا تقولين؟ "شوشان" هل تريدان أن أدفن حياً؟ تلك الكلمة أخافتني أكثر من الموت... جمدت دمعى...
- شوشان: ها أنذا أريد الموت من أجل ذلك... لأنني كنت أعلم أنني لا أستحق حياً... وأعلم أنك ستلومني... لكن... لو أعلم كم تعذبت وتألمت بعيدة عنك... دون أن أرى بصبص شمس... دون أن أستشق نسمة عذبة... إذن أنت تكرهني؟ "فارت" ألا تشفق علي؟ ألا تسامحني؟
- فارت: لا أستطيع أن أكرهك "شوشان" لكنني فقط ألعن ذاك الذي جعلنا بالسين... أه إن غيتك الثرى "شوشان" ماذا سأفعل أنا في هذه الدنيا وحيداً؟ أنا أيضاً أريد أن أموت!!
- شوشان: لا... لا يا "فارت"... سوف تصلي وحيداً حتى توافيك المنية، فوق الجبال، من أجل روحينا كي نكون سعيدين في السماء إلى الأبد! لا تبك من أجلتي! لكن أعلم أن الملائكة، عندما نصل إلى السماء ستمسح لنا دموعنا... هناك سنستمر في الابتسام وسوف أسألك وتساألني: ما هو الدمع؟ سوف نرتاح بين الزهور ونغفو لأنه ليس هناك من يستطيع التفريق بيننا!...

فارت: لكن حياتي بدونك ستكون عبارة عن دموع لا تنقطع.. أنت ستكونين سعيدة في السماء أما أنا فساظل يائساً باستمرار على هذه الأرض...

شوشان: سوف أركع وأصلي دائماً أمام كرسي العلي القدير كي يعيدك بسرعة إلى أحضاني... وتلك الباقة المعبأة بالدموع سأقدمها للعلي القدير...

فارت: لكن عندما سأصحو من تلك الأحلام الجميلة سأعاني من مرارة الحرمان وسأظل أطلب الرفاد كي أحلم بك...

شوشان: كيف أفارقك "فارت"؟ هاند أُرقت الدقائق الأخيرة في حياتي... ليقترب هذا القلب الدامي لأخر مرة من صدرك لأنه سيجمد بعد قليل.. مات جبينك ليلمس شفتي قبل أن تذبل... قبلة أخيرة أطبعها فوقه... حبيبي "فارت" لا تبعد تفكيرك عني حتى لو للحظة... وإلا ستمسي تلك اللحظة بالنسبة لي ليلة حزينة... لا تتركني "فارت"... ضمني أكثر فأكثر إليك... وداعاً... (تتطفئ "شوشان")...

فارت: آه... حصل ممك يا "شوشان"؟ ذبلت أيتها الزهرة الجميلة!! أغمضت عينيك إلى الأبد!! آه افتحيهما مرة أخيرة لأرى وجهي من خلال مقلتيك السوداوين.. عبثاً أصرخ بعد الآن.. لم تعد "شوشان" موجودة... "شوشان" الرقيقة أصبحت جسداً بارداً دون إحساس... سرق الموت القبلية من شفتيها بيديه الباردتين... لم يعد قلبي — "شوشان" — يشعر بالنشاط يدب فيه... كأن ظلال الموت أسدلت فوق جسدي... هناك وقع أقدام تقترب! من القادم يا ترى؟! (أصوات من الخارج).

الراعي: نعم رأيت فارت بأمر عيني يدخل إلى هذا الكهف!!

فارت: من يبحث عني؟

المشهد الرابع

الشخصيات المذكورة سابقاً يضاف إليها "باريد" و"مريم" و"الراعي" يحمل فانوساً

باريد: أحمل الفانوس إلى هذا الاتجاه! (يتكلم مع الراعي).

فارت: أبي؟

باريد: ماذا؟ هل سمعت صوتاً؟

مريم: نعم صدر من هذا الاتجاه!.

فارت: أنا هو... أنا هنا.. يا والذي... أسي...

باريد: نعم إنه صوت وحيد (يقترب ويحمل فارت)، أخيراً وجدت ولدي

الحبيب...

مريم: ماذا تفعل في هذا السجن القفر يا بني؟

فارت: (يربهم الجثة) انظروا!!..

الجميع بصوت واحد "شوشان" ميتة!!

فارت: كنت أبكي عليها...

الراعي: هناك صوت أقدام قادمة من هذه الجهة!! أحدهم يقترب!!

المشهد الخامس

الشخصيات المذكورة يدخل "سومارك"

سومارك: الموت واللعنة... من هناك؟ من يجرؤ على أن تطأ أقدامه كهنفي؟!

مريم: (على أفراد) هذا هو

فارت: (يستقدم نحوه) أنا جئت لأنتقم منك.. هذا الجسد يطلب دماً أيها

السافل

سومارك: "شوشان" ميتة (بعد أن يشاهد الجثة)... الولد لكم أيها البؤساء

(يهاجم "سومارك" فارت والخنجر بيده، فتلتقط مريم خنجراً من

الأرض وتطعن "سومارك").

مريم: توقف أيها الخارج على القانون!!!
سورماك: لقد ضمنت (بضع يده فوق صدره) ... أخذت بشارك أخيراً (يقع
متدحرجاً على الأرض) ...
فارت: أمي!!!
باريد: ماذا فعلت؟ ...
سورماك: ليست مذنبه.. أنا هو الملعون (ينطقن) ...
فارت: آه.. هاهي ملائكة السماء تحلق فوق المكان ميسمة... ستأخذ
"توشان" ... خذوني أنا أيضاً ... خذوني معكم!!!

(يسدل الستار)

.... (النهاية) ...

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>